رجَائى عطِـــيّه

فى صحبة
محمد عبدالله محمد

المكتب المصرى الحديث

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عطية ، رجائي.

في صحبة محمد عبدالله محمد / رجائي عطية.- ط١ - القاهرة
:المكتب المصري الحديث، ٢٠١١. ٣٦٨ص، ٢٠سم

تدمك ٩٧٧٢٠٩٢٠٩٣

١ المحامون المصريون

٢. محمد، محمد عبدالله ، ١٩٠٨ -

أ - العنوان

٩٢٣,٤

رقم الإيداع ٢٠١١/١٠٧٩٢ تاريخ ٢٠١١/٦/١٥

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي طريقة كانت
ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات
الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة المؤلف على ذلك كتابة ومقدماً

المكتب المصري الحديث

www.almaktabalmasry.com

Email: may642003@yahoo.com

القاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت : ٢٣٩٢٤١٢٧

الإسكندرية: ٧ شارع نوبار المنشية ت : ٤٨٤٦٦٠٢

تقـــديم

بينى وبين الأستاذ الجليل محمد عبد الله محمد فى الميلاد ثلاثون سنة، ولد سنة ١٩٠٨ وولدت سنة ١٩٣٨، وبينى وبينه فى التخرج فى كلية الحقوق جامعة القاهرة على أيامى، وفؤاد الأول على أيامه - تسعة وعشرون عاما، فقد تخرج فيها عام ١٩٣٠ وتخرجت عام ١٩٥٩.. لا توجد بيننا قرابة دم أو رحم أو مصاهرة ، ولكن قيض لى أن ألتقى بهذه القامة السامقة وأنا أقترب من الأربعين، فكان لى أبا بالروح والعقل .. أعطانى من مشاعره وعقله ورعايته وعنايته - ما حفر آثارًا بعيدة الغور فى فهمى ورؤيتى وفكرى وأسلوبى ، فكان صاحب الأفضال التى لا تعد ولا تحصى ، وصرت أردد بقلبى ولسانى - أننى صرت بعد إلتقائى به غير ما كنته قبل أن ألقاه ، لا يمضى يوم إلا وأذكره وأترحم عليه وأفتقده . ظهر ذلك فى أحاديث إذاعية وتليفزيونية بغير عد، مثلما سطر فى مقالات متفرقة كتبتها فى موضوعات مختلفة فى أوقات شتى، ضمت بعضها فيما بعد كتب منشورة، وبعضها لم يتجاوز صفحات الصحف، ولذلك رأيت أن أجمعها معا لتكون فى هذا الكتيب متاحة لمن يريد أن يلم بفكر وموسوعية هذه القامة الثرية المعطاءة السامقة .. هذه القامة التى لا أتردد فى أن أقر بأن صاحبها صنعنى صناعة جديدة.. أشعر بمصاحبتها لى فى كل سعى وفى كل خطوة، بل وفى كل خاطرة وسانحة تطوف بى، رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

رجائى عطيه

المرفـأ و الإنســان

المرفـــأ ! (*)

مهما كبر الإنسان، أو تقدم به العمر، أو ارتفعت المكانة ـ يحتـاج دوما إلى مرفأ .. يأوى إليه حينا أو يلقى همومه، أو يضع رأسه على كتفه ليبكى ويغسل أحزانه، أو يستمد التشجيع والثبات والثقة، أو ينشد النصيحة، أو يتلقى العون والمدد .

ظللت ثلاثين عاما أنعم بهذا المرفأ . تلقانى محمد عبدالله محمد وأنا أقترب من الأربعين، فمنحنى أبوة عريضة، وأستاذية معطاءة، وعاطفة متفهمة حانية .. أعطانى من علمه وأستاذيته ما جعلنى من صناعة يديه .. ولكن أميز ما شملنى به ـ هو أبوته الحانية، وواحة الأمان التى ألجأ إليها حين يحزننى أمر، أو تلم بى ملمة، أو تستعصى علىّ رؤية .

لازلت أذكر أبوته الحانية عندما ذهبت إليه شاكيا من فقدانى تدفقى بعد أن لامسته فى إحدى القضايا وبهرتنى عظمته وقوة عارضته وعمق أفكاره، فهانت أمامى الفصاحة والبلاغة اللفظية، وتضاءلت أمام العبقرية العقلية اللامعة . يومها اهتزت ثقتى فى الفصاحة وأساليبها، واهتزت خطوط التوصيل بين العقل واللسان، وتعثر التدفق وانحبست الطلاقة، فذهبت إليه أشكو ما أنا فيه، فإذا به يخفف روعى، وينتشلنى من وهدتى بعبارة واثقة حانية لازلت أحفظها عن ظهر قلب . قال لى : " لا تقلق أنك توقفت وتأملت وراجعت . كثيرون يأتون إلى الحياة ويفارقونها كما دخلوها دون أن

(*) المال ٢٠٠٨/١٢/١

يتوقفوا أو يتأملوا أو يراجعوا . توقفك يعنى أن " شجرتك طيبة وستورق" .

من يومها فى السبعينيات ـ لم أفارق هذا المحامى العلامة المفكر الجليل حتى فارق دنيانا فى أوائل القرن الواحد والعشرين . لازلت أذكر كيف وجدت لديه المرفأ حين ألمت بي ملمة شديدة، حزننى أمرها .. ولم يأخذ بيدى ويكفكف عنى إلا أبوة هذا الإنسان العظيم . ظل محمد عبدالله محمد لأكثر من ثلاثين عاما المحور الحاضر فى حياتى . قد مرت على رحيله ثمانية أعوام، ومع ذلك لا يمضى يوم دون أن أتذكر محمد عبدالله محمد، أفتقده وأترحم عليه ويوحشنى فراقه . لم أعد أجد المرفأ الذى كنت ألجأ إليه، ولا الأنيس الذى كان يؤنس عقلى ويهدى خطاى وينير طريقى .. كم أدرك اليوم أننى بأشد الحاجة إليه، وأتذكر كلماته أن غربتى فى المحيط سوف تزداد . لماذا يا محمد بك ؟! فتأتينى كلماته العميقة أن الناس الخلصاء للحق والحقيقة تصيبهم الغربة على الأيام وسط محيط يضمر فيه الإخلاص وينطمر الوفاء وتجف القلوب . كانت كلمات محمد عبدالله محمد هى الموحية لمقال كتبته فى نوفمبر ٢٠٠٢بعنوان . " غربة القريب " !

كم أحس بالغربة فى هذا الزمن الكسيح، وكم أحس بالوحشة الشديدة وسط محيط نضبت فيه معانى الوفاء وتلاشى الإخلاص وتفشت المظهريات وتقلص الصدق وضمرت المشاعر!

نظرت حولى وسط الهجير الذى أحاط بى وأخذنى من كل جانب، فلم أجد "المرفأ " .. رحل محمد عبدالله محمد، ولم أجد من يملأ مكانه الشاغر . سيظل مكان محمد عبدالله محمد شاغرا لا يملؤه ولا يقدر على ملئه أحد . محمد عبدالله محمد هو الأب الذى تيتمت بعده للمرة الثانية بعد يتم الأب، وهو السند الذى لم أجد

عوضاً عن عقله وقلبه وفهمه وعطائه، وهو المعنى الذى تاهت واضطربت من بعده المعانى!!

أبى الروحى محمد عبدالله محمد . كم أوحشتنى . يرحمك الله رحمة واسعة .. ويلهمنى الصبر والعزاء حتى ألقاك !

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

التوحد فى الكل

فى ١٩٩٠/٦/٢٧، غادرت مصر على متن طائرة إلى الولايات المتحدة، ـ فى طريقى إلى مستشفى سانت لوك فى هيوستن لإجراء جراحة دقيقة بالقلب تحدد لها يوم ١٩٩٠/٧/١٦ .. وكان هدفى من الرحيل مبكرا، أن أخلو إلى نفسى أياما قبل الجراحة أفكر وأتأمل وأبحر فى عوالم كثيرا ما تشغلنا هموم الحياة وأحداثها الجسام ـ والتافهة !! ـ عن التأمل فيها !! . فى رحلتى لم أصحب معى غير القرآن الحكيم وكتاب " معالم التقريب " لشيخنا العلامة الجليل الأستاذ محمد عبد الله محمد المفكر والشاعر والمحامى الشهير ومؤلف عمدة المراجع " فى جرائم النشر " . إن صحبة القرآن والسياحة فيه صحبة طبيعية معلوم أسبابها .. فلماذا " معالم التقريب " بالذات وكنت قد قرأتها ثلاث مرات قبل الرحلة، بل شاركت فى جمعها للنشر فى كتاب الهلال عدد مارس ١٩٨٩، مع ما يصاحب هذا الجمع من تكرار للقراءة الدقيقة الملمة الواعية ؟!

جوابى أن " معالم التقريب " هى أكثر ما قرأت فهما للقرآن وإلماما واعيا عميقا بفلسفته وروحه وأحكامه .. وهو إلى ذلك دعوة عميقة حادة للتقريب بين المسلمين .. فى معالجة مليئة بتضاعيف وسبحات تثير الفكر وتدعو إلى التأمل .. فالتقريب هو اتجاه حاد

* الجمهورية ١٩٩٦/٨/١١ ـ مجلة فكر وفن العدد/٤ ـ ١٩٩٦/١١/١

داخل الإسلام، مجرد تماما من اللون الطائفى أو العرقى أو الإقليمى، يسعى للتخلص من العداوة معلنة أو خفية بين أهل المذاهب صيانة لوحدة المسلمين التى تدور حول التسليم بحقوق عامة للمسلم فى كل بلاد الإسلام .. وأهمها عصمة دمه وماله وعرضه وألا يظن به السوء، وثانيهما التمسك بأخوة المسلم برغم اختلاف مذاهب مدارس الفكر .. فالخلاف المذهبى حين يصبح عداوة يكون قد صار أهواء ومصالح، وهذا لا يواجه إلا بلفت النظر والاعتياد على تذكر أنه لا خلاف على الأساسيات .. فإله الجميع واحد .. ونبيهم واحد .. وكتابهم واحد .. وقبلتهم واحدة . وهذا هو رأس مال كل مسلم .. ولا بد من تذكره لكى تتجه قلوب المسلمين وعيونهم إلى المستقبل المشرق الذى ينتظرهم إذا تآخوا وتحابوا .. وكتاب " معالم التقريب " يثير قضايا غاية فى الأهمية ويتناول ذلك كله فى معالجة جادة مليئة كما قلنا بومضات وتضاعيف وسبحات مشحونة بفكر جاد عميق .. ومع ذلك مضى الكتاب للأسف ـ مثلما تمضى معظم أعمالنا الجادة ـ دون أن يلتفت إليه أحد ؟!!

الأستاذ محمد عبد الله، عالم موسوعى، ومفكر فذ، وواحد من أكبر عمالقة جيل الرواد .. تتلمذ عليه آلاف ملأوا الدنيا .. بعضهم شغل ويشغل أرفع المناصب والمواقع ما بين كرسى الوزارة ورئاستها ورئاسة مجلس الشعب .. ومع ذلك لم تعره شهرته ولا دائرة تلاميذه الواسعة بالخروج عن عزوفه الشديد عن أى رغبة فى التصدر أو عرض النفس !! .. حتى إنه ظل سبعين عاما ينظم شعرا عموديا يطاول بلا أدنى مبالغة شعر أبى العلاء المعرى ـ دون أن يعرف أحد؟! ـ حتى وقعت بالصدفة على هذه الثروة فبادرت ـ برغم معارضته ـ إلى طبعها فى ديوانين كبيرين : العارف، والطريق .

فى كتابه " معالم التقريب " بين المذاهب الإسلامية يبين أن التصدى للدعوات كثيرا ما يكون مقرونا من الناس بوهم كل واحد منهم أنه هو طبيب الملايين !! بل طبيبهم الوحيد !! وأن مرضاه وهم ملايين البشر لا يمكن أن ينتظروا منه أكثر من أفكار أو نصائح أو وصفات مقولة أو مكتوبة ليس عليه منها تبعة ولا عهدة صدقت أم لم تصدق ـ اتبعت أم لم تتبع .. وكل منا قد مر فى الغالب بمثل هذا الموقف وحاول مرة أو مرات أن يقوم بدور طبيب الملايين على هذا النحو وهو يظن أن ملايين العالم يترقبون العلاج والإصلاح على يديه !!

و وراء هذه النزعة، رغبة غريزية فى التصدر والقيادة والأهمية، مقرونة بقدر كثير أو قليل من الحرص الغريزى على إشباع رغباتنا الذاتية بأقل ما يمكن من الجهد والمشقة والخاطر، وبأكثر ما يمكن من الأمن والدعة والعافية !!

ومهما يكن من أمر هذه النزعة، فإن اعتيادها ـ فيما يقول أستاذنا الجليل محمد عبد الله محمد ـ يجيى لدى كثير من الناس إحساسا كاذبا بالعلم والخبرة والجدارة والتفوق ؟!! ويخلق لديهم شعورا طفوليا صبيانيا بأن تغيير أوضاع الحياة وتحويلها وتشكيلها سهل ويسير .. وكثيرا ما يقترن هذا الإحساس الكاذب والشعور الطفولى بجرأة بلهاء على مناهضة نواميس الكون وتحويلها، وضعف التبصر بالنسب بين الأشياء والفروق وبقيمة الزمن والشعور بمعنى الواقع وصلابته وصلة الواقع بالممكن، فتنحجب عنا دون أن ندرى ـ الهوة التى تفصل بين الممكن وبين الوهم والخيال الهاذى . ولو فهمنا هذا لأدركنا أن طريق الدعوات الأعظم، هو الإنسان نفسه لا فيما يقوله أو يدعيه أو يتشدق به، إنما فى حياته نفسها وسلوكه ومواقفه وتصرفاته وأفعاله وردود أفعاله .. باطنه وظاهره .. غيابه

وحضوره .. جده وهزله .. فخطاب الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال أقوى أثرا وتأثيرا من الدعاوى القولية والخطب الرنانة والانفعالات الحماسية !!

على أن الناس تهرب كثيرا من المواقف والتصرفات والأفعال الجادة المجدية إلى الكلام والتشدق، ـ لأن الكلام سهل بينما تحتاج الأفعال إلى مزيد من الجهد والمشقة وشجاعة القلب وقوة التمسك والثبات فى وجه الصعاب والمخاطر، ولأنه لا يتحقق لأصحاب السكينة والوقار والعفة ما يتحقق فى يسر وسهولة للمتشدقين بالكلمات من إسراع إلى الزعامة والتصدر والقيادة والركوب على رقاب الناس "

ذلك أن فكرة " المكانة " مطلب لدى الناس قديم .. ويكاد يكون فى زمننا مطلب الجميع .. يقتتل عليه الكل، ويرهقون أنفسهم وأهلهم وذويهم وأشياعهم من أجله .. يتشدقون بالمساواة، ولكنها عندهم مجرد كلمة تقال سرعان ما ينفلت ملقيها منها ومن تبعاتها ويسعى بالوعى وباللا وعى للتصدر وطلب الرفعة والمكانة وعلو القدر والمنزلة وامتلاك الحكمة والفوز بالزعامة والاستئثار بالقيادة .. فهو أعلم الناس وأفقه الناس وأذكى الناس وأخلص الناس وأبعدهم بصرا وبصيرة وأكثرهم قدرة على سياسة الناس وقيادة الكتل والجموع !!!

هؤلاء الناس يتشدقون بالمساواة، ولكنهم فى هلع من التشابه والتماثل فيما يؤثر بالنقص على "المكانة" العليا التى ينشدونها .. وهم لذلك فى صراع لا ينى ولا يهدأ للطفو فوق بحر العاديين غير المعروفين من الناس ؟! كل منهم يسعى حثيثا للفرار من اللا اسمى وحفر اسمه على جدار الزمن، وأن يقرئ الدنيا اسمه فى كل عمل يعمله . حتى فى التفاهات والحماقات !! لا تكف الأيدى ولا

تنى ولا تشبع من الكتابة ومحاولة الكتابة على سبورة الدنيا لا يثبت عليها فى الواقع خط واحد !!

إن المسلم السوى ـ فيما يقول الأستاذ محمد عبد الله محمد فى " معالم التقريب " ـ لا يفتنه شىء من هذا كله، ولا يهمه أن يكتب اسمه على شىء ـ أو حتى أن يعرف الناس وجوده ـ او أن يمنحه الناس صيتا أو مجدا، لأنه موقن أن الناس ينسون ويموتون، وأن الله تعالى وحده حىّ لا يموت .. وأن ما عنده سبحانه ـ باق ومحفوظ لا ينسى ولايضيع .. مهما جحده أو نسيه الناس !!

المسلم السوى يتوحد مع الكل .. يعى أن نفحة الله تعالى فيه هى للكل ومن أجل الكل، لا تهمه صدارة ولا قيادة ولا وجاهة ولا أبهة . يدرك أن الصورة الإسلامية الحقيقية إنما توجد مع وجود المعنى الجامع وهو الله عز وجل، وبالولاء المطلق لله عز وجل، وفيه وبه لا تنشد النفس سوى رضائه سبحانه الذى تتضاءل وتتلاشى أمامه مغريات المكانة والتصدر والوجاهة !!

المسلم السوى يفهم ـ وينبغى أن يفهم ـ أن " المكانة " (فى الدنيا) لا تأتى بالضرورة لمن يطلبها ويجد فى طلبها، وأنها قد تأتى ساعية بنفسها إلى من لا يطلبها بل إلى من قد يبالغ فى العزوف عنها والزهد فيها .. والزهد فى " المكانة " والعزوف عنها يحتاج إلى مجاهدة لأنه مضاد لطبيعة الآدمى .. وهذه المجاهدة أيسر بحكم الطبيعة والدور ـ لدى الحكماء والمفكرين والعلماء ـ منها لدى المنشغلين بلجج الحياة أو المشاركين فى إدارة شئون الناس . فتنافس هؤلاء، ودعاوى الاهتمام العام والعمل العام، قد يجرفهم ـ وربما يدارون به ـ رغبة عارمة فى التصدر والقيادة، بدعوى أن كلا منهم أحكم الناس وأخلص الناس وأقدر الناس .. لذلك يندر بين هؤلاء من يعزف حقيقة عن التصدر .. ويندر أيضا بينهم من

تتوارى ذاته فى سبيل الكل .. ومع ذلك فلم ينعدم وجود أمثال هؤلاء (النادرين) فى القديم والحديث .. وما دمنا نتحدث على هامش " معالم التقريب "، بين المسلمين، فإن تاريخ المسلمين ملىء بنماذج عديدة وصاءة يقف فى مقدمتها الصحابى الجليل .. أمين الأمة .. وأحد العشرة المبشرين بالجنة .. أبو عبيدة عامر بن الجراح .

۞ ۞ ۞

عبقرية توارى الذات (*)

وجدتنى بعد الرحلة التى حاولتها إبحاراً فى عالم الذات، أو متقصيا لها فى " عيون الناس " .. وجدتنى مشدودا لبيتى شعر لشيخى وأستاذى وإحدى علامات القرن الماضى فى مصر، الأستاذ الكبير الراحل محمد عبد الله محمد .. المحامى الأشهر والفقيه الفذ والمفكر الفيلسوف الأديب الشاعر ..

يقول فى أولهما، بقصيدة " نظارتى " أولى قصائد ديوانه " العارف " ..

ماذا ترى الأرضَ إنْ ترصدها من زُحلٍ
وهل ترانىِ وأَبْعادى وأَمْجادى ؟!

هذا رجل، أو قل حكيم، يقف متأملاً فى وقار وتواضع، يلفت نظر نفسه إلى وهم ما يعتقد هو ـ أو يعتقد الآدمى ـ أنه أمجاد يصورها لنفسه وقد يتعبدها ويتيه معجباً بها وبنفسه دون أن يدرك أنه كله، وبعمله جميعا، ذرة من نقطة فى بحر فى محيط أعظم فى كون هائل !! .. ماوزن وماقيمة وما حجم وما أثر ما يعتقد الآدمى أنه المجد المخلد الذى يحفر اسمه على جدار الزمن ؟! .. أليس أدعى لمزيد من فهم الواقع الحقيقى أن يتساءل ماذا تراه يبدو ـ هذا المجد التليد الذى يتوهمه أو يعتقده ـ لراصد الأرض الذى يطل عليها ويتأملها ويتفحصها من السموات العلى .. أترى هذا الراصد من

---

* الجمهورية ٧/١٠/٢٠٠٢

الكوكب زحل يرى هذا الآدمى المتضخم الموهوم .. أبعاده ومقاساته .. أعماله وأمجاده ؟! أم أننا نبالغ ونضخم أنفسنا ونتصور كل همسة أو إيماءة أو حركة أو عمل لنا وكأنه الدنيا بأسرها ومجدها الزاهى التليد الذى لاسابقة له ولا لاحقة عليه ولا شىء بعده !!، وأنه بعظمته وجلاله ـ الذى نتوهمه !! ـ هو قبلة التفات واهتمام وأنظار وتقدير وإعجاب العالم كله ؟!!! .

من على البعد البعيد، تبدو الرؤية أصفى، والتبين أوضح، والفهم أنقى لأنه مستخلص من شوائب ومداخلات وسوازع تعوق الرؤية وتشوش عليها وعلى الفهم الرائق الصافى غير المشوب بأوهام وخداعات وتهويمات النفس ومجاملات ومتناقضات الغير .. حين يبعد الآدمى يكون أقدر على الرؤية وأقدر على الفهم !!

فى قصيدة " المرايا "، بذات ديوان " العارف "، يقول الفيلسوف المحامى الشاعر محمد عبد الله محمد ..

إنى إلى البعدِ محتاجٌ لأفهمَهُ

إذا امّحىَ البعدُ لا فهمٌ ولا بصرُ

✿✿✿

لم يكن شعر الأستاذ محمد عبد الله محمد هو فقط الذى استدعانى، ولا كانت ذكرى رحيله من ثلاث سنوات التى اقتربت، ولا موعد ميلاده الذى يأتى هذا الأسبوع ـ هى فقط التى استدعتنى .. بل ولا حتى أفضاله علىّ التى لا تعد ولا تحصى .. الذى استدعانى أكثر هو شخصية هذا العملاق العظيم الفذ واتصالها بالموضوع الذى فيه أبحرت أوحاولت الإبحار فى عالم الذات .. هذا العالم المهول الملىء بتضاعيف " المبالغة " فى النظر للذات، وتضخمها، وانشغال صاحبها بأمرها وصورتها فى عيون الناس ..

عزيز إن لم يكن محالا على الآدمى العادى أن يخرج من عالم الذات إلى خارجه .. الأنبياء والقديسون وقمم العلم الخالصة المخلصة ـ هم فقط القادرون على الحياة خارج عالم الذات الذى نقع جميعا صرعى فيه، ولذلك فمحال، وبعيد بعيد ـ ولن يكون فى أى مستقبل معقول، أن يصير هؤلاء أنماطاً شعبية ـ يمكن أن تقع عليها العين فى أى مكان يغشاه آدميون !!

محمد عبد الله محمد من هذه الفئة النادرة جداً جداً، ـ عملاق فذ فريد فى زمانه وفى مكانته، امتلأت حياته بصفحات مجيدة تدعو الآدمى العادى إلى الوقوع فى كل آفات تضخم الذات، ومع ذلك فإن هذا العملاق عاش وإلى أن رحل عن عالمنا صورة مجسدة للعظيم الذى توارت ذاته لأنه استطاع أن ينفذ من أسوارها ويخرج إلى خارج عالمها مع ما فى الحياة فى عالم اللا ذات من اختلافات هائلة بينه وبين عالم الذات الذى نعرفه !

كان من حظى أن اقتربت من هذا العملاق، صاحبته ولم أفارقه لربع قرن لم أنقطع عن الجلوس إليه والتأمل معه والتلقى منه وعنه .. كان دوحة لاتفرغ رطبها الجنية، صاحب موقف من الحياة .. لم تفلت منه قط حكمتها وغايتها واغتنام أيامها لمزيد من التأمل ومن الفهم .. أبحر الرجل فى عوالم شتى فصار عالما فى القانون، والأدب، والفكر، والفلسفة، والفلك، والتاريخ، والأديان .. تحس وأنت معه أنك مع موسوعة معارف حية، ليس حسبها ما اكتنزته من معلومات هائلة فى بحور شتى بلا شطآن، وإنما تدرك فى كل عطفة أن شيئاً لم يمر على هذا المفكر الفيلسوف دون أن يعمل فيه نظره ومبضعه ويشرحه ويغوص فى صحبته إلى الجذور والأعماق حتى تنكشف له أستار من المحال أن تنكشف لسواه ..

حين اقتربت من هذا العملاق، اقتربت مشفقا مترددا لصيته البعيد الذى ملأ الدنيا .. فقد اجتمعت لهذا الحكيم الفيلسوف المفكر الأديب الشاعر، والقاضى المحامى الفقيه الضليع، كل أسباب تضخم الذات .. وهذا مخيف !! ـ .. شَعُرَ وسلم بامتيازه وتفوقه وأستاذيته وتفرده وعلمه الواسع الغزير غير المحدود ومواهبه الفذه، أساطين رجالات مصر .. عرف من تابعوه عن قرب أن نبوغه كان منذ أيام الدراسة، كان أول الخريجين بحقوق القاهرة / ١٩٣٠، وبدأ منذ هذا التاريخ رحلة عريضة فى الحياة .. افتتحها بالنيابة العامة فكان واحداً من أعر بنيها وخدم فيها إلى أن صار محاميا عاما بمحكمة النقض، لم يترك موقعه إلى المحاماة، إلا وكان قد زين مجموعة القواعد القانونية المستخلصة من أحكام محكمة النقض من عام ١٩٣١ ـ ١٩٤٩، بتعليقات على الأحكام هى درر فريدة مورية بتمكنه الفذ .. وضعها الرجل فى صمت ووقار دون أن يدون عليها اسمه .. لم يجر الرجل وراء ما يتعلق به كل آدمى من وضع بطاقته والتذكير بنفسه على كل عمل حتى فى التافه المهين من الأمور !!!

من فرط خروج هذا الرجل خارج عالم الذات، لم يبدر منه قط ما يشير حتى إلى أقرب المقربين إليه أن هذه التعليقات له .. لم يبال بأن نسبتها إليه سوف تنطمر بمرور الزمن .. فى عالم اللا ذات لم يحفل الرجل بشىء من ذلك، مثلما لم يحفل بكل من وقعوا بالسرقة على كتابه الفريد " فى جرائم النشر " ـ .. هذا الكتاب الضافى هو عمدة المراجع فى بابه منذ أخرجه عام ١٩٥١ وحتى الآن .. درس عليه معظم الجيل الذهبى فى الإذاعة، وإليه يرجع حتى الآن المستشارون والقضاة والمحامون على مدى عشرات السنين، أكل الجميع على مائدة هذا الكتاب، ونقل البعض فصولا كاملة منه ضمنوها كتباً بأسمائهم دون أن يشيروا إلى " المصدر " ـ والرجل

لايضيق ولا يشكو ولا يتململ .. ولا يحاول قط أن يلفت الأنظار إلى ذاته .. ولا يذكر أحدا بنفسه .. على يديه تخرج عمالقة بذات المعهد الذى تخرج هو فيه .. منهم من شغل رئاسة الوزارة والبرلمان والجامعة العتيدة .. الدكتور رفعت المحجوب والدكتور عاطف صدقى والدكتور أحمد فتحى سرور ونقيب النقباء أحمد الخواجه والدكتور محمود نجيب حسنى الرئيس الأسبق لجامعة القاهرة وفقيه القرن فى القانون الجنائى .. إلى آخر أيام حياته كان يختلف إليه ــ مقرا بفضله ـ أعلام فى الفقه والفكر والسياسة .. أعطى أخطر المشورات فى أمهات المسائل وأخطر الأمور !! ــ فى صمت ووقار بلا استعراض .. اضطلع بأخطر قضايا العصر، واحتاز مكانة لم أجد على مدار عمرى أحدا قد احتازها .. بيد أن الرجل لم يزهُ بنفسه ولم يفارق تواضعه قط ..

أسرع ما يسارع إليه الآدمى ـ التماس الشكل أو المظهر الذى يصادف حجمه أو ما يعتقد أو يتصور أو يتوهم أنه حجمه .. يسارع إلى ذلك فى زيه وملبسه، وفى سيارته، وفى مكتبه .. فى وقفته وفى جلسته وفى مشيته .. لا ينى ولا يهدأ فى محاولة لفت الأنظار إليه وإلى أبهته وحجمه ومكانته وصيته مخافة أن تفوت الآخرين .. على نقيض ذلك تماما كان محمد عبد الله محمد .. مفرط التواضع فى غير تظاهر ولا إدعاء، جم العطاء فى غير منٍّ، بسيط غاية البساطة، يجافى المظاهر حتى يكاد المحتك به يحسبه من المتصوفه ـ بل لعله كذلك فعلا .. يعمل كأنه يتعبد، ويتعقب مباحث ومصادر ومراجع ما يكتب فيه وكأنه تلميذ لايعرف ولم يعرف شيئا، يخاصم عامدا أى مظهر من مظاهر المخامة أو الأبهة أو لفت الأنظار .. حتى فى أسلوب كتابته .. مهاجر عامد للألفاظ المفخمة والعبارات المزخرفة فى إيمان عميق بأن ذلك يصرف عن

المعنى وعن الفكرة .. الأدب فى نظره منبعه الصدق الذى لا تكلف فيه ولا فى عبارته ولا فى لفظه .. الذى ينصرف إلى الاعتناء بألفاظ ينفصل دون أن يدرى عن المعنى الذى يستهدفه، تماماً مثلما ينصرف الآدمى عن غاياته الحقة حين يتضخم إحساسه بذات أو التفاته إليها .

برغم اقترابى الحميم منه، لم يستعرض ولم يذكر أمامى قط عملين هائلين له كفيلين بخلود صاحبهما .. وقعت عليهما بالمصادفة البحتة وبذلت معه جهودا مضنية ليوافق على طباعتهما وتقديمهما إلى الناس حتى لا ينطمرا ويضيعا بمضى الزمن وضياع المخطوطات .. مقالاته فى " معالم التقريب " بين المذاهب الإسلامية .. ماكدت أجمعها فى كتاب حتى صار رفيقى يلازمنى وألازمه .. حين غادرت مصر فى ١٩٩٠/٦/٢٧ إلى الولايات المتحدة لإجراء جراحة دقيقة بالقلب، لم أصحب معى غير القرآن المجيد وكتاب " معالم التقريب " .. هذا الكتاب إحدى علامات هذا القرن، ولو كان لغير محمد عبد الله محمد هو وأشعاره الفلسفية العمودية التى وقعت عليها هى الأخرى مصادفة وكابدت معه حتى نشرتها له فى ديوانيه " العارف " و " الطريق " ـ .. لو كان هذان العملان لغير محمد عبد الله محمد لملأ الدنيا تيها وافتخارا ولفتا وذكرا وتنويها .. " معالم التقريب " كتاب لم أصادف مثله عمقا وفهما للقرآن الحكيم وتحليقا فى روحه وأحكامه ومعانيه، واستهدافاً جاداً للتقريب بين المسلمين .. والتقريب إجمالا هو اتجاه جاد داخل الإسلام، مجرد تماماً من اللون الطائفى أو الإقليمى، للتخلص من العداوة معلنة أو خفية بين أهل المذاهب صيانة لوحدة المسلمين التى تدور على محورين : أولهما التسليم بحقوق عامة للمسلم فى كل بلاد الإسلام ـ وأهمها عصمة دمه وماله وعرضه وألا يظن به

الـسـوء، وثانيهمـا التمـسـك بـأخوة المـسلم رغـم اخـتلاف مـذاهب ومدارس الفكـر،لأن الإسـلام لـيس ديـن العجـائز، وبعنيـه إنجـاب العقول الجديدة اليقظة والمختلفـة، والخـلاف المـذهبي حـين يـصبح عداوة يكون قد صار أهـواء ومـصالح لا تواجـه إلا بالاعتيـاد علـى تذكر أنـه لا خلاف على الأساسيات، فإلـه الجميـع واحـد، ونبيهم واحد، وكتابهم واحد، وقبلـتهم واحـدة، وهـذا هـو رأس مـال كـل مسلم، ولا بد من تذكره لكى تتجه قلوب المسلمين وعيونهـم إلى المستقبل المشـرق الـذى ينتظرهـم إذا تـآخوا وتحـابوا، ولا يـسمح التقريب بأن يشغل المسلمين بأنفسهم عن وحدة مستقبلهم.. وفـى زماننا كما فى أزمنة سابقة يتـسنم المال قمـة القـيم واقعـا وفعـلا ويجب أن يلتفت أهل الدعوات الإسلامية إلى تأثير المال ومعه هبـوط الخامة البشرية وكسل الإنسـان، فليس يجدى محاولة رد المسلمين الآن إلى بساطة الحياة التى كان عليها المسلمون الأوائل .

نعم إننا كآدميين مدفوعون بدافع فطرى لا يهدأ نحاول أن نصبح على صورة أفضل، وهذا الدافع النظرى هو وراء ملـة إبـراهيم ووراء دين محمد، فنحن نعبد خالق الكل سبحانه استجابة لفطرتـه تلـك التى فطر عليها النـوع الإنسانى والتى هى أصل الأديان وقوامها .

* * *

أما أشعار محمد عبد الله محمد، فقصة أخرى تكشف عـن موهبـة تطاول ـ بلا أدنى مبالغة ـ موهبة أبى العلاء المعرى .. مضافا إليهـا خبرات ومعارف عشرة قرون هى الفاصـل الزمنـى بـين الـرجلين .. ظل محمد عبد الله محمد يرصف هذه الأشعار ـ وكلها عمودية وفـى الفكر والحكمة ـ على مدى سبعين عاما متصلة، يحتفظ بمخطوطاتها لنفسه دون أن يسارع بها عارضا متباهيا إلى الناس .. أعـرف أناسـا يحْبون حبوا فى الشعر، ولا يجيدون نظما ولا معنى، ومع ذلـك مـا

إن يكتبوا عشرة أبيات حتى تسبقهم إلى صفحات الصحف يسلكون لنشرها وعرض أنفسهم كل سبيل ..

صورة محمد عبد الله محمد صورة نادرة، بالغة الندرة .. سبعون عاماً أو تزيد، وهذه الثروة الشعرية الهائلة راقدة فى مخطوطات فى أرشيف الرجل، مع أنها لو نشرت تباعاً لبوأته مكانة توازى أبا العلاء المعرى وتسلكه صمن عمالقة شعراء عصرنا .. كان علىّ أن أناضل مناضلة حقيقية مع الرجل ليتركنى أذهب إلى المطبعة بهذه الأشعار التى تاه بها كل من اطلع عليها من أصدقائى الأدباء والنقاد !!

ما كان للرجل أن يصبر سبعين عاماً وزيادة على نظم هذا الشعر الرائع الرصين، والاحتفاظ به دون عرض، مالم يكن عائشاً فى الواقع والحقيقة خارج عالم الذات، منصرفا عما يغرق ويتصارع فيه الناس من أجل الظهور وطلب الصيت والمكانة واستقبال الإطراء والإعجاب . نفهم هذه القدرة حين نتأمل فلسفة هذا العملاق الفذ الشاخصة فى تصاعيف ما كتبه من أشعار . وأيضا فى " معالم التقريب " بين المذاهب الإسلامية .. يلمس المتأمل حساسية مفرطة لدى الرجل إزاء الانصراف للذات وطلب الصدارة والوجاهة .. مما توقف عنده فى " معالم التقريب " كاشفا عن فلسفته وموقفه من الحياة، ما أسماه " ظاهرة طبيب الملايين " .. هذه النزعة الصادرة عن وهم الذات أنها المتفردة المتفوقة مالكة الوصفات السحرية لمعالجة ملايين البشر . هذه النزعة هى فى الواقع رغبة غريزية فى التصدر والريادة والأهمية والخروج من بحر العاديين من الناس إلى دائرة الصفوة . بإحساس كاذب فى معظم الأحيان بالعلم والخبرة والجدارة والتفوق !! .. فكرة " المكانة " مطلب لدى الناس قديم .. يقتتل عليه الجميع، ويرهقون أنفسهم وأهلهم وذويهم وأشياعهم من أجله ـ .

يتشدقون بالمساواة، ولكنها عندهم مجرد كلمة تقال سرعان ما ينفلت ملقيها منها ومن تبعاتها فى سعى محموم - بالوعى واللاوعى - للتصدر وطلب الرفعة والمكانة وعلو القدر والمنزلة والزعامة والريادة وحفر اسمه على جدار الزمن !!

عرف محمد عبد الله محمد أن هذا كله سراب .. لم تصرفه ذاته قط عن الموضوع .. عن القيام بدوره فى الحياة فى صمت وتواضع ووقار .. لم يدع علما ولا فهما ولا حكمة، وإنما عاش حياته يتأمل فى المحراب ساعيا إلى فهم يقول إنه لم يدركه أبدا .. فى ديوانه " العارف " يقول ..

مهما تفكَّرتَ لم تدركْ سوى صلةٍ
ما بينَ فعلٍ وفعلٍ خلقها فعلُ
لقد جلوت كثيراً هل ترى أحداً ..
إن الخفاءَ كثيفٌ حول ما نجلو
من الظلالِ نَلُمُّ النور - داخِلَنَا
ندعو اليقين الذى يدنو ويبتعد

❁ ❁ ❁

غـربة القـريـب (*)

كان أستاذنا العظيم، الرجل القيمة، المرحـوم الأسـتاذ / مـصطفى مرعى المحامى القاضى الفقيه الوزير، الـذى تحـل ذكـرى وفاتـه هـذا الشهر، كان شديد الإعجاب، وأنا معجـب وإياه، بـأثيرة الفيلـسوف الأديب أبى حيان التوحيدى : " أغرب الغرباء، من صار غريبـا فـى وطنه . وأبعد البعداء، مـن كـان بعيـدا فـى محـل قربـه . لأن غايـة المطلوب، أن يسلو عن الموجود وأن يُغمض عن المشهود وأن يُقـصى عن المعهود . يا هذا الغريب : الذى إذا ذكر الحق هُجر، وإذا دعا إليه زُجر " !

الغربة فى الحياة، ليست الغربة المادية وكفى .. ليست فقط غربـة البعيـد ـ ماديـا ـ عـن بلـده أو مرتـع صباه، أو أسـرته وأحبابـه .. وليست فقط فـى هجرتـه ولا انطلاقـه بحثاً عـن الـرزق فى أسفاره أو سياحاته .. الغربة الأمـض، الموجعـة المؤلمـة حقيقـة، هـى الغربـة النفسية .. هى غربة القريب .. أن يحس الآدمى بالغربـة فـى أرضـه وبلده وبين أترابه وذويـه وبنـى جلدتـه وأهـل عملـه أو صـنعته أو حرفته أو مهنته .. هـذا الغريب هـو الغريب الحقيقـى بغربـة تبـدو كالداء الوبيل لا دواء ولا شفاء لها .. حين يحس الآدمى أنـه غريـب فى ذات محيطه ـ بل أبعد البعداء ـ فى محل قربه !!

هذا الإحساس بالغربة فى محـيط الـشاعر بهـا، إحـساس متوالـد متنام لا يولد فى لحظة، وإنمـا يتـشكل مـن ركامـات تتـوالى علـى

---

* الجمهورية ٢٠٠٢/١١/١٨

أحاسيس وفكر وعقل ومشاعر الآدمى يتمخض بها فى داخله إحساس يتزايد بأنه لم يعد يحيا فى دنياه، وأن ما حوله قد انقطعت أسبابه به .. قد يكون هذا لضمور سعيه عن ملاحقة ما حوله، وقد يكون ـ وهو ما يعنينى هنا، لأنه آفة هذا الزمان ـ لتنامى ملكاته وأفكاره ورؤاه ومنظومة مناقبه تناميا لا يلاحقه أو لا يقبله خفوت شعلة المبادئ والقيم والوقار والأمانة والإخلاص عند الغالب الأعم من الناس .. يحدث ذلك أكثر وأشد، حين تكون هذه المنظومة الرفيعة ـ منظومة معبرة، تورى بنفسها بغير عرض ولا استعراض، فتحرك أشجانا وغيرة وحسدا وأحقادا، أو إذا كانت تتخذ من المواقف ما تضيق به صدور، وتعتل منه قلوب، وتتضرر منه مصالح وأهواء، لم تعد قادرة على أن تسمع أى نغمة هى فى نظرها نشاز مادامت لا تجرى ولا تصدر عما يتوافق مع ما تريد وتبغى !

هناك فترات ازدهار فى أعمار الشعوب والأمم، تتجلى فيها عبقريات وعقول، قد تعقبها أحيانا فترات خمول تخبو إن لم تنطفئ فيها معالم وأسباب الاستنارة والامتياز والتفوق .. هذه البيئة الخاملة الزاحفة سرعان ما تحاصر العبقريات والعقول النابهة المتقدمة والملكات الخاصة، فتتناقص من حولها شيئا فشيئا الدوائر التى تستطيع أن تتنفس فيها وأن تتحاور وأن تتفاعل معها قبولا أو رفضا، تسليما أو اعتراضا، هذا التفاعل الحى الذى يشكل العدسة الحقيقية للآدمى العاقل المفكر النابه الوقور الصادق المخلص .. مثل هذا تكون بلواه كبيرة، ومصيبته هائلة .. ليست ككل المصائب التى يقال عنها ـ بصدق ـ إنها تولد كبيرة ثم تصغر بمرور الوقت والانطمار والنسيان .. وإنما هى مصيبة تولد صغيرة .. وقد تكون فى البداية غير مرئية، ثم تكبر وتكبر ككرة الثلج المتدحرجة على سفح الجبل . ذلك أن " الرتق " يزيد بمضى الزمن إلى " شرخ " يتحول

شيئا فشيئا إلى " هوة " واسعة بين الأقلية النابهة الوقورة المفكرة الصادقة المخلصة، وبين الأكثرية التى يغلب عليها الخمول والتفاهة والسطحية والبهلوانية والمداهنة والرياء والنفاق وقلة الإخلاص والجدية .. هنالك يتوقف الحوار والتواصل بين هؤلاء وأولاء .. تتوقف الأقلية النابهة أو تقلع أو تكاد عن التحاور ويزداد شيئا فشيئا إحساسها بالاختناق وعدم القدرة على التنفس وسط الصخب التافه والضجيج العالى، فتؤثر الإعراض عن المشاركة وتلوذ بالصمت وتلتحف بغربتها التى قلنا إنها تولد صغيرة بل غير مرئية، ثم تتخلق وتتشكل وتكبر وتتحول يوما بعد يوم إلى غول مارد يحفر فى الوجدان الإحساس الهائل بالغربة والانفصال انفصالا يكاد يكون تاما عن المحيط !!

هذا الإحساس بالغربة، لايمضى مع الآدمى ـ حين يعتريه، بغير آثار نحر وتدمير .. الآدمى بطبعه وفطرته كائن اجتماعى، لا يعيش منفصلا عن المجتمع، ولا يقبل الانفصال عنه ـ ماديا أو روحيا أو نفسيا ـ إلا مضطرا .. لأن هذا الانفصال مخالف لخلقته وفطرته وطبيعته ـ وهو لذلك لابد أن يلوذ إلى ما يسمى فى علم النفس بالحيل والآليات الدفاعية .. قد يربى لنفسه " التعالى " ليصبر أو ليتصبر على التفاهات المحيطة، فيتعالى منعزلاً عن الناس بتعاليه ! .. وقد ينكفىء على ذاته، ويتمحور فيها، ويكتفى بما تديره ذاته من حوارات " جوانية " مع نفسها، تغنيه عن دنيا الناس وسطحيتهم، فينقطع أو يكاد عن تيار المساهمة الفاعل المؤثر فى الحياة .. وقد تصيبه المرارة ويتغلب عليه اليأس والقنوط، فيسقط منزويا فى هوة الإحباط فينقطع عطاؤه كلية .. ويموت مهيضا كسيرا آسفا حزينا على الحياة التى تمضى على غير قانون وتنكشف فجأة عن " ملهاة " أو " مأساة " لا قانون لها ولا ضابط ! ..

وقد تتحول المرارة إلى قوة " اعتراض " و" مقاومة " فتخرج نفس الآدمى ـ باللا وعى ـ عن الحكمة ومنابعها التى تغذت منها وعليها طوال ما انصرم من عمرها، وتتحول ـ باللاوعى أيضا ـ إلى " صخب " " مشوش " و" اعتراض " يصيب حينا ويخطىء أحيانا لأن الذات قد انصرفت فيه عن الموضوع إلى رغبة تملكتها للفت الأنظار إليها وتذكير الناس ـ الذين لم يقدروها ! ـ بها وبإمكانياتها ونباهتها وتفوقها وامتيازها وقدرتها على أن تصل إلى ما لا يصل إليه سواها، فتأخذها المبالغة والإمعان فى الالتفات للذات فتخرج دون أن تدرى ـ أو لعلها تدرى ـ عما نالت به فى السالف هذا التفوق والنباهة والامتياز !

تخسر المجتمعات خسرانا كبيراً هائلا، بانفصال هذه " الصفوة " ـ متعدد الصور ! ـ عن تيار الحياة، وعن المساهمة المعطاءة الفاعلة فيه .. هذه " الصفوة " هى العقل الحقيقى لأى أمة .. هى القاطرة التى تشد المجتمعات وتفرز لها نسيجها وتحدد لطريقها معالم الاستنارة والرؤية الموضوعية السديدة الصائبة معجونة بالحكمة والنظر المتجرد البعيد عن المصالح والمآرب والأهواء .. هى التى ترسم وتنير لها خطاها وتسهم مساهمة فاعلة فى تكوين العقل الجمعى والرؤية الشاملة المحيطة التى لاغناء لمسيرة المجتمعات عنها .

ما أريد الالتفات إليه، يجاور ظاهرة ما يسمى بالغالبية الصامتة .. صحيح أن الأغلبية الصامتة هى ترجمة فى ناحية من نواحيها عن عدم توافق الصامتين مع معطيات مسرح الحياة السياسية، وعزوفهم من ثم ـ لأسباب قد يكثر ويطول الحديث فيها ! ـ عن المشاركة والمساهمة فيها، إلا أن ذلك قد لا يكون بالضرورة ـ ترجمة " عن الإحساس بالغربة " التى أعنيها .. الإحساس بالغربة إحساس أشمل لاينحصر فى المسرح السياسى، وإنما هو

إحساس به يفارق المغتربة روحه ونفسه ويعطى ظهره لكافة المسارح ولتيار الحياة بأكملها وعلى اتساع واختلاف وتباين مناحيها .. يفارق به المسرح الثقافى والاقتصادى والاجتماعى والشعبى والنقابى .. يفارق به دائرة من حوله وربما من أترابه وأصدقائه، لأنه " حالة " تكمن فى إحساس واعتقاد المغتربة روحه ونفسه بأن لغته لم تعد لغة المحيط، وأن فكره وسبحاته لم تعد أفكار الناس ولا مشاغل الناس المنصرفين إلى التفاهة والسطحية، وأن مناقبه باتت غريبة فى دنيا الناس، لم يعودوا قادرين على امتصاصها ولا على تقبلها بل ولا على السكوت عنها .. أو كما قال التوحيدى .. لأن غاية المطلوب ـ مع الناس، كل الناس ! ـ أن يسلو عن الموجود وأن يغمض عن المشهود .. ولذلك، فإنه إذا ذكر الحق هُجر ـ وإذا دعا إليه زُجر !!

كان من حظى ـ أو نصيبى ـ فى رحلة الحياة، أن اقتربت من قمم وشوامخ داهمها الإحساس بالغربة، وظل يتزايد ويتزايد لديهم ـ ليس فقط إلى حد المفارقة والانفصال عن تيار الحياة الدافق ومسارحه المتعددة المختلفة، وإنما أيضا فى دائرة العلاقات الشخصية والحوارات الحميمة التى تدور عادة بين الأصدقاء والأتراب وأبناء وزملاء العمل أو المهنة أو المدارس الفكرية أو المذهبية أو الاقتصادية .. المغترب يغترب عن هؤلاء جميعا، وربما اغترب عن أعز أصدقائه بل وعن أسرته إلا ما يتعلق بشئون معاشه وضرورات حياته .. الغربة إحساس عميق هائل يزوى بالآدمى بعيدا بعيدا ينظر إلى ما يراه فيستغربه ولا يتقبله ويكاد لا يعرفه .. غالبا ما يقترن هذا الإحساس العميق بنزوع إلى الماضى .. النزوع إلى الماضى هو صورة من صور الآليات الدفاعية، يصدر تعبيرا عن رفض الحاضر أو الضيق به وعدم التواؤم معه، ويجد سلواه فى استحضار صورة أو

صور الماضى الجميل التى تمثل للمغترب المهاجر الجنة التى إليها يهرب حين تنقطع الأسباب بينه وبين الحاضر !!!

النزوع إلى الماضى أثره كأثر " المنفس " الذى يفرغ الضغط الزائد من أوانى وخزانات البخار ويقى من الانفجار، وهو أقل الآثار السلبية لنواتج الشعور بالغربة، الأخطر منه : المرارة أو الانكفاء حول الذات أو التمحور فيها أو السقوط فى وهدة اليأس والقنوط والمرارة والإحباط : عرفت عظيما شامخا كان من حظى الاقتراب منه والتلقى عنه، حتى صرت من صنعة يديه، هو أبى الروحى وشيخى وأستاذى محمد عبد الله محمد . رأيت هذا العملاق الشامخ يتزايد إحساسه بالغربة مع الأيام، فقد عاش للثانية والتسعين، تضيق من حوله الدوائر التى اعتاد أن يتنفس فيها ويتواصل معها، وهذا الإحساس بالغربة وارد وأصاب غيره كثيرين، ولكن العظمة العظيمة فى هذا العملاق الذى لايفارقنى حتى اليوم، فى صحوى وفى منامى، أنه لم يسقط فريسة لشىء من سلبيات هذا الإحساس، لا قنط ولا يئس ولا أصابه إحباط ولا انكفأ أو تمحور فى ذاته ولا انفصل عن تيار العطاء .. لآخر أيام حياته يعمل وكأنه ابن العشرين، لا يلاحق أحداً، ولا يطلب شيئا، ولكنه لا يبخل على أى لاجىء إليه مما لديه من علم هائل وحكمة عميقة .. وقفت كثيرا أمام هذا العملاق متأملا حائرا، كيف استطاع ؟! .. أجابتنى أعماله وصورته قبل أن يجيبنى لسانه .. إنه وجد ضالته فى التسليم والرضى، فى هذا الإيمان العميق الصامت الوقور الذى ملأه رضىً وتسليما .. وفهما، هذا الفهم الذى علم منه، وعلمت عنه، أنه إذا دان للآدمى ـ إستغنى، .. فمن فهم استغنى، ومن استغنى تحرر !!

صفحات الذكريات (*)

كنت أجلس إلى أبى الروحى وأستاذى المرحوم الدكتور محمد عبد الله محمد، وقد بلغ التسعين .. أتلو عليه بعضا من أشعاره التى نجحت ـ بعد مجاهدة معه ـ فى نشرها فى ديوانيه " العارف " و " الطريق " .. فجرت عينى فى ديوان " الطريق " .. على أبيات من قصيدة " كعك العيد " .. أخذت أتلوها عليه وهو مستغرق ـ وأنا معه .. تقول الأبيات :

كانت أمى قبل يوم العيد
تجهز الكعك وكنا نشترك
إلى ثلاث من صبايا الغيد
أنا وطفلان وكنا نعترك
كانت أمى بابتهال وعتاب
ترقب الكل بفهم وحذر
هل جمال الكعك أن لا يؤكلا
كان يملأ العيد من صنعة أمى
كان مولودا سعيدا ليديها
غاص ما فى العام من هم وغم
وأعاد البشر منها وإليها
لم تكن تطلب منا شكرها

* الجمهورية ٩/١٢/٢٠٠٢

مضيت مستغرقا فى التلاوة، منصرفاً إلى الأبيات والصفحات، مخافة أن أخطئ النحو أو الجرس، لتحين منى التفاتة إلى الشيخ المهيب الذى فارقت أمه دنيا الناس من نحو ثمانين عاما، فإذا بدموعه تجرى سخينة .. توقفت عن التلاوة مبهوتا، مأخوذا بجلال اللحظة واحتراما للتداعيات التى لا بد مرت بخاطر الشيخ الكبير حتى أجرت دموعه مدرارة .. أعرف أنه كان يحبها حبا عميقا لم يفلح صغر سنه وقت أن فارقت، فقد كان دون العاشرة، ولا أفلحت الثمانون عاما التى مضت على وفاتها، فى خفوت ذكراها وإجلالها فى صفحة وعيه .. ولكن، ما كل هذه الدموع ؟! .. إلى أى آفاق طارت جوانح الشيخ، وإلى أى السموات حلقت ؟!.. وكيف ينبعث هكذا فجأة ماض ظننت أن السنوات الطوال كفيلة ـ ومع تقدم العمر وجفاف الينابيع ـ بأن يتوارى من صفحة الوعى، وأن ينطمر فى زوايا النسيان ؟!

واقع الأمر أن كل آدمى، صغيراً كان أو كبيراً، متقدماً أو متخلفا .. يصحب حتماً ماضيه معه .. هذا الماضى مخزون بصفة عامة فى ذاكرته كأفكار، وصور ومشاعر .. وفى بدنه كأنسجة وأوعية وأعصاب .. لا يمكن لآدمى أن يلاقى يومه وغده بغير هذا المخزون .. لايمكنه أن ينسلخ عنه مهما أجهد نفسه فى تنحيته جانبا أو تكلف التخلص منه أو مقاومته . ونحن دائما أردنا أو لم نرد ـ نقدم ماضينا إلى قابلنا ملوناً بألوان الذات التى لكل منا : تلك الألوان التى تتجمع وتتراكم ويتداخل بعضها فى بعض ويحل بعضها مكان بعض طوال حياتنا على الأرض، وهى ألوان نتوارث جانبا منها، ونكتسب أغلبها تباعاً من المحيط الذى نعيش فيه .. هذه الألوان تصبح جزءاً منا حين تقبلها ذواتنا وتضمها إلى رصيدها

حيث تبقى إلى أن يطرأ على الذات ما يحملها على التخلى عنها ليأخذ مكانها غيرها !

وألوان الذات هذه تتشابه فى سمات وتختلف فى أخرى لدى الآدميين، فيتشابهون فى عين من ينظر إلى سمة معينة للمشابهة ـ فيتشابه عنده أبناء نفس العصر أو نفس العنصر أو الأصل أو السحنة أو لون البشرة أو أبناء نفس الوطن أو نفس الحضر أو نفس الريف أو نفس الجيل أو نفس الطبيعة أو نفس الأسرة .. فى داخل هذه الأشياء يقع الانقسام مع الاختلاف والتشابه، نتيجة تشابه أو اختلاف الطبيعة أو الذوق أو التربية أو الظروف .. بل قد يتعرض الفرد الواحد لمثل هذا، فيشبه نفسه فى مرحلة من حياته، ثم يخالفها فى مرحلة أخرى .. واعيا أو غير واع حسب نموه وتدهوره، أو ركوده أو نشاطه، أو حسب تعرضه لتغير شديد فى ظروفه أو استقرار أو ثبات أحواله .

وهذا برغم تراكبه وتركيبه الشديدين ـ لا يجعل حياة الآدمى معقدة فى نظره، لأنه لا يرى ولا يشهد ولا يواجه ولا يفكر بانتباه وعناية فى " الحالات " التى تجرى داخله أو خارجه ـ إلا حالة حالة، ولا يشغل التفاته مجموعة " حالات " مطلوب منه علاجها معاً إلا نادراً، وعندئذ يشعر بالضيق والقلق والحيرة .. وهذا الشعور لا يزايله إلا إذا تبددت تلك المجموعة وارتد إلى التعامل مع واقعه شيئا فشيئا كمألوفه ومألوف من سبقوه . ومن هنا كان عشقنا ـ فيما يبدو ـ للبساطة والبسيط والتبسط، ونفورنا العام ـ مما نصفه تارة بالتكلف وتارة بالافتعال والتصنع مما يحتاج فهمه أو تذوقه أو قبوله لإجهاد ومشقة، ومع ذلك فما يبدو بسيطاً مُبَسطاً للآدمى يكون شديد التعقيد لدى زملائه من الأحياء لاختلاف المخ وسعة شبكة الأعصاب لدينا عن نظائرها لدى تلك الأحياء !.

ولكن حين يتجاوز الآدمى حدود الحياة العادية المألوفة إلى محاولة استبطان ومعرفة شىء من حقيقة أجهزة بدنه ونفسه وعقله بقدر من التفصيل، وكيف تؤدى وظائفها وتقوم بعملها، وكيف تختل وكيف تعالج أو يواجه إختلالها ـ .. حين ذلك تختفى تلك البساطة التى نعشقها ويحل محلها تركيب وتعقيد شديد أن مجهولان، ويكتشف الباحث فى ذلك أنه معرض للأخطاء والأخطار فى كل خطوة، وأن ما يسمى بالقوانين العلمية ـ تقريبيات فقط تحتاج دائما لمراجعة الفحص والضبط والمزيد من الفحص والضبط والمزيد من التأكد، لأنها بالمراجعة ربما بانت وظهرت عيوبها وأخطاؤها وأدى ذلك إلى إدخال تعديلات عليها أو إلغائها وإحلال ما يبدو لنا عندئذ بالبرهان الذى يقنعنا أنه اكثر قربا من الصحة والدقة .. وهكذا لاينتهى المزيد من الفهم والبحث إلا إلى مزيد من الفهم والبحث بلا نهاية نعرف إذا ما واظبنا على التزام هذا الطريق، أما إذا توقفنا وقنعنا بما وصلنا إليه ـ تبدأ حينئذ مرحلة أو مراحل من الرجعة والتدهور بلا نهاية أو قد تستغرق قرونا إلى أن يفيق الآدمى ويتنبه لما منح من استعدادات وملكات فيعود إلى إستخدامها وتنميتها والاعتزاز بها !

هذا الميل إلى البساطة والتبسيط، هو ميل إلى الكسل واللهو والراحة البدنية والنفسية والعقلية .. ولعل فيه شيئا من الغريزة أو الطبيعة لمقابلة المجهود ومحاولة تعويض ما يبذله الآدمى حينما يصطنع الجد والاجتهاد ـ لكنه ميل فيه قابلية هائلة للمغالاة والإسراف والاعتياد عليها، خاصة بين كتل العاديين الذين تتحكم فيهم عادات السلوك البدنى والعقلى .

وربما أدى تفشى موجة الميل إلى الكسل وتفضيل الراحة واللهو بين هذه الكتل إلى سد منافذ وفرص الاجتهاد لدى الأقلية الراغبة

فى الكدح القادرة عليه وصرفهم عنه إلى استخدام ما لديهم من الملكات فى أخذ نصيب أكبر من الترف والمتعة والسلطة والجاه، فوجد الانتكاس العام طريقه الواسع الرحب، واتجه المجتمع بأسره إلى منحدر الهبوط .. لأنه مجتمع بدأ حالة التجمد، فصار كل ما فيه ومن فيه ثابتا مقررا ـ معروف البداية والنهاية لا يطلب الخيرون فيه أكثر من السمعة الطيبة وسعة الرزق ولا يكف غير الخيرين عن طلب الزيادة إما فى السطوة أو فى المال أو فيهما معا، فيعمل فى هذا المجتمع عوامل التحلل التى تلازم حتما كل ما لا يستمر فى النمو والزيادة والتطور والتطوير، وذلك قد يستمر زمنا يطول إذا ما قسناه بمقاييس الماضى وعولنا على سوابق التاريخ، وآخرها فترة التدهور التى بدأت نذرها من القرن الثالث قبل الميلاد وامتدت إلى القرن السادس عشر .. وبعده !

مواجهة الواقع الماثل الحاضر الذى يستحيل أن نحيط بكل معالمه الداخلية والخارجية وتيسير التعامل معه ـ هو الوظيفة الأساسية لمخيلة الآدمى ـ بدونها لا يوجد وعى آدمى ولا تصور ولا فكر ولا استقرار ولا استنباط ولا معان ولا مبادئ عامة ولا علوم ولا فنون ولا لغات بشرية وبدونها ما كانت توجد حضارة ما قديمة أو حديثة ـ فالخطوة الأساسية التى خطاها الآدمى وفارق بها نهائيا عالم إخوته من الثدييات وانفرد بها وبفضلها بمزاياه الهائلة المكتسحة ـ هى أنه من بداياته كان يرى الواقع الماثل وكان يمكن لمخيلته أن ترى فى نفس الوقت غيابه أو زواله أو تغييره أو تعديله أو لإبداله ببديل يعمل عمله بصورة أيسر أو أعم أو أفضل .

فالواقع والاحتمال المغاير للواقع أمران متلازمان موجودان معا .. تدعونا المصلحة العاجلة الغالبة عادة إلى إغفال الاحتمال، لكنه قائم فى أفق وعينا بفضل المخيلة التى تتيح خصوبة العقل

وتعدد وتنوع الميول والأحوال إلى غير حد .. تتيح امتزاج فهم الآدمى بعواطفه، وعواطفه بفهمه، امتزاجا ربما يضعف لكنه لا ينقطع ولا يعدم قط، فمن المحال أن تجد أى أثر لآدمى أو لآدميين فى أي مكان أو زمان ـ سواء أكان عملا فعلا أو تركا أو إنشاء أو زرعا أو صرعا أو سياسة أو اقتصاداً أو علما أو فنا أو دينا ـ خاليا من التلازم بين الوعى والمخيلة وذلك المزج بين الفهم والعواطف .

وجميع الكتب المقدسة المعروفة مليئة بذلك التلازم وذلك المزج، لأنها تخاطب دائما آدميين لا يرون الواقع الماثل الحاضر كله بكل أجزائه وروابطه ولا يرونه قط معزولا عن إمكاناته واحتمالاته لدى المخيلة ـ مما ليس حاضراً ولا ماثلا ـ كذلك نراه حتى فى الكتب والمؤلفات العلمية الموصوفة بالدقة والانضباط والاحتياط فى عصرنا

لكن الآدمى من قديم ـ قد ميّز بإصرار فى حساب القيم ـ ما بين الأمانة فى الرواية والعرض، وبين عدم الأمانة ـ وبين الصدق فى الشهادة والنقل، وبين الكذب أو الافتراء ـ وبين الحق بأدلته، وبين الباطل بدعاواه وادعاءاته، وبين صحيح الإسناد وبين المنتحل الزائف، وبين ما يغلب على الظن أنه وقع فعلا وله بينة من الصحة . وما هو وهم ومحض خيال، وبين ما هو تاريخى معتمد لا يخالف المعارف السائدة المعترف بها وبين ما هو أسطورى منشاه الشعر والقصص والحكاية مما هو متداول من قديم لدى الجمهور ـ وبين الجاد الذى يمكن أن يرتكن إليه عموم العقلاء لإمكان صحته بحسب الفطنة أو الحس المشترك، وبين الخرافى الذى يتعلق به خيال الأطفال وأشباه الأطفال من رجال ونساء .

وهذا التمييز برغم إصرار الناس عليه ـ فى كل عصر ـ يداخله الريبة والشك ليس فقط من جهة كيفية إعمال هذا التمييز وإسناده

فى الغالب إلى الذوق والعاطفة، بل من جهة أساس التمييز وأنه يُبنى عند الناس على الزعم بإمكان عزل الواقع الحاضر الماثل عن الاحتمالات التى يمكن أن تلازمه لدى القائل أو المخاطب، على حين أن الالتزام والمزج اللذين أشرنا إليهما لايمكن فصلهما على الإطلاق . وكل رؤية أو قول أو فعل أو ترك من آدمى تنقل إلى آدمى آخر يخالطها، سواء لدى الناقل أو المنقول إليه، شئ غير حقيقى أو شئ ناقص أو غير كامل ـ ومع هذا التلاقى والمرج لا مناص من تداخل غير الواقع فى الواقع، وغير الصحيح فى الصحيح، والأسطورى فى التاريخى، والخرافى فى الجاد، وهذا شئ طبيعى فطرى ـ مالم يتحقق فيه سوء النية أى تعمد تغيير الحقيقة لغاية يعتقد صاحبها أنها مميدة له أو لفريقه .

فنحن على جميع المستويات دائما نكيل للآخرين من القريبين والبعيدين، ونكتال منهم، خليطاً من معلوم لنا ومجهول، وصحيح وغير صحيح، نأخذه ونعطيه بحكم الاعتياد ـ على أنه معلوم وصحيح ونستعمله ويستعمله الآخرون وننتفع وينتفعون به بالقدر الذى اعتدنا واعتادوا ـ علي الرضا به حسب مألوف المحيط ـ نفعا إحصائيا لا نعزو إليه ضررا يمكن أن يحسب عند حساب المنافع والمضار ـ .. على أنه حينما تسجله الذاكرة وتؤكده وتقيده المخيلة وتزيده، يدخل حتما فى بنية عقائدنا ومعتقداتنا وما هو بديهى وطبيعى لدينا ونعطيه قيمة مطلقة لها تأثيرها الذى نسلم به فى إدراكنا واتجاهنا كله . إن قوة ونفوذ العرف العام والعادة الجارية والتقاليد والسوابق والتواتر يرجعان إلى هذا المصدر، وهما قوة ونفوذ ميكانيكيان ابتداء انتهيا دون أن نحس إلى أن صارا قوة ونفوذ لقيم مهمة من قيم المجتمع البشرى .

ثم لأن بصيرة الآدمي ـ أياً كان مبلغ تطورها ـ محدودة وتقوم بتوجيه مخيلته باستمرار وتتدخل في تكوين الاحتمالات والمتصورات .. نوعا وتركيبا وأحيانا زمانا ومكانا .. كانت مواجهة الآدمي لما يقع من الاحتمالات غير كاملة وإن كانت كافية بصفة عامة .. لكنها أحيانا تكون عرضة للنقص أو القصور أو الفشل، وهذا يشكل ما يسمى بالخطوط السيئة وأحكام المقادير .. ونحن جميعا نستقبل وقائع الحياة في مراحل العمر ـ مزودين بمدد كاف من القدرات والإمكانات والاستعدادات ـ لكنه لا يكون كاملا شاملا قط ولا هو كفيل بمواجهة كل احتمال يتحقق، وإذا صادفنا ما يجرى على غير ما نحب ونستطيع، ألفينا أنفسنا في مأساة صغيرة أو كبيرة حسب أطرافها وظروفها، وغرقنا في لجة من الاضطراب والانفعالات يتعذر علينا فيها رؤية واضحة للصواب والخطأ والصدق والكذب والمعقول والأسطوري والجاد والخرافي ـ واختلط علينا هذا بذاك، وقد يشتد هذا الاختلاط ويستحكم وتتناقله الأجيال إن مسّ خيال الناس وصار من مصدقاتهم .

إن عالمنا الآن ملىء بالخيال والوهم وكان كذلك منذ وجد الإنسان وتكاثر .. لكنه بفضل قدرة العقل على التأمل ـ وهى قدرة مهما بلغت محدودة هى الأخرى ـ أمكنه ويمكنه وسيمكنه في أحيان وأحوال كثيرة أن يفرق ويختار بين الحقيقة وبين الوهم والخيال، وأن يقف في بعض الظروف بثبات وإصرار إلى جانب الحقيقة كما فهمها، وأن يدافع عن موقفه بكل ما معه .. وهذا معدود من مفاخر الإنسانية ـ لكن الإنسان لم يستغن ولن يستغنى عن حاجته وميله إلى الخيال والوهم، ولم ولن يحاول منع تفشيهما في حياة الأفراد والجماعات ـ لأنه لايعيش فقط بفضل كونه عقلا ولا بكونه مخيلة فقط، ولا بكونه عاطفة وميلا نحو نازعة، وإنما

عاش ويعيش بمزيج مناسب من ذلك كله، وهو ما قد يبدو غير معقول أو شاذا أو غير ممكن استمراره .

وهذا المزيج المناسب ظل إلى اليوم، وبصورة تكاد تكون تلقائية أو شبه عشوائية ـ يظهر ويختفى ويقرب ويبتعد، ومع ظهوره وقربه يكون ظهور الحضارة وارتفاع قيمة الآدمى، ومع ابتعاده واختفائه يكون الانهيار والهوان !!!

فهل يمكن أن يتكاتف عدد كاف من المستنيرين ـ فى العالم الآن ـ على الإهتمام المدروس المنظم المستمر بذلك المزيج المناسب ومظاهره وظواهره، لحماية الجزء السليم فيه ومحاولة علاج خلله وتنمية فاعليته وجذب المزيد من التمات الناس الواعى إليه ؟

ربما كان هذا يبدو بعيداً ـ عن طائلة الفلسفة أو طائلة الديانات، لكنه ربما كان قريبا من المستنيرين المهتمين بشئون البيئة ومسائل ومشاكل المجتمع البشرى وبأمور تربية الصغار وتعليم الشباب وإيقاظ الكبار .

وأياً كان الأمر ـ لنتذكر أننا نعيش على التصورات إلى أن نفارق الدنيا .. صغيرنا وكبيرنا، وجاهلنا وعالمنا، وريفنا وحضرنا ـ وهى تشكل أساطيرنا وحقائقنا وعداواتنا ومودتنا وحربنا وسلمنا وتواريخنا وحضاراتنا وكل دنيانا وكل أحراننا .. نعيش على التصورات فى عالم خال خلوا تاما منها.. عالم يستسلم فيه لحد ما، وقتا يقصر أو يطول، استسلاما يشجعنا على توارثها وبناء حياتنا نحن وذرارينا عليها، وبتنا نعتقد أن أرصدة تصوراتنا من بنية الكون لا تنفصل عنه، وأننا بفضل القدرة على التصور نتميز بنوع من السيادة على بقية هذا الكون الهائل، ولم تفلح خرائب ومخلفات الآدميين، ولا أبدان موتاهم ولا إبادة من باد منهم وطمس عمرانهم

وانطفاء نارهم واكتساح الرياح والرمال لمعالم ملكهم وسطوتهم وصيتهم - .. لم تفلح فى الحد من خيال الأحياء وزهوهم، ولا من اقتلاع اعتقادهم فى أنهم أصحاب مكانة ممتازة فى هذا الوجود وربما يسوّل لهم ذلك نجاحهم فى تصور بعض قوانين الطبيعة ونجاح ما صنعوه على أساس ذلك من نظم وأدوات ومعدات وأجهزة .. وهو نجاح خليق بالإعجاب، لكنه لايعنى قط أن تصورنا لهذه النواميس هو وحده التصور الناجح الملائم، ولا أنه بيقين تصوير لمسلك الطبيعة ذاتها فى إبداع هذه النواميس كما نتصورها.

❁ ❁ ❁

بلقنة المنطقة، ومعالم التقريب * !!!

استحضر ويستحضر تعبير " البلقنة " .. وهو مستقى من " البلقان " ذات الجزر الصغيرة المتعددة، ما صرنا نراه من سنوات من توالى مشاهد التجزئة والتفتيت .. كانت العراق مثلاً صارخا لذلك منذ الغزو الأنجلو/ أمريكى تحت شعار مطاردة أسلحة الدمار الشامل التى استبان ـ بعد الغزو ـ أنها أكذوبة توارت وراءها مآرب خبيثة صار باديا الآن أنها لا تقتصر على " بلقنة " العراق، وإنما هى فرع على مخطط قديم جديد يستهدف بلقنة المنطقة بأسرها .. لم يكن ما سقط من تونى بلير فى مقالة نشرت له بالأهرام فى ٢٠٠٣/٣/٣٠ ـ من أنهم يسعون إلى أن يتقاسم العراق العرب والأكراد والأشوريين والسنة والشيعة والمسيحيين ومن أسماهم جماعات أخرى ـ لم يكن ذلك كشفاً فقط عن مخطط أمريكا / إسرائيل لبلقنة العراق، وإنما ظهر مع الأيام وما يتوالى من مشاهد إلى اليوم .. أنه جزء من مخطط أوسع لبلقنة المنطقة كلها والعالم الإسلامى بأسره ـ إن لم يكن بالتفتيت الإقليمى إلى " دويلات " و " أقطار" أصغر، فليكن بإثارة النعرات القبلية والطائفية والعرقية والمذهبية لتتمزق الدول العربية والإسلامية إلى كيانات صغرى تغرق فى صراعات ومشاحنات ومواجهات تفتت وتشرذم وتقضى قضاءً مبرماً على الكيانات الموحودة لنزع فرص نموها وإجهاض مستقبلها، وإخصائها

---

* الجمهورية ٢٠٠٣/٤/٢٨

* منقحة ــ صوت الأزهر ٢٠١١/٣/٤

لتكون أقل قوة، وأهون قدرا، وأيسر منالا، وأسهل سيطرة وتسخيرا وإخضاعا وإذلالا !!

القوى المتحالفة : أمريكا / إسرائيل فى المقام الأول، تعلم وتدرك أن فرصة تفعيل الهيمنة الأمريكية / الإسرائيلية، وتكريس تضخم الحجم النسبى لإسرائيل صغيرة الكيان والإمكانيات أصلا ـ لا يتأتى تحقيقه ما لم يتم هذا التفتيت وهذه البلقنة لتتشرذم هذه الكيانات ـ أو أطلال ما بقى منها !! ـ إلى "فتافيت" و" شراذم " إقليمية ومذهبية وعرقية وطائفية ومحلية .. وهذه القوى المتحالفة ـ لا تلعب على فراغ، فهى تدرك أنه كما دان لأوربا مختلفة الجنسيات والأصول والأعراق واللغات والتواريخ، أن تتكتل وتتجمع فى سوق أوربية مشتركة ثم فى اتحاد أوروبى، وما دان لأمريكا القديمة من التجمع فى الولايات المتحدة الأمريكية الآن، والتى نجحت فى أن تضوى فى كيان واحد معامرين مهاجرين من أشتات متفرقة وأعراق وجنسيات ولغات وبقاع مختلفة، وكيف هيأ ذلك لقيام الكيان الكبير الذى صار القوة الكاسحة Power Hyper فى عالم اليوم الواحد القطبية .. أدركوا من واقع هذه التجارب أن التفتيت هو الكفيل بمصادرة وإضعاف الكيانات العربية والإسلامية ـ بتفتيت وحدتها وبعثرة كيانها وتمزيقه إلى جزر ومجموعات ودويلات إقليمية وعرقية ومذهبية وطائفية تتصارع بدلا من أن تتساند .. وتتقاتل بدلا مما كانت عليه من التئام وتوحد عاش سلفا فى بعض صفحات التاريخ .. ومن توابع دروس البلقنة، أن ما جرى للإتحاد السوفيتى الذى انفرط عقده وتبعثر إلى دويلات ـ كان حصاده رصيدا بالإيجاب للولايات المتحدة الأمريكية التى صارت القطب الأوحد وحاكمة العالم المتحكمة فى مقدراته

بلا منازع وبلا أى قوة قادرة على مراجعتها أو حتى محاورتها محاورة فاعلة مؤثرة !!!

لم يكن إذن ما فرط من تونى بلير من سنوات ـ مجرد زلة لسان، أو خطأ مطبعيا .. إنما هو تعبير عن إستراتيجية محكمة مرسومة مارستها ولعبتها بريطانيا ذاتها زعيمة الاستعمار القديم !! .. هذه الإستراتيجية تستهدف بلقنة وشرذمة المنطقة كلها لا العراق وحده .. وساذج من يظن أويتوهّم أو يحلم بأن " البلقنة " المعنيّة سوف تشبع وترتوى بعد أن تطول العراق ثم تتوقف .. لقد جرى بأمس بلقنة الإمبراطورية العربية العباسية ثم العثمانية .. ثم جرت بلقنة أقطار ما تفتت عن الإمبراطورية العثمانية .. هذه " البلقنة " جارية من عقود، وأزمان . لم يكن حسبها فصل " الرأس " عن باقى الجسد، ومتابعة استيلاد الأزمات فى إطار مخطط يبقيها منغمسة فى مشكلات معقدة ومركبة !!، وإنما تابعت المخططات الاستعمارية بلقنة " الشام " الواحد إلى سوريا ولبنان وشرق الأردن وفلسطين ـ قبل أن يجرى ابتلاع فلسطين، مثلما تم تفكيك الدولة الكبيرة التى كانت تضم السودان ومصر والشام والحجاز . ، حتى إذا ما انتقلنا إلى شبه الجزيرة العربية وما حولها لم تخطئ العين سياسة " البلقنة " التى أحالت الكيان هناك إلى" محميات " و " إمارات " و" دويلات "، وقسمت اليمن إلى جنوب وشمال، ثم استهدفت السعودية لتقطيع علاقاتها مع بقية العالم الإسلامى .. مثلما جرى من زمن " بلقنة " المغرب العربى إلى ليبيا وتونس والجزائر والمغرب .. واستحداث وإثارة وتفعيل القضايا التى تستهلكه · المغرب ومشكلة الصحراء الغربية والبوليساريو .. الجزائر والبعثرة والعنف بين فصائله .. " جبل طارق " الذى أعلنت بريطانيا وأسبانيا من سنوات تقاسم السيادة فيه !! .. كل ذلك تحت مظلة

تقسيمات " إمبراطورية الاحتلال " التى حين أخلت تركت كيانات مبلقنة بدلاً من الكيان الواحد الذى كان هنا أو هناك !!

ليس مقصدى هنا قراءة تاريخ ما كان، وإنما فقط لأخذ خطوطه العامة شاهداً على ما يجرى اليوم .. " البلقنة " جارية الآن على قدم وساق .. إحماء وإيقاظ العصبيات والطائفيات والمذهبيات والعرقيات والإقليميات لا يتوقف ولا ينى ولا يهدأ . الإستراتيجية الأمريكية الإسرائيلية تستثمر " الفتوق " الموجودة فعلا لتوسعها وتحولها إلى " فلوق " مفرطحة منفسحة لا التئام لها .. يجرى هذا على قدم وساق .. دون أن تفيق الأقطار المغلوبة على أمرها، أو تتنبه إلى حقيقة ما يراد بها .. أو تشخص ما يجرى من عمليات بلقنة وتفتيت تتشح بأسباب شتى .. إن ما كان يقال سلفا من باب الاستنتاج ـ قد صارت له الآن أدلة ساطعة تؤكد أن تفتيت المنطقة وبعثرتها إلى أشلاء هدف تبذل فى سبيله الأموال والأسلحة وتُشن من أجله الحروب وتُصطنع من أجله الأزمات .. ما جرى ويجرى بين شمال وجنوب السودان أحدث فتقا جعلوا يحولونه إلى فلق ضخم ينفصل به فى النهاية جنوب السودان عن شماله فى مخطط أوسع يستهدف " أفرقة " السودان وعزله عن هويته العربية الإسلامية .. وها نحن نرى الآن انفصال جنوب السودان عن شماله !! .. ما يجرى إثارته هنا أو هناك من وقت لآخر من فتن طائفية فى بلدان عاشت على الدوام على نسيج واحد ـ هو إستراتيجية مقصودة لخلق " فلق " بين أبناء الجسد والنسيج الواحد .. ما يحدث فى الجزائر والمغرب والصحراء الكبرى، ودون الدخول فى التفاصيل، يسعى إلى إحداث مزيد من " البلقنة " فى المغرب العربى .. الحرب " المجنونة "، التى دفع إليها صدام أو زينت له من دبلوماسية أمريكية، هى " بلقنة " مقصودة لايزال " الكيان "

المنكوب يعانى عوادمها حتى أقام نفر من أبناء هذا الكيان الواحد الأفراح والأهازيج لسقوط بغداد .. هذا السقوط الذى تشرئب إستراتيجية التحالف لتنطلق منه - وكما سقط من تونى بلير فى مقاله للأهرام - إلى شراذم متطاحنة من العرب والأكراد والسنة والشيعة والأشوريين والمسيحيين ومن أسماهم السيد بلير جماعات أخرى !!!

أخطر ما يجرى اللعب عليه - بعد العرقية الكردية، إلهاب الحساسيات بين السنة والشيعة فى العراق وفى العالم الإسلامى .. وهو إلتهاب إن ثار وهاج سوف يطول الجسد برمته !!

* * *

يدرك التخطيط الخبيث الذى أشرنا إلى بعضه، بمآربه الأخبث، أن الإسلام - شأن الدعوات الكبرى - قد ماجت فيه أفكار ومذاهب وفرق وأحزاب دينية أو سياسية شتى .. وأنه مع كون الإسلام واحد فى عقائده وأحكامه وأصوله وثوابته، إلا أنه ما إن انقضى زمن النبوة، وخلافه الشيخين، وجزء من خلافة عثمان، إلا وفرض مساو ومنعطفات التاريخ ظهور فرق وأحراب دينية أو سياسية شتى، وتفرع عن كل منها عشرات من الفرق اختلفت واتفقت، وتجادلت وتقارعت، وهذه هى ضريبة على كل الدعوات الكبرى فى كل زمان ومكان .. من هذه الفرق ما بقى وعاش، ومنها ما إنقرض أو يكاد .. انقرضت وتوارت فرق الخوارج وغلاة الشيعة، ويبقى فى الأمة الإسلامية تياران كبيران : تيار السنة من أهل الحديث والرأى ومن أئمة مدارسهم أبو حنيفة، ومالك، والشافعى، وابن حنبل .. والمتصوفة .. وتيار الشيعة، وفى مقدمته الزيدية، والإمامية ويلحق بهم الإسماعيلية والدروز والعلويون .. ومن قديم، والاستعمار البريطانى والفرنسى والإيطالى والهولندى والبلجيكى الذى احتل

أقطار المنطقة ـ يلعب على هذا الوتر، ويزكى ما وسعه شرر الخلاف ليس فقط بين السنة والشيعة، وإنما بين فرق وفصائل الشيعة ذاتها، فهذا إسماعيلى، وداك درزى، وآحر علوى .. حتى رجال السنة، ريم أن تتحول مذاهب الأئمة الكبار إلى محاور خلاف، .. لعبة التحالف الاستعمارى على هذا الوتر قديمة، نزكيها أو نبتلع طعمها وسمومها دون أن ندرى ! .. إن أحدا من الشيعة أو السنة، لا يختلف حول منزلة الإمام على بن أبى طالب الذى ينزله الشيعة منزلة حاصة ويؤمنون بالإمامة لإثنى عشر من نسله، بيد أن مكانة الإمام لدى أهل السنة مكانة سامقة رفيعة أثيرة، محبة ومحل تقدير وتوقير وإجلال من جميع أهل السنة .. ما من قارئ للتاريخ الإسلامى، سنى أو شيعى، إلا ويتمنى أن يعود الزمان القهقرى لينتصر الإمام على ويقيم المسلمين على الجادة كما تنبأ الفاروق عمر حين قال عن مجلس الشورى الذى اختاره : " لو ولوها الأجلح (أى على) لحملهم على الجادة " .. ولكن التاريخ للأسف لا يعود، فما كان كان !! لن يعود الزمان القهقرى، ولكن سيبقى الإمام على فى منزلته السامقة التى يحفظها له أهل السنة كما يحفظها له الشيعة .

من سنوات، ومن منتصف القرن الماضى، إلتفت نجباء علمائنا إلى مخاطر تمزيق الأمة وبلقنتها من حلال إثارة الخلاف وتوسيع رقعته وفتقه وتحويله إلى " فلق " واسع يفصل بين السنة والشيعة ويجعل من كل منهما أمة غير الأخرى .. أقول إنه من قبل هذا التحالف الشرير الذى نرى اليوم مشاهده وأدلته ونتائجه المدمرة، نهض هؤلاء النجباء ليدعوا فى همة ونشاط إلى " التقريب " بين المذاهب الاسلامية . كان من حظى أن عرفت وإقتربت من الأستاذ العلامة المتفرد والمحامى الأديب الشاعر المفكر محمد عبدالله محمد الذى جمعت له ونشرت ـ فى كتاب ـ مقالاته عن معالم التقريب ..

والتى كانت قد نشرت تباعا فى مجلة " رسالة الإسلام " .. كان رحمه الله نائبا لرئيس جماعة التقريب التى عقدوا رئاستها للشيخ الإيرانى محمد تقى الدين القمى رحمه الله، وكانت مجلة " رسالة الإسلام " هى نافذة دعوتهم التى تناوب الكتابة فيها، وحمل دعوة التقريب، إلى جانب الشيخ القمى، والعلامة الكبير محمد عبدالله محمد - أئمة وأساتذة عظام .. أذكر منهم - تمثيلا لا حصرا - الإمام الأكبر الشيخ شلتوت، والإمام الأكبر عبد المجيد سليم - من شيوخ الأزهر، ومن العلماء المصريين العرب الشيوخ والأساتذة والدكاترة : عبدالله العلايلى، محمد حسين آل كاشف الغطاء، ومحمد صادق الصدر، ومحمود فياض، ومحمد المدنى، ومحمد يوسف موسى، ومحمد عبداللطيف دراز، ومحمد محيى الدين عبد الحميد، ومحمد جواد مغنيه، وعبد المتعال الصعيدى، وعبد العزيز عيسى، ومحمد على علوبة، ومحمد صالح الحائرى المارندارى .

الدعوة إلى " التقريب" بين المذاهب الإسلامية أدعى وأولى فى زماننا - لمقاومة الفرقة والتشرذم والبلقنة التى يسعى إليها مخطط الشر لتفتيت وإضعاف الكيانات العربية والإسلامية، وأخذها قطعة قطعة، والقضاء عليها جزءا جزءا، وفصيلا فصيلا، وقطرا قطرا !!!

لست قلقا من محاولات إزكاء أى نعرات عرقية أو إقليمية، فإنصهار " الأعراق " فى هذا المحيط الكبير قد صار واقعا هائلا يستعصى على أى محاولات للتفتيت أو إزكاء نعرات .. ما أخشاه هو إثارة الحساسيات الدينية بإعتبارها أرضا صالحة لإلهاب العواطف . من المهم للشيعة والسنة وغيرهما من المذاهب، أن يدركو أن الإسلام قام ونهض وإستمر بوحدة المسلمين .. أن يتعانقوا ويلتفوا حول " التقريب " بين المذاهب الإسلامية - الذى حمل شعلته هؤلاء السابقون .. أن يدركوا أن التقريب ضرورة حياة للإسلام والمسلمين .. أنه أداة تقارب ورأب صدع وجمع شمل .. أن يعى

ويفهم أهل هذه المذاهب أنهم ينتمون إلى دين واحد، وأنهم جميعا لا خلاف بينهم فى الأساسيات : إلهم واحد، وكتابهم واحد، وقبلتهم واحدة .. لا يختلفون على أى ركن من أركان الإسلام، وأن هذا القدر المجمع عليه بينهم هو جوهر الإسلام ورأس مال المسلم أيا كان مذهبه .. التقريب ـ فيما قرأت لمحمد عبد الله محمد ـ لا ينافس أحدا من أهل المذاهب على جاه أو نفوذ دينى أو دنيوى، ولا يدعى لنفسه سلطانا من أى نوع .. فالتقريب لو فعل ذلك لدخل الغمار وصار عامل فرقة جديدا بدل أن يكون دعوة إلتئام وتقريب .. لذلك فإنه ليس للتقريب ربقة فى عنق أحد ولا بيعة عند أحد، ولا هو مذهب أو حزب أو فرقة أو طائفة .. لو إتجه التقريب إلى ذلك لزاد عدد الفرق والمذاهب والأحزاب الدينية، ولأدى بالتالى إلى مزيد من التفرق والإختلاف .. التقريب مرتبط منهاجا وغاية بوحدة المسلمين جميعا . وحدة تدور حول محورين : الأول، التسليم بحقوق عامة للمسلم .. لكل مسلم فى كل زمان وفى كل مكان من بلاد الإسلام بغض النظر عن مذهبه أو عرقه أو جنسه أو لونه أو طبقته أو لغته .. والمحور الثانى لوحدة المسلمين فى نظر التقريب، هو الإعتقاد بأخوة المسلم للمسلم تبعا لإخوتهما فى الله عز وجل!

التقريب الذى حمله هذا الرعيل وندعو إلى إحيائه، ليس حركة تبشيرية .. فليس من أهداف رسالته الدعوة للإسلام، وإنما تقارب وجمع شمل المسلمين .. التقريب لا ينتصر لمذهب على مذهب، ولا يدعو إلى إزالة مذهب من المذاهب الإسلامية، فهو لو فعل ذلك لزاد الصراع والفتق ولم يرتقه .. التقريب دعوة تنشد إزالة العداوة أو سوء الفهم المتبادل بين المذاهب الإسلامية القائمة .. بل إن التقريب لايضيق بالفكر والرأى، لأن وجود مدارس مختلفة للفكر والرأى هو علامة صحة لا مرض .. يبدأ المرض إذا فقدت مدارس الفكر

وتيارات الرأى القدرة على التحاور العاقل وابتعدت عن أدب الحوار وأدب الإختلاف .. الإسلام نفسه شحنه هائلة من النشاط العقلى والروحى تأبى - فيما يقول أستاذنا محمد عبدالله محمد - أن يتحول المسلمون إلى مجرد نسخ متطابقة من عقل واحد، ففضلا عن أن هذا محال، فإن الإسلام لا يطيقه ولا يريده ولا يستهدفه .. المسلم فى شرعة الإسلام ليس نسخة من أحد، ولا هو مقبول منه أن يكون نسخة أو أن يكون إمعة مع الناس وفى ركاب الناس .. مصير المسلم معلق بعنقه وفكره وعقله ورأيه ..المسلم فى شريعة القرآن أصل فذ يعقد عليه الإسلام آماله ويهادى به الدنيا بأسرها .

ليس من مصلحة الإسلام والمسلمين كبت النشاط العقلى والروحى داخل الإسلام ..الإسلام يقوى ويتقدم طالما انطوى على عقول تفكر وتتفاعل، وهو على العكس يتحوصل ويتقزم بل ويدرس ويندثر نوره الحقيقى إذا لم يعد يفكر فيه ويشعر به سوى الحمقى والجهلاء !!

إنحصار أهل المذاهب فيما يرام حصرهم فيه، هو ابتعاد وإبعاد عن روح الإسلام، وبلقنة وشرذمة للمسلمين، وتفتيت لوحدتهم التى كانت مناط ومرجع ما استطاعوا أن يطاولوا به الدنيا، ويهدوا البشرية على مدار حقب وأجيال .. من واجبهم أن يستخلصوا " الروح " التى انطلقت بها حضارتهم فى السالف .. هذه الروح هى حبل النجاة الحقيقى مما يراد لهم وبهم !

نعم إننا كآدميين، مدفوعون فيما يقول محمد عبد الله محمد - بدافع فطرى لا يهدأ، نحاول دائما أن نبدو على صورة أفضل، وهذا الدافع الفطرى هو وراء ملة إبراهيم ووراء دين محمد عليهما الصلاة والسلام .. فنحن نعبد خالق الكل سبحانه استجابة لفطرته التى فطر عليها النوع الإنسانى والتى هى أصل الأديان وقوامها .

الأمل : قاطرة الإنسان والإنسانية ! (*)

من المحال أن يعيش الآدمى بغير رجاء يأمله أو يتوقعه أو يتمناه .. فالرجاء " تطلع " ملازم لوعى الآدمى ملازمة لاتفارق حياته، بين " الوعى " و " الحياة " تلازم لاينقطع حبله، لأن الحياة تمتد امتدادا مصحوبا بالوعى وما ينحفر فيه ويستهدفه من آمال وتمنيات لأحوال أفضل،لا تقتصر على الحياة الدنيا التى يرجو فيه الآدمى عيشا أهنأ وأفلح وأرضى، بل إلى مايرجوه أيضا من نشور وقيام وبعث بعد الموت يلاقى فيه ثواب ما يعتقد أويأمل أنه قدمه فى دنياه .. حتى المنتحر، لايعدم حبلا ـ مهما كان ضالا أو واهيا ـ يربطه بأمل يبلوره لنفسه بالراحة من الحياة الشقية التعسة العابسة التى لم يعد قادرا على مزاولتها واحتمالها ..لايفقد هذا " الأمل " المريض بمرض معضل قاتل، لاينقطع رجاؤه ولا ينطفئ أمله كلية فى تكذيب علم الأطباء والحكماء الذين يقطعون بموته، ولا ييأس اليائسين من شفائه .. بل ولاييأس المحكوم عليهم بالإعدام مهما حانت وأوشكت لحظة التنفيذ، وقد وضعتنى المقادير فى مشهد من هذه المشاهد بقيت فيه إلى جوار خمسة مقضى بإعدامهم لم يفقدوا الرجاء لحظة حتى وهم مسوقون إلى غرفة التنفيذ !! .. لايطيق الآدمى أن تنطفئ فيه جذوة الأمل، حتى المقدمون على موت محقق فى عمليات استشهادية يوقنون سلفا أن " الحياة " ماضية فيها إلى ربها .. يستبدل الفدائى بالأمل فى الحياة، الأمل فى العطاء للقضية التى آمن بها وضحى بحياته من أجلها، وقد يأمل إلى جوارها فى

* الأهرام ٢٠٠٤/٥/٢١ .. وكانت فكرة هذا المقال من وحى أشعار الأستاذ الخليل محمد عبدالله محمد ، والحوارات التى لم تنقطع معه أسبوعيا ، وتخوض فى شتى شئون الحياة .

المجد وحسن الأحدوثة وحفر اسمه على جدار الزمن .. لا يفقد الأدمى كل رجاء فى كل اتجاه، إلا إذا أيقن أنه قد سدت أمامه كل الأبواب، وانغلقت كافة المنافذ، هنالك فقط يطحنه القنوط ويمزقه اليأس تمزيقاً تاماً مالم يكن معه بقية من دين !

هذا المعنى العام للأمل، موجود منذ وعى الآدمى وعيه المعروف لنا الآن، وموجود فى كل ما نفعله عامدين أو غير عامدين، بل وفى كل ما أهملناه أو توانينا عن أدائه .. لا يتوقف وجود الأمل على مكانة الآدمى أو رقة حاله أو علمه أو جهله أو ثرائه أو فقره .. الأمل موجود لدى أعلم العلماء، وأيضاً لدى أجهل الجهلاء، من كل جنس أو لون، وفى أى مكان وزمان ! . جميع ما يسمى بالحقائق العلمية ينطوى فى الواقع على آمال - إيجابية أو سلبية - فى مزيد من الجهد والبحث والتدقيق فى الوسائل والتجارب والحساب والرصد والمراقبة، لتعميق أو زيادة أو تقوية هذه الحقائق أو زيادتها وكادة وعمقاً وسعة، فلا حدود لآمال العلوم فى تحقيق المزيد، ولا فى جدوى المراجعة ودقتها، ولا فى العودة إلى فحص الحقائق باستمرار، لأن العلم لايقيم مقدسات ولا يسلم بنهائيات ولا يستبعد شيئاً من الخضوع لإعادة النظر والتصحيح والتطوير !

لا نهاية لميادين العلم والمعرفة، لأنه لا نهاية لآمال الآدمى فى عقله وسعيه، ولانهاية لعقل الآدمى وسعيه لأنه لانهاية لآماله فيما هو أفضل مما بين يديه .. لايتوقف الآدمى عن الأمل، مستقبله هو أمله، وأمله هو مستقبله .. من يدرك " الأمل " ودوره، يدرك أن حياة الآدميين لا تتكرر فى قوالب وأنماط ثابتة إلا إذا انطفأت فى الآدمى جذوة الأمل او انقلبت آماله سلبية محصورة فى إبعاد مايكذب أو يدحض ما معنا من الحاضر، واستبعاد ما يوقظنا إلى ما فى حاضرنا من قصور أو غلط أو تهافت أوخيبة أو انحراف .. فلا شىء أفضل مما نحن فيه، وليس فى الإمكان أبدع مما كان !!!

ربما كان هذا الخبو أوالخفوت ـ ممكنا لقرون عديدة فى الزمن الغابر، فى ظل مجتمعات الصيد والقنص، أو حضارات الرعى والزراعة .. حين كانت رتابة الزراعة جاثمة مطبقة على آفاق الآدميين المادية والمعنوية، مخيمة على وعيهم تعيش غالبيتهم الغالبة وتموت فى هذا الإطار العتيق المحدود فى الرعى أو الزراعة أو فيهما معا .. لم تعد الحال فى زماننا كهذه الحال المتواضعة الخابية، وامتد تيار التغيير شاملا الدول غير المتقدمة إلى جوار الدول المتقدمة، ساحبا معه نموا عريضا فى طموحات وآمال البشر ! .

عالم الآمال، وعالم الواقع !

حياة الآدمى الواعية على هذه الأرض، حياة تتألف دائما من عالمين لاغناء لأحدهما عن الآخر : " عالم الآمال "، وهو عالم أساسى للآدمى يشحنه بوقود الحياة، ويلزمه لاستمرار رغبته فى الحياة، من التفاؤل والاستبشار وحسن الظن وحسن النية، و " عالم الواقع " الخشن الجامد، العابس أو الخالى أحيانا من اللين ومن العواطف، الذى يشعر الآدمى من آن لآخر بضآلته وعجزه وحتمية زواله، وربما صادر على آماله، أو ردها إلى الحدود المعقولة التى توافق ظروف الزمان والمكان وما قد تتأبى به على طموحه وآماله الشخصية ! .. " عالم الأمل " ـ لايعنى الهروب المخدور من الواقع ولا بناء قصور الوهم والخيال فى الهواء، ولا هو أمل العاشقين الذى صاغه بيرم التونسى وغنته أم كلثوم : بالأمل أسهر ليالى، فى الخيال أبنى العلالى .. وإنما هو شعلة تضئ روح الآدمى وتدفعه إلى الأمام والجد فى أنشودة الحياة طلباً للنور والجمال والكمال والحق !

من لطف الله تعالى، أن الأديان بعامة، تخاطب فى الإنسان دوماً ـ وعلى درجات مختلفة ـ " عالم الآمال " .. فتبث فيه الأمل والرجاء، لأن همها الأساسى تنمية الرغبة عنده فى الحياة، وفى المحافظة على البشر والتفاؤل وحسن الظن وحسن النية، وإعانة البشر فى لهيب

وعبوس ورمضاء الظروف والأزمات ـ على الثبات والصبر والعزم في مواجهة ما يصادفهم في عالم الواقع الجامد الخشن من حادثات مخيبة لآمالهم !

لذلك كانت الكتب المقدسة مليئة بما هو جميل ورائع ومؤثر لانتشال إرادة الآدمي من السقوط، وبث البشر والأمل في حناياه، تستخرج له من تراث الماضي ما تم فيه من انتصار الأمل والحياة على قوى اليأس والموت، وتبرز تدخل الرحمة واللطف والعطف والحب والقدرة الغالبة الخيرة المحبة على نوازع وقوى الشر ـ استجابة لدعاء مخلص، أو مكافأةٍ على عمل طيب، أوعلى المثابرة في الإخلاص والإيمان، أو دحضا لظلم نزل بمظلوم أو يهدد بالنزول به .. مقرون هذا وذاك ببشارات للآملين المتقين الصابرين ـ بحياة هنيئة صافية لا يغيرها ما يعترى عالم الواقع الخشن الجامد من عبوس أو جهامة أوتثبيط !

البشارة بمحبة الله في الكتب المقدسة، موعودة للمؤمنين، المحسنين، المقسطين، المتقين، الصابرين، المطهرين، الصالحين، المتوكلين، المهاجرين إلى الله، المتبعين لشريعته، الصادقين، الباذلين، العاملين .. يخبر القرآن المجيد أن هؤلاء يحببهم الله، ويعدهم بالفلاح في الدنيا والمثوبة في الآخرة .. يبشرهم بأن : " الباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخيرا أملا " (الكهف ٤٦) و " أن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر . " (القمر ٥٤، ٥٥) .. تُزَف إليهم البشارات فتقول فيما تقول : " وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . " (فصلت ٣٠) .. بشارات الكتب المقدسة وبشارات القرآن المجيد لا تقع تحت حصر، وتحمل امدادا هائلة لبعث الرجاء والأمل، وتعمد إلى إرداف هذه البشارات بأى " نذير" أو " وعيد " يستلزمه سياق الخطاب، بل وتجعل البشير سابقا على النذير

(بشيراً ونذيرا)، والمغفرة والتوبة سابقة على العقاب : " غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب " . (غافر /٣) .

ومن الغريب أن بعض رجال الدعوة يتركون فى خطابهم هذه البشارات والآمال المبثوثة فى الكتب المقدسة والوعود بالحياة الهنيئة الصافية والجنة الموعودة للصالحين المتقين، ويقدمون خطابا عابسا متجهما يكاد يصادر على الجانب المشرق المبشر الذى اعتت به الكتب المقدسة، وتغيت به إقبال المخاطبين على الحياة وعلى العطاء الخصب الجزل الآمن المطمئن الواثق والمفعم بالأمل والرجاء .. ان ترك هذا الجانب، ومحاصرة الكتب المقدسة بعالم الواقع الخشن الجامد وما يحدث فيه ومنه .. ينطوى على " مطالبة " ظالمة غير مشروعة أن تتخلى الأديان عن غايتها وعن مهمتها الأولى فى صيانة عالم الآمال الذى يستحيل أن يعيش أى آدمى خارجه محروما من قوته الدافقة ومعطياته التى تدفع الآدمى دوما نحو طلب الكمال والحق .. عالم الآمال محال أن ينعزل عنه أى آدمى حتى من اشتطوا وألحدوا، فلا غناء لهؤلاء أيضا عن عالم الآمال الذى يربطهم برجاء ربما ينتشلهم ـ حتى إن لم يريدوا إرادة واعية ـ من وهدة ما هم فيه من تيه وضياع !!.. ومثلما تنطوى مواجهة الأديان بعالم الواقع الخشن الجامد من مطالبة ظالمة غير مشروعة، فإن ذلك ينسحب أيضا على الاعتراضات التى تدعى على بعض الكتب المقدسة مخالفتها لمقررات العلوم الطبيعية من فيزياء وكيمياء وفلك وجيولوجيا إلى غير ذلك، لأن هذه العلوم الطبيعية إنما تعمل عملها فى عالم الواقع ولا يمكن أن ترى أو تشتغل إلا بعالم الواقع الخشن الجامد بطاقاته وأجسامه وتركيباته وتفاعلاته وخلوه التام المطلق من أى دور للأمل البشرى !

ظالم أيضا وغير مشروع الاعتراض على العلوم الطبيعية التى لا تشتغل إلا بعالم الواقع الخشن الجامد الخالى تماما من أى دور للأمل

البشرى بأنها تخالف الصور التى تصور فى الكتب المقدسة عالم الواقع الخشن الجامد، لأن واقع هذه الصور يتغير حتما كلما تغيرت وتطورت وتقدمت خبرات الإنسان به وزادت إمكاناته المادية والعقلية فى الرؤية الأكثر صحة ودقة، وهى رؤية واقية على الدوام لواقع خشن جامد من أجل مزيد من القدرة على خشونة هذا الواقع والنجاح فى التعامل معه بدراية وكفاية . هذه الرؤية لا تعنى ولا تهتم ولا تبالى ولا تكترث بعالم الآمال ولا بتكريس القدرة على النجاح فى التعامل معه، لأن عالم الآمال فى نظرها عالم " خاص " بالإنسان وحياته الإنسانية الواعية وتعلقه بها ورغبته فى المحافظة عليها وحسن الظن بها وحسن النية فى ممارستها وكلها جوانب لا تهم ولا يكترث لها أو يأبه بها عالم الواقع الخشن الجامد - ذلك العالم الخالى من العواطف الإنسانية خلوا تاما، بل ويعتبر اقتحامها لميدانه بابا لدخول الخطأ على حسابات لا مكان فيها للأحاسيس أو المشاعر أو العواطف !!

هل يمكن أن نحيا بغير أمل وود ؟!

ابتسامة الرضا العريضة على وجه الطفل، قديمة قدم الإنسانية كلها .. ومع ذلك فإنها ليست مكررة ولا تتكرر قط، لأنها ابتسامة روح نابعة من قلب أخضر تعبر عن أمل وود لروح معينة، ولا ينفر منها أو يعجز عن الإنجذاب إليها - إلا حجر أو آدمى جفت روحه وتحجر قلبه .. حَجّره خوفه أو شهوته أو أنانيته الكثيفة التى لا يمكن أن ترى إلا نفسها ومن هم فى حكم نفسها !!!

مهما تقدمت العلوم، وارتقت الحضارات، وامتلك عالم الواقع مظاهر الرقى والتقدم، وطابت معطياته، فإن نشاط الروح هو الذى يعطى الطعم الحقيقى لحركات البشر، وهو الذى يضمن وجود الجدّة والحدّة، وليس مجرد تغيير الشكل، أو تغير الزمان أو المكان .

الجدّة تصدرها الحياة ذاتها .. لا توجد إلاّ فى الأحياء، ولا توجد قط فى الكونِ الطبيعى المادى، ولا يستولد الجدة ليفرح ويتعلق ويمحر بها إلا الآدمى !

هل ذلك لأن الحياة طارئة على الكون الطبيعى الأسبق خلقاً وإيجادا كما تقول الكتب المقدسة، وأنه لذلك يشعر الآدميون بأن الكون الطبيعى شىء واقع خارجهم دائما، وأنه على الدوام غريب على "الأنا" و" الذات" و" النفس" ؟! .. هذا السؤال سؤال قديم يطرحه الآدميون على أنفسهم من حقب، وما زالوا رغم هذا بعيدين عن العثور على إجابة صحيحة، لأنهم ما زالوا بعيدين عن أى حوار حقيقى مع الكون الطبيعى يخرجه من سلبيته العنيدة تجاه الآدميين !!

ظن الآدميون أن اختراق الفضاء باب لهذا الحوار مع الكون الطبيعى، حاولوا ومازالوا يحاولون الاتصال بأحياء واعية قد توجد فى كوكب أو كواكب أخرى، ويرصدون لذلك العلم والعلماء والأجهزة والأموال والإمكانيات، وينفقون الجهود المضنية على غير جدوى أو طائل حتى الآن !

ويبدو أن الآدمى قد اقتنع الآن أنه رغم كل ما حققه وحده، من تقدم فى المعارف والعلوم - فإنه لن يستطيع وحده، ومهما امتلك من أدوات المعرفة، أن يزيح الأستار الكثيفة والأسرار التى تحيط بوجوده أصلا وغاية، ولا بمستقبله - ولا أن يعلم علما قطعيا بالكون الطبيعى أو بعالمه هو، أو أن يعلم بحقيقة الروابط بين هذين العالمين : عالم الكون، وعالمه الشخصى . وأيهما تطور عن الآخر أو طرأ عليه!

مكتوب على معظمنا أن يعيش حياته كلها قبل أن يفهم شيئا يذكر عن نفسه أو عما يحيط به، لأنه مشغول بمطالب العيش، وليس لديه فرصة للتأمل ومداومة الصبر على هذا التأمل .. لا يصل

الأدمى إلى غايته من الفهم إلا إذا زاوج تأمله بالصبر حتى ينمو فهمه مدة عمره مستعينا فى الوقت نفسه بما حصله وفهمه الآخرون السابقون والحاليون، الأموات والأحياء .. ولا يغنيه ذلك كله عن التجربة والمراجعة، واستكمال القصور وتصحيح الخطأ وتغيير المفهوم بمفهوم جديد تجلت له آياته أو علاماته أو أماراته .. يجب العاقل النشطة روحه أن يستمر فى لهثه وراء معرفة الحقيقة التى لايعرف الآدميون منها إلا جوانب وأجزاء ورؤى ونظريات وشذرات متفرقة، لأن الساعين حقيقة اللاهثين فعلا وراء الفهم هم دائما " قلة قليلة "، لا يحدوها إلى هذا إلا قوة " الأمل " وشدة الإصرار والمثابرة المتولدين من هذا الأمل، مع عظم الثقة فى التمسك بهذا " الفهم " وضرورته وتنميته والزيادة المستمرة فيه !

موجات التجزئة !

هل توقف أحد وتأمل موجة " التجزئة " التى اكتسحت ساحة الفهم منذ القرن التاسع عشر، خاصة فى العلوم الطبيعية التى انقسمت إلى فروع والفروع إلى أقسام والأقسام إلى مباحث وهكذا، مما صار معه فهم الباحث مقصورا فقط - أو يكاد ! ـ على تخصصه المباشر الذى رصد نفسه له. لا جدال أن هذا قد أفاد فى تعميق المعرفة فى تلك العلوم، ولكنه قطع اتصالها وقطع وشائجها وأوجد علماء مبرزين فى تخصصاتهم، ولكنهم يعرفون " رقعة محدودة " جدا من المعرفة، شديدة العمق والتخصص، ولكن لا يستفيد منها المتأمل الذى يريد فهم من أين وإلى أين وهل لنا دور خاص أو عام، أو ليس لنا دور على الإطلاق شأننا شأن غيرنا من الكائنات توجد وتزول، دون أن تتغير الموازين بوجودها أو بزوالها!!

فى ديوانه العارف يقول الشاعر المفكر العملاق محمد عبد الله محمد :

مهما تفكرت لم تدرك سوى صلةٍ
ما بين فعلٍ وفعل خلفها فعلُ
لقد جلوت كثيرا هل ترى أحداً
إن الخفاء كثيف حول ما نجلو

أما جمهور الآدميين الذى يكاد عدده الآن يغطى المسكونة فلا يعنى ولا يحتاج للفهم الذى هو ثمرة التأمل، لأنه لا يعرف التأمل ولا يفتقده .. وهذا الجمهور العريض هو الذى يبنى الجماعات فعلا وواقعا، ويفرز الحكام والمحكومين، ومن أجله توجد السياسات والأنظمة والإدارات والمرافق والصناعات والتجارات والزراعات . هذا الجمهور العريض مشغول دائما بمشاغله العامة والخاصة على تعدد فروعها وصورها وأشكالها، منصرف عن التأمل بشواغله التى لا تنقطع سواء بالدولة أو الاقتصاد أو الأسرة أو العمالة أو الأصدقاء أو التعليم أو الرياضه أو اللهو أو الأحداث العالمية والمحلية، والدوران فى كل هذه الدوائر عرضى موقوت دائما ما يزول أو يتماحى أو تتباعد صوره دون أن يحفر فى صفحة الوعى والفهم شيئا باقيا !

والسؤال الذى يجب أن يسأله الإنسان العاقل هو : هل هذه الحال المتفاقمة، يمكن أن تصحح نفسها تلقائيا ؟ وكيف ؟! كيف تعود إلى الفهم - البلايين من البشر التى خمدت أرواحها بفقدان الأمل، وألفت عدم القدرة على التأمل لنشدان الفهم والتمسك به وإعطائه حقه من الرؤية والتثبت والمثابرة ؟ .. " الأمل " و " الرجاء " هما محرك وقاطرة البشرية .. بغير الأمل والرجاء يسبح الآدمى ويخبط تائها ضائعا فى هذا الكون المعجز للأفهام !

۞ ۞ ۞

على هامش
معالم التقريب

على هامش معالم التقريب

رباط الإسلام *

لا يتصور الإسلام فيما يقول أستاذنا الجليل محمد عبد الله محمد في كتابه : معالم التقريب .لا يتصور الإسلام بطبيعة الحال حرية اسمها حرية ترك الإسلام، فإن الإسلام ليس انتماء إلى حزب تنضوى تحته اليوم لتخلعه عنك غدا، أو ناديا تنضم إليه لتتركه إلى غيره، وليس برنامجا سياسيا أو اجتماعيا يلعبه الإنسان أو يرفضه متى أراد بلا معقبات فإمكان الإلغاء والرفض والخلع والانسلاخ والانضواء والترك مفروص أو مفترض أو متصور في الانتماء إلى الأحزاب أو الأندية أو البرامج، ولكن الإسلام أخوة في الله أبدية في الدنيا والآخرة، ونوع وولاء لله، وبيعة له سبحانه وتعالى .. بيعة أبدية في الدنيا والآخرة ..

الإسلام نوع حياة لها وجهها الفردى والعائلى والجماعى .. الاستمرار فيها عنصر أساسى .. إذ يتسلمها الأبناء من الآباء، ليتسلمها منهم أبناؤهم وهكذا .. فحرية البقاء فى الإسلام أو تركه كأنه فندق أو خان تدخله متى شئت وتخرج منه حيثما تشاء لتعود كيف تشاء .. هذه الحرية فى الدخول والخروج، والمناورة والمداورة، سخافة لا توجد إلا إذا كف المسلم وتوقف عن اتخاذ الإسلام دينا ملزما لأهله، لذلك فإن الارتداد عنه إذا وقع - والعياذ بالله - ليس ممارسة لحرية، وإنما سقوط وخيانة !

---

* المال ٢٠٠٩/٦/١

. الإسلام لا يحترم الرعونة ولا الحماقة، ولا يتصور أن يكون المسلم إلا عاقلا .. فلا يتصور حرية الطيش والهوى .. ونحن نخلط أحيانا بين الحرية والحماقة فى مباذلنا وملاهينا .. وأحيانا فى يأسنا وفشلنا .. ففى الأولى نتصور ـ واهمين ! ـ أن الحرية تنسى وقارها وخطورتها لتحتضن وتحمى نزعات ونزوات وأهواء المآرب والمصالح أو فراغ الرءوس أو مبتدعات اللبس والزينة والتسلية .. بينما هذه وتلك أشياء أو شطحات لا يحميها كونها من حرية الإنسان الحديث ـ بقدر ما يروج لها إقبال الناس عليها ومشاركة الكثيرين فى سخفها، وأن منعها لا يساوى المضايقة التى تتخلف عن إجراءات المنع أو القمع !

هذه النزعات أو الحماقات أو الأهواء يخدمها التهور وأحيانا الجنون، فنقدم عالمين عامدين على تصرفات نعلم أنها مخالفة للعقل . لأننا نظن ـ واهمين ! ـ أننا أحرار فى استعمال العقل وعدم استعماله، وأن هناك مواقف لا تصلح فيها الحكمة وضبط النفس أو أغراض لا تنفع فيها المبادئ، وأنه يباح لذلك أن نواجهها بخلع المبادئ لنعود إليها من بعد أو لا نعود، أو أن نواجهها بالجنون والاندفاع .. لا من باب التظاهر، وإنما من باب الاقتناع ـ ربما ! ـ بجدوى الجنون وثمار المجانين .. وحين نمر بهذه الحال الغريبة ـ نعتبر الذين يصرون على التعقل والاعتدال خصوما لنا وللحرية .. لأنهم يقاومون مداورتنا أو هوسنا الذى نريد أن تكون له الكلمة العليا، ويشيعون حوله ترددا وشكوكا !

والناس حين تخلع المبادئ أو ترفع راية الهوس وتولى هذا أو ذاك فى حياتها هذه المكانة، تغير الأسماء المألوفة لهذه النزعات وتضفى عليها أسماء أخرى ـ مضللة ! ـ ذات بريق مداراة لسوئها ! . ويساعدهم ذلك الخداع للنفس أو للغير على الاستمرار فى تلك

الحالة التى اعتنقوها، وعلى نسيان كيف دخلوها، وربما شعروا بالزهو والذكاء لوجودهم فيها .. وربما اجتذب ذلك إليهم غيرهم من الشواذ الذين يسعون أصلا وراء فرص للتعبير عن آفاتهم وهم آمنون من الخوف والعار !

والذين يختارون الهوس والجنون لا يعلمون إلى أين يؤديان بهم ولا أين يقفان .. فليس للهوس والجنون " حساب " يمكن معرفته مقدما أو ضبطه، ومتى سيطرا فلن يتخليا عن السيطرة تلقائيا عندما تدعو المصلحة .. ثم إن الناس تعتاد الحمق بالممارسة، ويتعذر عليهم أن يقلعوا عنه رغم فداحة ما يصيبهم من جرائه !!

وإقدامنا على اختيار الجنون ورفض العقل دليل نقص هائل فى حريتنا الداخلية وعجز تام عن ضبط رغباتنا، وانحراف بوصلتنا عن رباط الإسلام والأديان بعامة، وابتعاد مبعد عن الولاء لله عز وجل !

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب

متى نفقد الصدق ؟*

الناس فى تعلقهم بالصدق صنوف ودرجات، وصدقهم مهما صدق صدق نسبى لأنه بشرى .. ونحن نفقد تعلقنا بالصدق حين نكف عن اعتباره قيمة تعلو على أنفسنا ورغابنا وعلى المصلحة والمنفعة .. حين لا ندرك أن قيمة الصدق فيه وأنها لا تتوقف على نفعه لنا، أو حين تصبح المصلحة هى حد الصدق وتدخل الفوائد والمنافع فى تعريفنا له !

إننا نفقد الصدق حتما حين لا ترى ضمائرنا بأسا من الترحيب بالكذب والباطل المتوجين بأكاليل المصلحة الحاضرة والانحناء لهما ـ للكذب والباطل ! ـ وإفساح الطريق أمامهما .. حين نشعر بأن الصدق رداء ونرى أننا أحرار فى اختيار نوع الصدق وفى صنعه وفى التحكم فى مقوماته، وأن مشيئتنا وإرادتنا فوق فكرة الصدق والكذب والحق والباطل .

إننا نفقد الصدق ـ فيما يقول أستاذنا الجليل محمد عبد الله محمد ـ حين ننسى أنه لا يعيش إلا إذا كان سقفا واحدا لمشيئة البشر، وفوق نسبية أحكامهم وآرائهم .. نفقده حين ننسى أنه "أداة القياس" " النهائية " التى تقاس بها كل القيم، أو حين نغفل أنه قيمة مطلقة لا يرد عليها قيد أو استثناء إلا بإذن قيمة مطلقة أعلى منها مصدرها الله عز وجل .

---

* المال ٢٠٠٩/٦/٢

إن ميل كثير من الناس إلى الكذب على أنفسهم وعلى غيرهم ميل طاغ، يبين أن الضمائر وحدها أو ما نسميه القانون الأخلاقي والإيمان بالإنسانية ـ لا يقوى فى الغالب على صد هذا الميل إلى الكذب ورده، ويبين أن الناس ـ بشهادة حالهم ـ فى أشد الحاجة إلى سلطة فوق أنفسهم يسلمون لها بالقدرة على معرفة وكشف كذبهم، ويسلمون بأن عمل هذه القدرة لا يمكن أن يفسد بالرشوة والزلفى أو بالضغط والقسر، أو أن يضلل بالمكر والحيلة .. هذه القدرة " سلطة " فوق قدراتنا البشرية ـ خيرها وشرها ـ لا تضعف بالاعتياد، ولا تفقد نفوذها ومكانتها مع طول الاتصال والمعاملة .. هذه السلطة لايمكن قط أن تكون سلطة أرضية،لأن كل سلطة أرضية هى حتما سلطة بشر مهما أسبغنا عليها من أوصاف وتصورات فلسفية أو قانونية !

هذا وبرغم ما نراه من زحام والتصاق مادى، فإن أهل هذا العصر بُعداء غرباء، يخافون من الود والثقة .. وفى أعماقهم وحشة وعزلة وربما بُغض للروابط التى تربطهم بالآخرين بوثاقة وعمق . ذلك لأننا لم نعد نمارس التعلق بالصدق، وأنسانا الذين يهمهم أن ينسى العالم قيمة الصدق ـ أنسونا أننا وإن أمكن أن نختلف حول البينات، فإنه لا يجوز أن نختلف على الصدق ذاته والولاء له كقيمة مطلقة .

فى هذا العالم الذى لايحب التعلق بالصدق، يبدو دين الصادق الأمين غريبا يوشك أن يكون مطلبا بعيدا عن ممارسات ومداورات وحيل وأساليب الناس . وليس يمكن اعتناق الصدق إلا بالشجاعة والإخلاص، وقوامهما الإيمان بالولاء المطلق لله عزّ وجل، هذا الولاء الذى تتضاءل أمامه رغاب المنافع والمآرب والأعراض، وتعلو قيم الحق والكمال والجمال .. إلى شجرة الجمال والكمال تنتمى كل

الشمائل والسجايا ومنها سجية الصدق، وهى سجيّة مانحة، تنعكس على كل ما يصدر عن الإنسان فى عبادته ومعاملاته وعمله .. حين يغيب الصدق أو يهن، تختل بوصلة الأشياء، وتنبهم المعانى، ويتوه الناس عن الحق الذى هو قبلة كل عاقل مدرك لمعنى وقيمة الولاء لله عزّ وجل .

۞ ۞ ۞

على هامش معالم التقريب

المسلمون وتيار العصر ! *

ماذا بوسع المسلمين أن يفعلوه أو يتخذوه إزاء تيار العصر ؟! هل مطلوب منا كمسلمين كيما نمسك بديننا أن نعتزل الدنيا ونجافى العصر ؟! .. أم المطلوب المرغوب أن نشارك عن فهم وبيّنة فى التيار الرئيسى النافع للحياة فى هذا العصر .. وأن تكون مشاركتنا بوعى وشجاعة وإخلاص تام للحق عز وجل ؟

لا يُطلب من المسلم أن يخاف كما يخاف معظم الناس من ممارسة الصدق، ولا يُطلب منه أن يتغابى وأن يعرض عن الفهم العميق لأفكار العصر وعقائده وتصوراته وأذواقه والقوى المؤثرة فى أحداثه ..

ليس فى وسع المسلم أن يخلد إلى هذا الخوف والتغابى إذا كان يشعر حقيقة بمسئولية الانتماء للإسلام .. ففى هذا المعمعان يجب أن يعرف المسلمون دائما وبدقة ووضوح ـ ولاءً للإسلام ذاته ـ بماذا وكيف يتعاملون مع هذا العصر .. ماذا يقدمون أو يبيعون له، وماذا يأخذون أو يشترون منه .. متجنبين فى جميع الأحوال خداع أنفسهم أو خداع الغير لهم فى الأسس .. ذلك أن يقظتهم والتفاتهم الدائمين إلى اختلاف الأسس، معناه أنهم متيقظون ملتفتون إلى أصول وكليات الإسلام وحريصون عليها .. لأن الحلول العادلة الفاضلة المعتبرة من مقومات الحضارة الحديثة، لا يمكن ـ فيما يقول

* المال ٢٠٠٩/٦/٨

أستاذنا الجليل محمد عبدالله محمد فى معالم التقريب ـ لا يمكن أن يكون بينها وبين الإسلام تعارض أساسى .. مع الالتفات والتفطن إلى أن الأفكار الأساسية التى فى إطارها وجدت هذه الحلول ـ قد تعارض أو تتعارض مع كليات الإسلام، كما يبدو مثلا فى نظرية الحقوق عموما، وفى فلسفة الحرية والمساواة بصفة خاصة .

تختلف نظرية الحقوق التى تشغل معظم مساحة القاعدة الفكرية الاعتقادية لحياتنا، عن نظرية الحقوق أو فلسفة الحرية والمساواة فى العالم المعاصر . ومع ذلك يستطيع المسلم أن يأمن التصادم بين النظريات مادام التزم فيما يسلكه ويتخذه بما يتفق مع مجمل وكليات وتفاصيل عقيدته .. فلا تستطيع نظرية العالم المعاصر أن ترغم المسلم على اعتقاد يجافى عقيدته، أو أن يقبل ما لا يريد قبوله، أو يرفض ما لا يرى داعيا لرفضه، أو يأتى ما لا يحب أو يدع ما يحب . ولا يوجد فى نظريات العالم المعاصر ما يمكن أن يصادم المسلم فيما يراه ويفعله ويسلكه ويأتيه، أو فيما يرضيه أو يشبعه .. فأفعالنا وأعمالنا الحرة هى ترجمة عن اعتقادنا نحن فيما لنا أو ليس لنا من مطالب مشروعة أو غير مشروعة فى ذمة الدنيا وأهلها .

يقول الأستاذ الجليل محمد عبدالله محمد، إن أية نظرية للحقوق يتراءى فيها حتما ـ مهما كانت بدائية ـ اجتهاد الآدمى فى توفير قدر من الانسجام والمسايرة بين فكرته عن حقوقه، أى ما يعتبره مشروعا أو غير مشروع، وهذا الانسجام لا رقيب عليه إلا الآدمى نفسه، وهو ملك إرادته الحرة المختارة، فنظرية الحقوق تقوم دائما وفى كل صورها على عملية فصل وتمييز بين المطالب المبررة والأخرى غير المبررة، وتمييز ذلك مناطه إلى الإنسان نفسه، وعلى أساسه فإنه هو الذى يوجه سلوكه ويوزع رغباته وينفق طاقاته

العاطفية والعصبية والمادية، ونظرية الحقوق هى أيضا عند التأمل نظرية واجبات، بمعنى أن الممنوع هو الذى يحدد دائرة الجائز، ويتقدم فيها الواجب على ما عداه.. وظهور تضاريس الواجبات فى خريطة الحقوق، ووضوح الفروق والحدود بين المشروع وغير المشروع، هو بوصلة الإنسان التى تحفظ له التزام دينه وتواءمه مع نفسه ومع الآخرين .

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب !

الخطاب بالمواقف والأفعال والتصرفات *

حدثتك مرارا عن أبى الروحى، وأستاذى الجليل محمد عبدالله محمد، ومن درره التى حدثتك عنها فى مناسبات مختلفة كتابه الرائع : " معالم التقريب " بين المذاهب الإسلامية .. كان هو الكتاب الوحيد الذى أخذته مع القرآن المجيد فى رحلتى لإجراء جراحة فى القلب بالولايات المتحدة فى يوليو ١٩٩٠ .. ما رجعت إلى هذا الكتاب إلا وازداد إعجابى بما فيه من عمق ونفاذ بصيرة ..

يبدو فيما نستخلصه من معالم التقريب ـ من محمد عبد الله محمد، أننا أحوج الأمم إلى تذكير أنفسنا بأن مخاطبة الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال، أقوى كثيرا وأبعد أثرا وتأثيرا من مخاطبتهم بالكلام . الكلام بغير أفعال تصادقه وسلوك يشهد به، أشبه بالحرث فى البحر، لا صدى حقيقيا ولا طحن له . يسهل علينا الكلام لأنه لا يقتضينا عهودا ولا يلزمنا بالتزام، ومن الناس من يعشق التشدق به خطيبا أو متحدثا أو متحايلا، لا يلقى بالا لأثر كلامه الذى لم يجاوز فى مقصده إبهار السامعين ببلاغته وفصاحته !

وقد يبدو للوهلة الأولى، أن الدعوة القولية هى وحدها التى تقبل الإعداد والتخطيط والتنظيم واتباع المناهج وتعديلها حسب ظروف الزمان والمكان، وأن الدعوة عن طريق مخاطبة الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال، تستعصى على فكرة الإعداد والتخطيط

* المال ٢٠١٠/٥/٦

والتنظيم والمناهج، لأن زمام هذا النوع من الخطاب فى يد آحاد، يتوقف على سلوك كل منهم الشخصى، بيد أن هذا الظن غير صحيح، فالسلوكيات والتصرفات والأفعال تقبل بدورها الدراسة والإعداد والتنظيم، ولكنها تحتاج إلى مزيد من الصدق، ومزيد من شجاعة القلب وقوة التماسك والثبات .

ومهما سلمنا بوجودٍ قدر فى خطاب الدعوة يجرى بالمواقف والتصرفات والأفعال، إلا أن الدعوة القولية هى الطاغية، فهى أقل مشقةً وأيسر أداءً، فلا يقتضى بذل الكلام جهداً كثيرا ولا عناءً، ولا يكلف صاحبه فى الأغلب تضحية فى أطماعه أو فى أمواله، ولا يقتضيه تغييرا فى عاداته وأسلوب حياته، فى الوقت الذى يجذب إليه الأنظار، ويحقق له السمعة، ويشهد له بين الناس بالعلم والفضل .

ويبدو أن اعتقادنا المبالغ فيه فى قوة الكلام وقدرته، نابع من كوننا قد عشنا أحقابا على الأمانى، ففقدنا ثقتنا بالمحدود المعين المقدور فى التنفيذ، وفقدنا الاستعداد النفسى لبذل الجهد . والصوفية على سواء حين يفرقون بين " الرجاء " باعتباره الثقة فيما عند الله التى تحدث للعامل الناشط، وبين " الأمنية " من حيث احتمال تحقق المراد المأمول بغير اتخاذ أسبابه . ونحن بين يدى الأمنية نتخلى عن الإرادة أو ما يتصل بها من عمل ورجاء معقود بالله طى هذا العمل، ونستسلم استسلاما تاما مريحا لما ستجيء به الأيام كيفما تجيء . على أن فقدان الرجاء يعطل معظم إرادة الإنسان، فيعاف ويكره كثيرا مما يحتاج إلى جهد ومثابرة ووقت . لذلك ففقدان الرجاء معناه فقدان أهم وأشرف حافز - يحفز إرادة الآدمى ويحركها إلى العمل والمثابرة عليه وإتقانه وتجويده . وقد تحول ذلك مع الزمن إلى داء مزمن ضمرت معه

الإرادة البشرية، واستغنى الناس بالأمنية عن الرجاء، واكتفوا فى ظل الإرادة الضامرة بالانتظار، واعتادوا عليه، هاربين دائما من الرجاء الخصب إلى غرور الأمانى الجدباء !

وخلال ذلك وقع الخلط بين بساطة الإسلام وبين السهولة، فاعتقد البعض أن الإسلام بسيط بمعنى أنه سهل لا يتقاضى من المسلم جهدا ولا عزيمة ولا تضحيات، وأدى هذا ومهد ووطد لسيادة الكلام والفصاحة وحلولهما محل الأعمال والأفعال .

لا ينبغى لعاقل أن يتصور أن الإخلاص لله تعالى أمر هين لين، فكيف يتصور أن يكون الإسلام سهلا هينا ؟!

بساطة الإسلام معناها أنه قادر قدرة عجيبة على إبراز ما هو جوهرى ومفيد فى أغراضه، وعلى استبعاد كل ما يحجب الجوهر من الحواشى والتفصيلات . فبساطة الإسلام ترجع إلى أدائه لمضمونه، ومقدرته على أداء هذا المضمون أداء ناصعا ماشرا . وهذه البساطة نقيض تلك السهولة الكلامية البدائية التى تكتسح ما هو جوهرى وأساسى . فالإسلام بسيط من جهة حرصه الشديد على رؤية ما هو جوهرى وما هو مفيد فى الحياة، مرتسما بقوة على سلوك المؤمن وتصرفاته فى حياته الخاصة والعامة .

وكما حصل الخلط بين بساطة الإسلام وبين السهولة، حصل التمييز بين المتدين والمستقيم، فلم تعد البيئات الإسلامية تعتبر التدين مرادفاً للاستقامة ملازما لها لا ينفك عنها .

وقد نتج عن طول سيادة الكلام وانفصال الدعوة القولية عن خطاب الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال والسلوك ـ نتج عن ذلك أن ضعفت قدرة اللغة الإسلامية عن التوصيل، وانفصلت فى الغالب عن الواقع والحقيقة !

إن وراء ميل معظمنا إلى الاشتغال بالأغراض الضخمة والإصلاحات الكلية، وراءها فضلا عن جاذبيتها - بقية من فقدان الرجاء وضمور الإرادة والهرب من ملاقاة الواقع والتعامل معه ومعاناته . ولن يستطيع أفراد المسلمين أن يصلحوا واقعهم - مع المحافظة على حرياتهم وحقوقهم - إلا إذا لاقوا هذا الواقع بأنفسهم، وعانوه بأشخاصهم منفردين ومشتركين فى إصلاحات جزئية وأغراض معينة محددة يكون فى استطاعتهم هم التعرف عليها والقيام بتنفيذها . وهذا يأخذنا إلى قضية أخرى هى قضية اتجاه الإسلام : هل هو يتجه إلى الماضى كما ينعى عليه خصومه، أم أنه يتجه إلى الأمام نحو المستقبل متخذاً من الماضى قوة تؤيده وتسدد خطاه ؟!

والملاحظ أن الناس يقبضون على ماضيهم بعناد وإصرار وتعصب حين لا ينجح الحاضر فى اكتساب ثقتهم، وحين ينفرهم هذا الحاضر ويزعجهم، وحين يحسون أن القيم اللازمة للحياة الكريمة - غير مصونة ولا محترمة . وهذه آفة خطيرة، لأن الإنسان ابن مستقبله، وليس ابن ماضيه أو حاضره .. لكنه يتخوف من غده دائماً بالالتفات إلى الحاضر وتصوره للماضى !

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب

الــــدين والحــرية *

فى كتابه الضافى " معالم التقريب، أورد أستاذنا المفكر الجليل محمد عبدالله محمد، أنه لا شك أن البلدان الإسلامية بعامة، قد نقلت فى أحكام دساتيرها وقوانينها الوضعية ـ عن الدساتير والقوانين الأوربية، لأغراض عملية روعى فيها ظروف كل بلد وحاجته إلى الأخذ بأسباب الحضارة والمشاركة فى المجرى الرئيسى النافع للحضارة، ولكن الذى لا مراء فيه أيضا أنها لم تنتقل فيما أخذته .. عن التيارات الإلحادية التى طفت إلى الفكر الأوروبى، ولم تستأنس بما استأنست به من أحكام لكى تستغنى بها عن الدين بل ترى فى القانون المدنى المصرى الذى قام فيه الفقيه السنهورى بالدور الأكبر ـ ترى الشريعة الإسلامية مصدرا من المصادر التى تكمل ما عساه لا تغطيه النصوص، فلا وجود لفكرة مفارقة الدين فى الاستعانة بالصيغ الغربية لا فى التشريعات ولا فى بعض أساليب الحياة . ولا ضير على المسلم، أو المسيحى، فى أن يأخذ من أسباب الحضارة بما يشاء مادام لا يتعارض مع قيم ومبادئ دينه، ولقد طبقت القوانين الوضعية واستخدمناها وألفنا استخدامها لعشرات السنين مشرعين ومنفذين وقضاة ومحامين ومتقاضين ومتعاملين، دون أن تأخذ شيئا من الدين .

---

* المال ٢٠١٠/٧/١٩

إن الله تعالى هو وحدة الموحدين الحقيقية، وهو وجودهم الحى ..هو وحْدَه سبحانه وتعالى الذى شد ويشد إليه مئات الملايين من الضعفاء والفقراء، فلم ولن تبتلعهم قوى هذا العصر الخطرة الشريرة . وهذا الشعور العميق الغائر فى نفس المؤمن، هو الحبل الذى يقيه ويتماسك به، وقتل هذا الشعور هو الذى يقتل ويجافى الدين .

والحريات المدنية والسياسية والاقتصادية، وما يتبعها من حرية الرأى والفكر والاعتقاد، لا يلغى ولا يصادر الدين، ولا يخل بالتدين . فالمفهوم السياسى للحريات أنها ضمانات من صنع الناس، شرعوها وفرصوها بمجتمعاتهم لحماية أنفسهم من أى تجاوز أو تسلط أو عسف من الحكام أو غيرهم . وهذه الحريات الوضعية كلها خارجية تتغيا إبعاد أنواع من العوائق والعوارض والقيود الخارجية، ولا شأن لها بداخل الإنسان، ثم إن هذه الحريات محكومة بفكرة النظام العام لا تتعداه، والنظام العام هو محصلة القيم التى تعارف عليها المجتمع وفى مقدمتها قيم الأديان .. فليست الحريات حرباً على الدين ولا انتقاصا منه أو مصادرة له أو للتدين .

بل إن الذى يتغلغل إلى تصور الإسلام للمعنى الكلى الذى تشير إليه كلمة الحرية فى العصر الحديث، يجد أنه أكثر فهما وعمقا واعتناقا لقيمة هذا المعنى ومكانته .. ذلك أن مشكلة الحرية ليست عند التأمل مشكلة سياسية أو اقتصادية بقدر ما هى مشكلة عاطفية عقلية، فهى لا توجد إذا كنا جميعا ـ حاكمين ومحكومين ـ متفقين على الصواب والخطأ، وفى الرغبات وفهمها وضرورة الاختيار بينها وتنظيم كيفية إشباعها، ووفقا لمعيار عادل ثابت للكرامة الشخصية لا يتأثر بقوة الفرد وضعفه، أو بقدر أهميته أو مصلحته . ففكرة الكرامة متداخلة تداخلا عميقا فى ميدان المشاعر

والعواطف أكثر منها فى ميدان المعقولات والمصالح، فالحرية جذورها فى منطقة الشعور، وفى مجال القيم التى يزن بها الإنسان نفسه فى عينه وفى عيون الآخرين متشبثا بفكرة المساواة . والواقع أن المستوى الكريم للحياة تصور منتزع من عناصر مادية يحمل معنى التميز . فالحياة الكريمة بغض النظر عن الشعارات والنظريات ـ هى فى عصرنا حياة مادية مادام المال هو القيمة الاجتماعية الرئيسية التى يتركز عليها اهتمام الناس، وما دام وضع الإنسان الاقتصادي فى المجتمع هو الذى يربط بين نصيبه الفعلى من احترام نفسه واحترام المجتمع له . وإشكالية أخرى، أن صار صعبا على الإنسان العادى فى زماننا أن يشعر بالأهمية أو الإنصاف وهو منفرد وبعيد عن التكتل، فى حزب أو نقابة أو ما شابه !

إذن فالحرية التى يحتاجها العصر، ويفلتها من يده باستمرار، هى التحرير من استبداد واستعباد رغباتنا ومطامعنا التى تدعو القوى لإهمال الضعيف، والحاكم للاستقواء بسلطته على المحكوم، والطامعين للتغول بمطامعهم أو استبدادهم على البسطاء . وما من طالم إلا وأداته إنسان تستعبده هو الآخر مطامعه وشهواته، ولا يمكن لأي استبداد أو طغيان اجتماعى أو سياسى أو اقتصادى أن يوجد .. إلا إذا كان الناس قد فقدوا حريتهم الداخلية !

والشعور بالحرية الداخلية، هذا الشعور المليء بالوقار والطمأنينة، منبعه وواحته الدين . ونرى بهذا المعنى الكلى كيف أن منظومة دين كالإسلام، توفر عناصر وضوابط وروح ومعنى الحرية فالمسلم الصادق يكون حرا وهو مسجون، وحرا وهو رقيق، وحرا وهو فقير .. وهكذا رأينا بلال وسلمان الفارسى وصهيب الرومى وغيرهم، قلوبهم الملآنة بالحرية هى التى تجاوزوا بها الفقر وتحرروا

من نير العبودية وآمنوا بقلوب معمورة بحرية أعمق وأشد من حرية الكثيرين من الطلقاء والسادة والأغنياء وذوى الجاه والزعماء .

هذه الحرية الداخلية التى يطلقها الإسلام فى قلب المسلم الصادق، ليست السلبية أو البلادة أو عدم المبالاة، وليست فى الرعونة ولا الحماقة والتجبر على الناس أو العصف بحيواتهم وبالعمران، وهى بالبداهة ليست حرية ترك الدين أو الانقلاب عليه، وإنما هى أحوة فى الله، أبدية فى الدنيا والآخرة، تجمع المؤمنين بقلوب عامرة بالهداية والإيمان الذى يربط عليها بحبل متين تستقيم به الحياة بين جميع الأحياء .

❁ ❁ ❁

المال ومعالم التقريب *

في كتابه الضافي " معالم التقريب "، وقف أستاذنا العالم الفقيه المفكر الجليل محمد عبد الله محمد عند المال وأثره على الدعوات بعامة، وفيما يتعلق بمعالم التقريب بين المذاهب بخاصة .. وبدأ بإيضاح يبادر ببيانه، هو أن " التقريب " لا يعادي المال ولا يواليه . ولكن المال يلفت إليه دعوة التقريب من جهة آثاره على الأرواح، باعتباره قيمة قد تنافس الدين، وباعتباره عنصراً في الواقع، ووسيلة من الوسائل في خدمة الحاجات المادية اللازمة للدعوة الدينية، وباعتباره أداة للتعبير عن العواطف بما فيها عاطفة التدين .

فالمال قوة في المجتمع ليس لها في نظر الناس حدود، وهو قوة مركزة تستخدم في تحقيق آلاف بل ملايين الرغبات والأغراض، لذلك فقد صار الصراع على المال صراعا من أجل القوة في أصفى وأيسر صورها، فهو في مقدمة قائمة القيم فعلا وواقعا في كل الجماعات حتى الماركسية منها، وأدى إلى سيادة " الطابع المادي " الذي هو أكثر ظهورا عند السوقة والمحتاجين وأهل الفقر والكتل بعامة، نتيجة الشعور بالاحتياج والضيق وشدة التطلع إلى التخلص أو الراحة منهما، من أجل هذا تتعاظم غالبا قيمة المال ـ حتى القليل منه ـ في عين الفقير، ولذلك لم تستطع الأديان حتى في عنفوانها أن تحطم مكانة المال في قلوب الكتل الفقيرة .

---

* المال ٢١ ، ٢٢/٧ / ٢٠١٠

بيد أن هذه الكتل الفقيرة ليست هى التى تعطى المجتمعات طابعها عبر التاريخ، وإنما يستمد المجتمع طابعه دائما من الطبقات التى تعلو القاعدة، كما هى الحال فى الأبنية عموما، وهذه الطبقات هى التى يمكنها أن تقف من المال موقفا فيه شىء من الهدوء يسمح بالتأمل، وهى التى يمكن أن تفطن إلى أضرار المال وأخطاره وقدرته الشيطانية على التسرب إلى الروح وإتلاف الضمير . وفى هذه الطبقات ـ التى تعلو القاعدة ـ يمكن أن يتقابل الدين كقيمة مع المال مقابلة فيها صراع، فإذا فاز الدين انخفضت مكانة الغنى بالنسبة للفقير، وتراجع شأن المال، وقل أو اعتدل تهافت الناس على الثراء، وسهل من ثم بذل المال والتقرب به فى الصدقات وأنواع البر سرا وعلانية، ولم يعد الفقر من المال نقصا يغض من قدر الآدمى فى عين نفسه أو فى عيون الناس، ولم تعد ملكية المال تزكى ـ فى ذاتها ـ قدر صاحبها، وخف بهذا جانب مهم من جوانب الصراع على الدنيا، وتسربت روح ذلك وأنداؤه إلى الكتل الفقيرة، فيلطف من حدة ما تعانيه .

وعملية رفع الدين إلى رأس قائمة القيم، هى فى الدرجة الأولى عملية خفض لمكانة المال وسلطانه وأثره على النفوس، على أنه ليس من السهل ـ مادام الناس على ما هم عليه ـ أن يبقى الدين مدة طويلة على رأس جدول القيم فعلا وواقعا . ويبدو أن تصدر الدين قائمة القيم فى نفوس الناس لا يجىء إلا كرد فعل فى أعقاب النكبات والانتكاسات، أو فى أعقاب نوبات التكالب والسعار على الدنيا التى تجتاح المجتمعات عندما يبلغ فيها الشغف بالمادة ومتاع الدنيا حد الاقتتال، ففى أعقاب هذه وتلك تكون الظروف مهيأة للدين لأداء دوره الطيب والملطف لما يصيب المجتمعات من الأوصار !

ويجب أن يلتفت أهل التقريب وغيرهم من أهل الدعوات - فى تأثير المال - إلى دور الخامة البشرية، أى مجموعة الاستعدادات والقدرات والخصال التى لدى الإنسان، وهى قدرات تختلف باختلاف المكان والزمان والظروف، وترك وبترك آثاره الحتمية فى تاريخ الأديان وكيفية نموها، وعلى آثار صراعها مع المال والقوى المادية، وهو يحدد مع غيره من العوامل مستقبل أى دعوة دينية قديمة أو جديدة .

وهبوط الخامة البشرية شيء حدث ويحدث فى كثير من الجماعات، ويترجم عن وجوده فى صورة خلل مزمن فى عمل الأنظمة، وفى ذهول وإعراض الناس عن الاهتمام بالنجاح للأنظمة أو الغيرة على الخير العام . ولا سبيل إلى علاج هذا الهبوط حين يستشرى فى الخامة البشرية، إلا بمحاولة تغيير النفوس ودفعها إلى العودة الضرورية اللازمة لنجاح المجتمعات والأفراد .

ويبدو أنه فى هذا الصراع بين الدين والمال على نفوس الناس وأرواحهم، لم يدرس المسلمون الكسل وأثره دراسة كافية، ولم ينتبهوا إلى دوره الخطير فى تاريخهم، ولا إلى الصلة الوثيقة بينه وبين المغالاة والتطرف والجمود !!

* * *

والكسل فيما يبدو أمر نفسى وعقلى، وهو خوف وإعراض عن تصور موقف جديد يدفعنا إلى الهرب من تغيير ما هو موجود، فهو - أى الكسل - ليس مجرد كراهة وإعراض عن بذل المجهود فى ذاته .. ذلك أن الآدمى لا يكف حتى فى نومه عن بذل المجهود بصورة أو بأخرى، وحياته العضوية والنفسية سلسلة متصلة من الجهود التى لا تتوقف إلا إذا توقفت الحياة ذاتها . فالكسل فيه أمر زائد على

مجرد رفض المجهود، هذا الأمر الزائد هو رفض الجديد المقصود به إحداث تغيير فى تصوراتنا أو مواقفنا، ونحن حين نتخذ موقفا جديدا ندخل فيما يشبه المعامرة، وهى قد تكون منهكة تدعونا إلى الكف والعودة لالتزام ما ألفناه، والتوقف عن بذل الجهود النفسية والعقلية التى يقتضيها التغيير

نرى شيئا من ذلك لو تأملنا حال " الموجة المادية " التى بدأت تظهر بين المسلمين مع الفتوح فى أواخر عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فهذه الموحة المادية التى علت وامتدت بعد ذلك، كانت فى جوهرها موجة كسل عام بالمعنى المتقدم، تسربت إلى نفوس كثيرة لم تر الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم تشهد المشاهد معه لتغيير حياتهم التعيير الشامل الجاد الذى يتطلبه تطبيق الإسلام تطبيقا صحيحا كاملا . فلما أطل الرخاء وزاد، صاقوا بجسامة التغيير الواسع العميق المطلوب الذى يدعو إليه الإسلام، وتهيبوا تطبيق الإسلام الكامل (المجهد)، وغلب على أمرهم الاسترخاء النفسى والعقلى والروحى، واكتفوا بتطبيق الإسلام تطبيقا فيه مصالحة ومواءمة تتوقف عند حدود وأجزاء معينة، وتأبى التغيير الكلى الذى هو هدف الإسلام الأساسى، ولا يزال هدفه إلى قيام الساعة .

مثل هذا حدث ويحدث فى كل حركة دينية أو اجتماعية تتغيّا إحداث مثل هذا التغيير الكلى فى حياة الناس، لأنها تصطدم بعد وقت قصير أو طويل ـ بمقاومة الكسل البشرى .. هذا الكسل الذى يفسر قصر عمر العصور المثالية فى تاريخ الإنسانية !

ومن الملاحظ أن حائط الكسل يزداد كثافة كلما ازداد نفوذ الكتل والعامة، ونفوذها فى العصر الحالى جسيم، وهولا يرجع إلى الفكر والنظر الفكرى، لأن الفكر مهما تساهل لا يسلم للعوام فى

قيادة البشرية إلاّ بدور ثانوى . ويبدو أن مكانة الكتل فى زماننا إنما ترجع أساسا إلى دورهم فى الصناعة والتجارة الحديثتين، فهما تحتاجان على النطاق الواسع - إلى الكتل والعامة، كعمال أو عملاء على حد سواء . فالصناعة والتجارة هما القوتان الخفيتان اللتان تسوقان الكتل إلى مساواة الخاصة فى الرغبات والشهوات والمطالب والحقوق . ولذلك فليس عجيبا ما نشاهده من شدة الروح المادية لدى الكتل، وظهور الأنانية والغرور، وضعف الشعور بالواجب، وقلة ضبط النفس والاتزان !

ولكن، هل يمكن أن تصبح الأشياء المادية أعلى وأثمن من الآدميين فى مجتمع متحضر ؟ أجل، وللأسف - يحدث ذلك حينما نغفل أمر الآخرين ونسقطهم من تفكيرنا، وحين نبعدهم عن دائرة اهتمامنا، وحين لا نرى إلا أنفسنا وأغراضنا وما نخططه وندبره لتنفيذها أو تحقيقها .. فعندئذ يصبح الآدميون فى نظرنا مجرد عوامل مساعدة نستخدمها فى تحقيق أغراضنا !

لا بد أن يحدث هذا حينما نتصور أن الإنسان سيد مصيره بلا حدود ولا سقوف، وحين نسقط من رؤيتنا وحساباتنا - أنه توجد جهة عليا سامية لا بد أن تخضع لها مشيئتنا، ولا نرى أن هذه الجهة العليا تفرض قداسة وقيمة لكل آدمى كآدمى

لا شك أننا جميعا نريد خيراً كثيراً لذوينا وإخواننا، ولكننا نتردد ونحجم عن دفع ثمن هذا الخير الكثير الذى نريده ، لأننا لا نحب شيئا قدر حبنا لأنفسنا وأموالنا ومصالحنا، ولأننا رغم الأقوال والابتهالات لسنا واثقين تماما من وجهتنا، ويخلو معظمنا من استرابة قليلة أو كثيرة فى وعد الحق . يستوى مسار الإنسان، ويتحقق التقريب، حين يسأل كل منا نفسه : هل يثق فعلا فيما عند الله تبارك وتعالى - ثقته فى البنك الذى فيه ودائعه، أو الخزينة التى

يكنز فيها أمواله، أو فى شركة التأمين التى أمَّن لديها على حياته وماله، أو ثقته فى وعد الحاكم ورضاه ؟!

يبدو أن العقود والعهود التى نعقدها أمام الله عز وجل معظمها كلام وأحلام، لأننا نفر فى الواقع من تحمل المشاق والصعاب والتضحيات التى يقتضيها الصدق مع الله، والوفاء للإنسانية، واحترام الإنسان من حيث هو إنسان، مع أن ما نترك هذا من أجله ما هو إلا الوهم والباطل وقبض الريح !

* * *

على هامش معالم التقريب

الديـن والمـال (*)

فى كتابه الرائع : " معالم التقريب " يطرح أستاذنا الجليل محمد عبد الله محمد، الفقيه الشاعر الأديب، اتصال الدين بالمال من زاوية استخدامه والانتفاع به، فيرى أن ذلك اتصال حتمى ليس منه مفر .. إذ الدين لا تنقطع حاجته لاستخدام المال، ولذلك وغيره كانت الزكاة من أركان الإسلام، وكانت الصدقة من أوكد وسائل التقرب إلى الله سبحانه وتعالى .

والتقرب إلى الله بإنفاق المال، يجد طريقه الرئيسى فى بر الفقراء والمحتاجين والغارمين، ومن أجل هؤلاء قيل للقادرين - بنص الكتاب - " مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا " ؟ .. فالدين يحمل على عاتقه أعباء ومشاكل الفقر والفقراء والضعفاء .. فهو يجبر كسرهم، وينصر ضعفهم، ويكفكف ويتبنى حاجاتهم، ويضعها فى صدارة وأولوية وجوه إنفاق المال لله ..

وحتى حين يجاوز الدين عنفوانه، وحين يعود المال فى النفوس إلى مركز الأهمية والتصدر، ترى المال حاصرا بمشيئة أصحابه فى توجيه صدقاتهم ونذورهم وما يحبسونه من أوقاف وغيرها لعمل الخير .. وكثيرا ما يتوخى هؤلاء تخليد الذكر باستخدام المال فى إقامة ما يبقى من الآثار المادية ، وقد يوصّون فى ذات الوقت بإنفاق أموالهم أن تستهلكها أولا بأول حاجة الفقراء،

(*) المال ٢٠١٠/٨/١٢

يفضلون إنفاقها فى المساجد الفخمة، وتهيئتها بالفرش الغالى والتحف النفيسة هى وما يلحق بها من المكاتب والمدارس والسبل. فيخالط تأثير الدين فى أذهان وخيال الناس ـ فخامة البناء ومتانة العمار وروعة الفنون والصناعات الزخرفية والتشكيلية.

وقد ألفنا وألف أسلافنا ذلك من عدة قرون، فصار بذل المال للقربى من هذا الطريق ـ وسيلة للتعبير عن التدين، وأيا كان مصدر المال أو وسيلة الحصول عليه وجمعه، وصارت هذه القرب الدينية بابا لاكتساب تقدير عامة الناس وجماعة المتدينين. ومحال على أهل التقريب وغيرها من الدعوات الإسلامية ـ محال عليهم تجاهل هذا الواقع القديم عميق الجذور. ولكن عليهم محاولة تلطيفه وتخفيفه بمحاولة نقل جانب من اهتمام الناس من هذه القرب الموضوعية إلى المزيد من الاهتمام بتضاريس الناس، وإلى المزيد من رصد الأموال والقدرات لخدمتها والتقرب إلى الله برعايتها ونصرتها.

وربما كان واضحاً أنه لم يعد بالوسع رد المسلمين إلى بساطة الحياة التى كان عليها المسلمون الأوائل إبان عنفوان الدين، فالحق الذى لا يمارى فيه إلا مكابر ـ أن غالبية المسلمين لم يعودوا قادرين ـ من قرون ـ قدرة آبائهم الأوائل، على تذوق المعنويات والتنبه إليها والانفعال بها إلا فى إطار مادى حسى جذاب .. ولم يعد ذلك الأثر الذى كان للمظهر المسكين، ولا صار فيه ما يوحى بالقداسة لمعظم الناس. لذلك انصرفوا ـ كما نلاحظ ـ إلى المبالغة فى تزيين المصاحف والمساجد والمزارات والقبور وغيرها من الأماكن العزيزة عليهم أو ذات القداسة عندهم. فقد فتر شيئاً فشيئاً الاهتمام الشديد بالمعنويات وما كان يصاحبها فى البدايات من بساطة تامة وازدراء للمظاهر المادية، ثم أخذت حياة الناس تجمع بين الطابعين

الروحى والحسى، وظل هذا الجمع مقترناً بالاتزان البعيد عن المبالغة، حتى أوغل تدول التاريخ فى الانحراف نحو الحسيّات، فتقلص الطابع الروحى، وتغلب الطابع الحسّى، حتى لم يعد معظم الناس قادرين على تصور وتذوق المعنويات والروحانيات بمعزل عن هذه الإطارات الحسّية التى دخلتها الفخامة والأبهة !

إن الدين ليس وسيلة تحمى المكانة والهيبة للعالين فى الأرض، بل هو وكما أراد الله روضة سمحة لبر الفقراء والضعفاء والمحتاجين، وباحة تؤوى حيرتهم وغربتهم، وتمنع ظلمهم، وتكفكف ضعفهم وتعينهم على بلائهم !

وعصرنا على كثرة ما استحدث فيه، أطلت فيه بقوة مشكلة الفوارق الاجتماعية الضخمة، وشدة وعمق الشعور بانقسام الناس انقساماً حاداً إلى مهمّين وغير مهمّين، وما ينبنى على هذا من تقسيمات فرعية أوجدت ما يشبه الهرم الذى يتسنم قمته أفراد قلائل، منهم تتدرج الأهمية نازلة درجة درجة حتى تبلغ أرض المجتمع حيث تنعدم أهمية الأفراد كأفراد، ويشيع الإحساس بالرخص أمام قوة ومكانة المال !!

ولم تفلح النظريات والنظم الحديثة، ولم توفق إلى وسيلة تساعد الإنسان الفرد العادى على تقبل هذا الشعور المرير بالرخص وعدم الأهمية، إزاء أناس آخرين يراهم ويعرفهم، يتمتعون بالأهمية، وحياتهم ثمينة جداً بعكس حياته المسترخصة !!

والإذعان للأمر الواقع لا يمنع الناس من النظر ولا من عقد المقارنة، ولا من عدم الاقتناع وعدم الرضا الذى قد يبلغ فى بعض النفوس مبلغاً يدعو إلى الحقد والتطلع للتدمير ! وهذه النتيجة

الكئيبة تبدو حتمية ليس منها مفر حين تقاس أهمية الإنسان بمقاييس تستند إلى قيم مادية !

والله عزّ وجل لا يقبل هذا ولا يرضاه، ولا يقبل الدين أن ينقسم الناس إلى مهمّين وغير مهمّين، لأنهم جميعاً مهمّون فى عين الرب تبارك وتعالى .. مهمّون كآحاد وأرواح كل منها طائره فى عنقه .. فكل إنسان أيّاً كانت نظرة الدنيا إليه، وأيّاً كان مكانه أو مكانته، يستطيع أن يضع يده المسكينة فى يد الرب مالك الملك والملكوت، فلا يتركها عزّ وجل إلا إذا سحبها صاحبها فى ساعة شقوة . إن عين الحق سبحانه وتعالى لا تبالى بالفوارق بين القصر والكوخ، وإنما ترى الفوارق فى قلوب ساكنيها .. ولا يوجد فى القرآن المجيد إلا مصدر واحد لأهمية الإنسان فى عين نفسه وفى عيون الناس ـ هو التقوى والعمل الصالح والولاء الصادق لله عزّ وجل بلا شريك .

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب (*)

العلم والذكر، لا الكهانة

يبدو أن الانسياق وراء الطابع الحسى السائد فى هذه الدنيا، والتأثر بالفخامة والأبهة والقوة والاقتدار، قاسم مشترك بين البشر بعامة، ومع ذلك فإن الإسلام بمنظومة أحكامه، وسير الصالحين بمر الزمان، قد طبع الإعجاب بهذه النماذج فى نفوسنا، ومازلنا نسمع فى أعماقنا ـ كما يقول محمد عبدالله محمد فى معالم التقريب ـ أصوات آبائنا الأولين، ومازالت نفوسنا تؤثر نماذجهم الفريدة العالية الزاخرة بالقوة المترفعة فى فقرها، المتعالية على المال والمادة أو الزاهدة فيهما وفى السلطان المستند إليهما أو المستمد منهما . قد نصفق ونعجب بالفخم كما صفق السابقون، ونبهر بعره وأبهته، ولكن قلوبنا لا تزال تخفق كما خفقت قلوب آبائنا، وما عساها تخفق قلوب أبنائنا من بعدنا ـ إعزازا وإجلالا لرجل عظيم سامق العظمة عالى القامة والمهابة .. لم يخجل من الفقر، ولم يخشه حين ولى أمور الناس، فحمل فقره معه وحوله، سواء فى حياته الخاصة أو حياته العامة، وجابه به الدنيا بأسرها فى وقار لا صلف ولا عقدة فيه، وفى طمأنينة خالية من الادعاء، وعفة خاشعة مجردة من الاستعراض، ومجردة من الزهو بما كان له من هيبة الصدق فى العبودية لله والإخلاص والشجاعة فى الولاء له سبحانه وتعالى وللمسلمين الذين وكلوا إليه أمورهم فحمل عنهم همومهم، ولم

(*) المال ٢٠١٠/٩/٧

يبحث عن استيلاد الهيبة من الفخامة أو الأبهة اللتين أغرق وأمعن فيهما كثيرون، ولم يبح لنفسه أن يتقاضى على مهمته العظمى التى نذر لها حياته ونهاره وليله إلا النزر القليل، فى الوقت الذى أعطى فيه للناس ما ميزهم به على أهل بيته . فلم تكن حياته ولا حياة أولاده وأزواجه وذريته بأعز عنده من حيوات الناس، بل كان يعطى لهؤلاء ما لا يعطيه لأهله . سهر لتنام الرعية، وشقى لترتاح، وراعت صورته صاحب كسرى حين رآه مشتملا ببردة كاد العهد يبليها، بينما عهده بملوك الفرس أن لها سورا من الأحراس تحميها فوق الثرى، رآه تحت ظل شجرة متدثرا بهذه البردة البالية، فقال فيما نظمه حافظ إبراهيم شاعر النيل ـ قال قولة حتى أصبحت مثلا، وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها، أمنت لما أقمت العدل بينهم، فنمت نوم قرير العين هانيها.

عن الفاروق عمر بن الخطاب أحدثكم، هذا الصحابى الجليل الذى لم تغيره إمارة المسلمين وخلافة خليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام، تفه فى فمه طعم السلطة وفهم أنها واجب ومسئولية، لا صدارة ولا جاه ولا وجاهة ولا أبهة ولا ركوب على رقاب الناس . تستوقفه سيدة بسيطة وهو أمير المؤمنين، ويطول بينهما الحديث فلا يستعجلها، ولا يضيق بها صدره، فلما سأله رفقاؤه كيف أعطاها وأنصت لها كل هذا الوقت، راجعهم متعجبا كيف لا يتوقف وينصت لها وهى التى سمع الله حوارها لرسوله المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم، وأنزل فى شأنها سورة المجادلة التى يقول جل وعلا فى بدايتها : " قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ "(المجادلة ١/)، وأتمت السورة أحكام الظهار فيمن يظاهرون من نسائهم

اشتراه الناس لأنفسهم يوم بايعوه بالخلافة أو بإمارة المسلمين، وتملكوه حين ملكوه، فعاش حياته فى خدمتهم، ولم يميز نفسه ولا آله بشىء، ولم يرتكب ما يحتمى من الناس بسببه، أو يحتاط لأجله منهم، فقتله بعض الناس وهو أفضل الناس لكى يوهب من ربه فرصة الموت من أحلهم فتتم آية الله فيه .

على أن المال لم يقتصر اتصاله بالدين على بذل القُربات، أو فى استخدامه للتعبير عن التدين والعواطف الدينية، وإنما بقى للمال - مع زهد هؤلاء الزاهدين الكرام - اتصال وثيق فى شأن توفير الخدمات الدينية . ولم يكن دلك هو تكليف الإسلام فى أول عهده، فلم يُحَمِّل الجماعة الإنسانية نفقات خدمة دينية متخصصة، بل كان مُعْرضا عن ذلك، ولم يعرف ولم يقر كهانة، ورفض كل صور الوصاية على علاقة العبد بربه، ولم يجعل الكهانة وساطة بين الإنسان وبين خالقه، وإنما أحال الناس - فقط - إلى أهل الذكر فيما لا يعلمون . والملحوظ أن الإسلام منذ أول عهده قد حرص على جعل العلم هو فرض الكفاية على المسلم، وندب كل مسلم حاز قدرا كافيا من العلم بأحكام الدين للقيام بالخدمات الدينية العادية لنفسه، ولمن يحتاجون إلى معونته من أهله وعشيرته وإخوانه، بذلك صار كل مسلم حاز علما من أهل الذكر وإن لم يكن من أهل الكهانة، وصار عدد هؤلاء العلماء أضعاف عددهم فى الملل الأخرى، فكاد عددهم يتساوى مع عدد البالغين من المسلمين الذين كانوا جميعاً مجندين للدعوة والخدمة، ذلك لأن دين المسلم اتصال مباشر بلا واسطة بينه وبين الله، ولا تجوز فيه الإنابة إلا فى أحوال مستثناة للضرورة، كالحج عن المريض العاجز . ومع ذلك فإن اتساع رقعة بلاد الإسلام وعدد المسلمين، وتباين اللغات والعادات والظروف، وصوارف الحياة، أدى إلى ظهور التخصص والتفرغ فى

الخدمة الدينية، لا بدافع أو كستار للكهانة، وإنما للقيام بوظيفة أهل الذكر الذين يلجأ إليهم من لا يعلمون من دينهم ليتعلموا منهم ما يحبون معرفته .

وشيئا فشيئا نمت هذه التخصصات والفروع، وأنشئت دور العلم والفقه، وأوقفت الأوقاف للصرف عليها، وأجريت الأرزاق لطلاب العلم وللقائمين عليه، وصار للمال وظيفة ملحوظة فى توفير الخدمات الدينية .

على أن الإسلام لم يسمح قط بتفوق أو تصدر أو تسلط المال والمادية بعامة، ولا سمح بأن يطردا المثالية من الأرض، فهى قوة حيوية أقوى منهما سببا، تبقى حتى وإن ذوت ـ كامنة فى البذور، باعثة لآمال الناس، ومنها تنهمر أمطار الفضل والرحمة ـ من لدن الرحيم الكريم الجواد، فعادت هذه السنابل فنبتت ونمت وأينعت وأزهرت وأثمرت، حتى ملأت الأنفس بالنماء والرجاء .

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب

الكراهية والمحبة نقيضان لا يجتمعان *

فى كتابه الرائع : " معالم التقريب "، يشير أستاذنا الجليل محمد عبدالله محمد، المحامى الفقيه المفكر الشاعر الأديب، إلى أنه يلزم أن يلتفت أهل التقريب خاصة ـ إلى ما أطلق عليه : " مثالية الكراهية " .. فإنها على سلبيتها، مثالية سقم ومرض يشتبه أمرها بالمثاليات الصحيحة أو الصحية ـ فى بعض المظاهر والظواهر، ولكنها تختلف عنها وتعارضها، بل وتعاديها فى الجوهر .

فلماذا يلزم الالتفات إليها إذن ؟! تعرف الجواب حين تتأمل حال المرض، فالداء لا يغسل يد المبتلى به ولا أيدى المهتمين بشأنه من واجب الالتفات إليه لتحليله ودراسته وتشخيصه وعلاجه . وعلى ذات الوتيرة فإن نقطة البداية فى أمر " الكراهية " ـ هى الإقرار بأنها آفة من آفات العصور المادية، توالدت وظلت تتوالد باستمرار من تراكم المشاكل العاطفية والمادية وغلبة استعصائها على الحل، وتفشى اليأس فى نفوس الناس من إمكانية انتزاعها، ومن قدرة الأنظمة ذاتها بكل إمكانياتها على حلها، ومن ثم انقطاع رجاء غالبية الناس فى تحسين أحوالهم تبعا لذلك، واعتيادهم أمام الإحساس بالاختناق والعجز ـ على توزيع الاتهامات من بعضهم على بعض، وتوجيه المسئوليات واللعنات من بعضهم لبعض، واعتيادهم تبشيع بعضهم لبعض من جراء هذا كله !

---

* المال ٢٠١٠/٩/٢١

ومن هنا فإن " مثالية الكراهية " ـ حسب التعبير المجازى الذى اخترناه ـ واقع حاصل، لها ألوان وصور تجمعت بالتراكم مما يمكن أن نسميه " عبادة " الإنسان اليائس المهزوم الحائر، لا يرى أمامه سوى أن يتعبد بهذه العبادة إلى ذاته ومصيره، ولكنه تعبد ليس كالتعبد الذى نعرفه لرب العالمين، وإنما هو تعبد يجد طقوسه فى العداوة وما تفرزه، لا يجد اليائس القانط المحبط ـ لا يجد لها بديلا لأن المصاب أمرضه حتى فقد مقدرته على عبادة ربه عز وجل بالمحبة، لذلك تجتمع " مثاليات " الكراهية على صناعة الكراهية وإفراز الكره وتمجيده وكل ما يتصل بهذا الكره من المشاعر .. كالقسوة وعدم المبالاة وسوء الظن والغضب والخصام، واللدّد والعناد والحقد والضغن والتشفى والشماتة والالتذاذ بألم الغير وبالتدمير، وتجتمع ـ فى المقابل ـ على ازدراء الرحمة وحسن الظن والمودة والمسالمة والتفاهم والإنصاف والاعتراف بحقوق الغير واحترام الحقيقة والحق، وفى تصاعيف وتلافيف هذه الآفات المرضية ـ شغف عميق هائل بتحدى الشرائع والقوانين والأخلاق والعادات، والاستهانة بحاضر بل بحضارة البشر، بل بالفطرة البشرية نفسها، وهذه كلها لا تعيش إلا على " عداوة " وعلى " عدو " تتغذى وتتربى على عداوتها له، وتفرز وتكرس وتنمى هذه العداوة وتقويها باطراد، وتجهد نفسها فى بحث ودرس وإعداد وترتيب كيفيات وأساليب وطرائق إيذاء هذا العدو أو تدميره إن أمكن !

والغريب أن هذه " المثالية " فى الكراهية، لا تخاصم ولا تنكر بل تشارك غيرها من المثاليات الصحيحة أو الصحية، وهذا موطن خطورتها على الدعوات الدينية ومنها الدعوة الإسلامية .. ذلك أن المتعلقين بهذه " الكراهية " المتحمسين لها، يبذلون فيها ومن أجلها كل ما يستطيعون، ويقدمون ـ هذه الكراهية ! ـ على الأهل

والأصدقاء وعامة الناس، وعلى مصالح المجموع، ويصبرون فى سبيلها ـ أو على مذبحها ـ صبرا غريبا على الصعاب والشدائد، بل يسترخصون من أجلها الحياة، ولا يبالون بالموت فى عمليات انتحارية يسوغون لأنفسهم أسبابها، ويعتقدون أنهم بذلك الفداء ـ الزائف ! ـ يجذبون الأنظار إلى استبسالهم وتضحياتهم، ويحملون الناس بذلك على احترامهم واحترام دعاواهم !!

ذلك أنه قد ضعف التفات معظم الناس إلى أن البسالة يجب أن تستمد قيمتها من موضوعها وغايتها، ومع فتور أو ضعف هذا الالتفات، شاع فى نفوس الكثيرين ربط مجرد الإصرار والاستبسال ـ بالصدق والحق، مع أن الصدق والحق أبعد ما يكونان عن اندفاعات ضريرة تتسمى بالإصرار أو الشجاعة أو البسالة، وبرغم أن البسالة ليست محض مخاطرة، وإنما هى قيمة من قيم الفروسية وقوامها باقة من الشمائل والسجايا لا تستقيم مع الكراهية ولا تستقيم الكراهية معها !!

وغنى عن البيان، وهذا هو سبب لزوم لفت أنظار أهل التقريب إلى " مثالية " الكراهية ـ غنى عن البيان أن الإسلام قوامه المحبة، وأن المحبة والكراهية نقيضان لا يتفقان، ومن المحال أن يوجد بينهما اشتراك أو أى نوع من أنواع المشاركة ـ فى باحة الإسلام، أو أن يحدث بينهما ـ وهما نقيضان ـ أى التقاء . فالإسلام محبة كاملة لله وفى الله، واستسلام كامل تام شامل للمحبوب الأوحد عز وجل، ومحبة خالصة للخلق من أجل هذه المحبة لله الودود الرءوف الرحمن الرحيم .. الإسلام وفاء لله ولعباد الله، وحسن ظن بالخلق، وإيثار للمحبة والصدق والرحمة والإنصاف وصلة للرحم والجوار، أو هو إن شئت : رعاية للحقوق وأداء الأمانات ـ وسلام وسلامة ومسالمة من المسلم للناس أجمعين .

على هامش معالم التقريب *

عقل الآدمى

فى رائعته : " معالم التقريب بين المذاهب الإسلامية "، تحدث أستاذنا الجليل محمد عبد الله محمد، عن عقل الآدمى، وكيف لا يكف عن معاناة ثلاثة أمور : أولها : أمور يحد العقل ويرى أنها تناقضه وتنازعه وتعاديه، فيحكم عليها بالبطلان والفساد، ويقاومها ويحاول القضاء عليها ما استطاع . وثانيها: أمور يرى العقل أنه لم يدركها ولم يسيطر عليها بعد، رغم أنها فى نظره قابلة للفهم، ويجد أنه مشوق إلى تجربة قدراته فيها وموالاة المحاولة، وثالثها : أمور يفطن العقل إلى وجودها، ويفطن أيضا إلى أنها وراء قدراته، وغير قابلة فى نظره للإحصاء، وأنه برغم ذلك مرتبط بها بروابط أساسية يشعر بوجودها ولا يملك التعبير عنها أو عن وجودها، فيفطن إلى أن سبيله مع مثل هذه الأمور ليس الغلبة أو الخدعة أو المهارة فى الاستدلال والقياس والاستنتاج، لأنه يحس بأن هذه الأمور أوسع صلة وأكثف أستارا من قدرته التحليلية الاستنباطية، ومن ثم فلا سبيل أمامه معها سوى التحبب والتقرب والمسايرة مع التخلى عن الأنانية والخداع والرغبة فى تمييز الذات، أو بعبارة أخرى التخلى عما ينطوى تحت كلمتى " الإخلاص والولاء " .

وقد يؤدى ترقى العقل إلى تحرك هذه الأنواع الثلاثة من الأمور ـ بين الدوائر التى قدمناها، وتتغاير أحوال الاقتناع بما هو صحيح

---

* المال ٢٦ ، ٢٧ /١٠/ ٢٠١٠

أو باطل، وقد تخرج أمور من دائرة ما وراء القدرات لتنتقل إلى المتاح .. وهكذا ..

ودائما يسلم العقل بأن مسائل الدين تقع معظم ركائزها فى الدائرة المستورة عن البصيرة أو عن الحكمة والإلهام والذوق، ويبرز منها ما نسميه بالمواهب والعبقريات والنعم والمواجيد والكرامات والنفحات .

والذين يرفضون الدين باسم العقل، ينسون هذا النوع الثالث من الأمور التى لا يكف العقل عن معاناتها، وينسون أن العقل هو الذى يفطن إلى وجود هذا النوع .. وأمثال هؤلاء يحاولون حصر مسعى العقل فى النوعين الأول والثانى دون النوع الثالث . ولعل المتأمل يلاحظ أن هؤلاء، من حيث لا يشعرون، يستبعدون كل ما يمكن للعقل السيطرة عليه وإحرازه ـ من دائرة الواقع والوجود . وهم فى ذلك لا يستبعدون مسائل الدين فقط، بل كل الركائز المستورة للبصيرة والحكمة والإلهام والذوق، وكذا كل العبقريات والمواهب .. لأنها كلها آحاد فذة فى النوع الإنسانى .. مجهولة المصدر، غيبية الأساس بالنسبة لسيطرة العقل الذى لا يحرز إلا ما هو قابل للتكرار والإعادة .

ومسلك هؤلاء، لا يجعل حياتهم أو حياتنا أكثر وضوحاً، لأنه لا يقلل الأسرار التى لاحصر لها وتكتنف الحياة والكون ومصير الإنسان ومستقبله .. من وجد ومن لم يوجد بعد وسيوجد فى المستقبل . وأمثال هؤلاء الذين يرفضون أن يستعملوا من قوى العقل وملكاته ـ ما سوى الذهن، يقتضيهم مسلكهم هذا أن يعيشوا ـ وربما دون أن يتنبهوا ـ حياة فكرية وروحية منكمشة متقلصة فى حدود معارفنا المحسوسة، أو المعتقد أنها محسوسة .وهى معارف ضئيلة وقاصرة جداً بالنسبة إلى سعة الحياة والكون !

ولو تأمل هؤلاء لعرفوا أن وراء مسلكهم نقصا واضحا فى إيمان العقل بقيمته، مع أنهم يقدمونه أو يعتقدون أنهم يقدمونه .. والعقل حين يفقد إيمانه بقيمته يفقد وقاره، ويفقد مع ذلك فضيلتى الإخلاص والصبر . والعقل يفقد إيمانه ووقاره حين يستمرئ النوم والكسل والهروب من المجهود، فتطول غفلته حتى تغرقه فى الهزائم، فإذا صحا ـ لفترة ـ هاله أن ما صار حوله هو محض أتربة وخرائب وأنقاض، فيداخله اليأس، وتفارقه الجرأة والشجاعة .

ويبدو أننا نعيش، ومن أحقاب طويلة، بهذا العقل اليائس الضيق الكاره، وأنه يسير بانهزامه هذا نحو الصغار والاستصغار والهوان والاستهانة، فأمسى الإخلاص والصبر مشكلة من المشكلات المعقدة فى حياتنا الفكرية والروحية .. حتى صار العقل فى ضوئه الشاحب ينظر إلى الصبر والإخلاص نظرة لا تخلو من السخرية !!، ويرى الإخلاص والصبر من صفات النفس والخلق لا من صفات العقل ولوازمه وتوابعه الضرورية .. بل وصار البعض يتصور إمكان وجود الإخلاص والصبر حيث لا يوجد العقل، أو حيث لا يوجد العقل إلا بصورة ضعيفة ناقصة قاصرة . وكثيرا ما يقود هذا التصور الخاطئ إلى اعتياد التحلل من الإخلاص والصبر، وهكذا انقسم العقل على نفسه، وانفصل خلق معظم الناس عن عقولهم، وأمست أرواحهم غير متصلة لا بعقولهم ولا بأخلاقهم، وصارت السخرية لعة للعقل المنفصل فى ابتعاده عن الخلق وعن الروح .

* * *

ويبدو أن أخطر أنواع الازدراء والسخرية أثرا على أرواحنا وسلوكنا ـ هو فيما يبدى أستاذنا الجليل محمد عبد الله محمد ـ ما نمارسه منهما فى الخفاء فيما بيننا وبين أنفسنا، وما نتظاهر بإخفائه

وكتمانه وحجبه عن الناس، وراء أستار من التكلف والتصنع ليس لها آخر ..

ولكن هل نستطيع، أو هل من حقنا، أن نزدرى فى الخفاء، وفيما بيننا وبين أنفسنا - عباد الله؟! إن من يدعى لنفسه هذا الحق لن يعرف لقائمة من يزدريهم حدا، ومن المحال أن يعطينا الدين هذا الحق .. فهو لو أعطانا إياه - أعنى الدين - لهدم نفسه وقدم معاول هدمه ذاتيا .. ذلك أن ازدراء الناس سرا هو الخطوة الأولى التى تقود حتما إلى كل كبر وتعصب، وإلى كل رياء ونفاق وغش، وإلى كل لدد فى الخصومة وكل دسيسة وخيانة ..

هذا الازدراء لخلق الله - هو الخطوة التى تستتبع كل جبروت وظلم وبغى وطغيان، وكل افتئات ونكران وبهتان ولا مبالاة . وذلك يبعدنا بالحتم - دون أن نشعر - عن الولاء لله عز وجل، وهذا الابتعاد هو بداية طريق محوف ينحدر سالكه كل لحظة إلى المزيد من الابتعاد عن الله، وإلى المزيد من الاقتراب من الهاوية !

من المحال أن يوجد الولاء لله عز وجل بمعزل عن الإخلاص والصبر، وذلك مستحيل بدون الاعتراف الكامل الصادق المخلص بعباده، أى الاعتراف بوجودهم وجودا حقيقيا فعليا مماثلا لوجودنا تماما، وليس محض تفضل أو مِنَّة لا نقر فيها إلا بوجود شكلى مبهم لا يقتضينا عملا يترجم عنه، وإنما إقرار صادق غير قابل للمن ولا للمحو أو الحذف والتغيير .

الإقرار الصادق بوجود عباد الله، لا يستقيم بل يستحيل معه - أن نستخف بهم أو نتعالى عليهم أو نحازف بمصائرهم طمعا أو عنادا أو طيشا .. يستحيل مع هذا الإقرار الصادق أن نقدم أو نصبر أو نسكت على ظلمهم أو إرهاقهم وإعناتهم وشقائهم . فذلك

وقعنا ـ مهما وارَيناه ! ـ فى تناقض يكذب إخلاصنا وصدق ولائنا لله عز وجل .

ليس من الولاء لله عز وجل أن نستخف ناهيك بأن نزدرى عباده، وأن نعطى أنفسنا الحق ـ من واقع هذا الاستعلاء والاستخفاف ـ فى أن نتحكم فى مصائرهم وأن نحركهم على هوانا وأن ننقلهم كيف نشاء ـ من حال إلى حال، ومن جانب إلى جانب كما ننقل البهائم أو الدمى أو الحجارة أو القمامة .

قد نستطيع بالتجمل والمصانعة أن نستخفى بما نفعل، ولكن هذا الاستخفاء لا يوجد ولا يستقيم معه الولاء لله عز وجل، ولا يمكن معه أن نكون أوفياء العهد لله أو قريبين منه جل شأنه . فكيف يكون هذا القرب ونحن نمسخ عباد الله ونحولهم ـ فى نظرنا ـ إلى مخلوقات كئيبة نصب عليها المزيد من ازدرائنا لها !

هذا المسخ هو نسف وتدمير لباطن الآدمى، ينسفه فى نظر نفسه، ذلك أن أثره غائر بعيد الغور من طول التعرض لتأثير الهوان والإذلال والخوف والقسوة، أو لتأثير الإفساد والغش والكذب والزيف والتضليل والجهالة والإهمال والقذارة المادية والمعنوية . من يجبر على ذلك ويألفه يسكن إليه بحكم الاعتياد وينكمش فى داخله وإزاء ما يواجهه، ويصير هذا الشر الذى أصابه ـ يصير بالنسبة له جزءا من نظام الحياة، ينتهى أمره معه ـ شعر أم لم يشعر ـ إلى التشبث به بعناد وغباء، ويصعب عليه من ثم أن يفارقه !!

فهل هذه التعاسة ذات نفع أو جدوى لدى من دفعهم الاستعلاء والتكبر إلى ازدراء عباد الله والاستخفاف بهم ؟! لو تأملوا لأدركوا أن الناس حين تمسخ وتتحول فى نظر نفسها إلى قردة وخنازير أو ما يشبه القردة والخنازير، أو الحجارة والقمامة، فإنه من المحال أن يبقى

فى داخلهم مكان أى مكان، لولاء حقيقى لأحد، ولا إخلاص حقيقى لشىء، حتى لهؤلاء الذين ظنوا بالتكبر والاستعلاء أنهم امتلكوا مقاديرهم !!!!

ونحن حين نطوى جوانحنا على ازدراء الخلق، نطويها ـ فيما يبدى محمد عبد الله محمد ـ على يأس عميق غائر من مستقبل البشر، وعلى قنوط هائل من إمكان إقامة شىء باق ذى معنى بقاءً حقيقيا حيا يستمر فى حياتنا ومن بعدنا رغم موتنا، ويزداد مع تعاقب الأجيال نماءً واكتمالاً ورسوخا .

من التناقض البين أن نزدرى الناس إذا اعتقدنا أن لهم ويجب أن يكون لهم مستقبل أفضل من حاضرهم ! فنحن حين نزدريهم نجردهم فى أعيننا من القيمة ومن كل مستقبل وكل أمل فى الارتقاء، ونصادر ونحكم عليهم وعلى نوعهم بسوء المصير . ومن المؤسف أن هذا الضرب من الازدراء لخلق الله قد تغلغل وساد فى عصرنا لدى كل تنظيم يستهدف تحريك الناس واستخدامهم فى القضايا العامة !

إننا لا نزدرى الآخرين إلاّ بسبب مبالغتنا فى قيمة أنفسنا، ونتيجة إصرارنا على أن نكون نحن أداة القياس التى تقاس بها قيمة الآخرين، ولأننا نحصر فى أنفسنا دائرة الدين ولا نسلم بوجود محكمة أعلى منا ومن أنفسنا إليها مقاليد وأحكام الناس !

لو تأملنا لوجدنا أن دائرة من يتلقون الازدراء تزداد ودائما فى ازدياد، وأن دائرة الحائزين للاحترام فى تناقص، ومن هنا جاء التباين أو التفاوت الشديد فى أحكامنا مع غلبة السطحية والتأثر الشديد بالأهواء والمصالح، وقابليتها لإشعال نيران الانفعال والتعصب، وشيوع التوجس وإساءة الظن وعدم الثقة والتفتت . لا

يذكر محمد عبد الله محمد هذا كله فى حديثه عن معالم التقريب إعلانا لليأس من استجابة البشر، وإنما ليقول لنا : إنه على قدر ما يكون الناس من الغباء والغفلة والشر، تكون حاجتهم إلى العلاج والمعونة، وأن الشر والغباء هما الذراعان اللتان ترفعهما البشرية ـ على غير وعى منها ـ نحو السماء .. تعلن بهما فشلها فى معالجة نفسها بنفسها وتستعجل بهما استجابة وتدخل ونجدة الله عز وجل!

۞ ۞ ۞

على هامش معالم التقريب *

نظافة داخل الإنسان

وقفنا في معالم التقريب مع الأستاذ الجليل محمد عبد الله محمد ـ عند الوظيفة الخامسة الأساسية للإسلام، وهي من أهم وظائفه، هي نظافة داخل الإنسان التي تنتشله أو تخلصه من ألوان عديدة من الاستعباد . استعباد المصالح الشخصية أو الزوجة والأولاد، أو الذل للمال أو للملك، وتخلصه من الخضوع للطمع والشره، أو الرغبة في الهيمنة و السيطرة على مصالح الآخرين، كما يخلصه هذا الاغتسال ونظافة الداخل من حقارة الزيف والغش والاصطناع والكذب . أو قبول ذلك وتقبله والرضا به، كما يخلصه من ضيق الأنانية والانحصار فيها .. هذه الأنانية التي تخادع النفس فتعتبرها حقاً لها بينما هي عند الله باطل ..

هذه الوظيفة الخامسة للإسلام التي ينبه إليها محمد عبد الله محمد .. هي التي تعطينا الفرصة لنكون ـ بإخلاص ـ أرقى من مجرد أسماك شرهة نهمة تتعارك في مياه الحياة وتتنافر وتتخاطف ما تلقاه، ويأكل بعضها بعضا في خضم بحر واسع يسيطر عليه الغباء وتتخلله المآسي التي تجري فيه بلا انقطاع . هذه الوظيفة الخامسة للدين، هي التي تعطينا الفرصة الحقيقية لنجعل لحياتنا معنى فيه شيء من الكرامة التي تعوض ما يعترض الحياة من تفاهات حقيرة يقذف بها الغرور والرياء والجبن والخوف من الألم أو من المعاناة، أو

* المال ٢٠١٠/١١/١٠

من الخطر والعزلة، وهى التى تأخذ بيدنا لنجاوز حبا للسلامة وإيثارنا للعاجلة واستعدادنا للتسليم لغير الله عز وجل . هذه الوظيفة هى وحدها التى تنقذ الدين من ارتخاء تأثيره على عقول أتباعه، وهى الوظيفة التى بدأ بها الإسلام وجوده، وهى وحدها التى يمكن أن يجدد بها الإسلام وجوده فى كل عصر مهما اختلفت وتفاوتت ثقافته وحضارته .

ذلك أن الحاجة إلى الإنسان النظيف من الداخل - لا تنقطع قط، واحترام هذا الإنسان لا يتأثر بتغير الثقافات والحضارات ولا بتطور الأفكار والمعارف، ولا بالتقدم العلمى والتكنولوجى وما يوفره أو ينميه من أشياء هائلة، أو يقدمه من علماء فائقى القدرات والمهارات، فذلك كله على ما فيه من اقتدار فى حاجة ملحة على الدوام إلى ذلك الإنسان النظيف من الداخل، ولا يسعه والمجتمع بأسره إلا أن يحنى الرأس له احتراماً وتقديراً، لأنه الملاذ الحقيقى مما يمكن أن يتقاذف كل هذا الخضم الهائل من شرور وأخطار على الإنسانية كلها .

إن الإنسان النظيف من الداخل هو فيما يقول محمد عبد الله محمد - حجة الإسلام فى وجه العالم الحديث والثقافة الحديثة والحضارة الحديدة المسية عليهما . وعلى الجماعات الإسلامية أن تعنى بهذه النظافة الداخلية وأن تكثر من إنتاج هذا الإنسان إذا أرادت أن تنقذ نفسها ودينها مما يعترضهما من أخطار لا يجديها الكلام فى النجاة منها !

والدعوات الإسلامية - ومنها الدعوة إلى التقريب - تكون مغالية فى حسن الظن إذا تصورت أن فى مقدورها أن تحول المسلمين فى كل بلد إسلامى إلى التمسك بهذه الوظيفة الخامسة، بل يجب أن يكون فى حسابنا جميعا أن كتلة الناس ستظل تعبر عن تدينها

بالمحافظة " الظاهرية " " الآلية " على أداء الفرائض دون تمثل معانيها .. وإنما حسبنا أن يلتفت ويتحول إلى هذه الوظيفة - نظافة الداخل - عدد من الشباب يوفقه الله جل وعلا إلى ذلك، ويسترهم سبحانه وتعالى بعونه ومدده حتى يزدادوا ويزداد بهم الإسلام إشراقا وإمعانا فى طريقه المطرد إلى خير العالم .

هذا الشباب الذى يأمله محمد عبدالله محمد وينشده، هو الذى سيتنفس عندئذ إسلامه ويعيشه كما يجب أن يُعاش، لأنه سيأخذه من يد الله عز وجل مباشرة، ومن كتابه سبحانه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وسيكتتب فى الحياة الإسلامية بحياته ككل .. أى بتفكيره وثقافته وعلمه ومعارفه وأذواقه وعواطفه وحماساته .. تماما كما اكتتب المسلمون فى القرون الهجرية الأولى .

وبطبيعة الحال فإننا لا ننتظر أى مطابقة حقيقية بين ما سيقوله أو يكتبه أو يحاوله أبناؤنا حين يهتمون بالإسلام هذا النوع من الاهتمام الذى ننشده لهم، وبين ما قاله أو كتبه أو حاوله آباؤنا رضوان الله عليهم، أو بين ما قلناه نحن وكتبناه أو حاولناه . وإنما المأمول أن يكونوا على الجملة أفضل إسلاما منا، لأنهم سيكونون أكثر إخلاصا وفهما واندماجا فى روح الإسلام الباقى الدائم، وفى روح زمانهم، يعيشون فى الإسلام كدين حى كله حياة فى حاضر كله حى .. وليس كمجرد جزء من ماضٍ فى حاضر لم ولما يمتزج معه . هذا الشباب المنشود سيرى بفهمٍ وشجاعة - حين يمسك بوظيفة الدين الحقة - ما لا نقوى نحن على الاعتراف به حتى فيما بيننا وبين أنفسنا، من أننا توقفنا عند ظاهر تراث دون أن نغوص فى أعماقه أو نتمثل معانيه ونتذوق تذوقا حقيقيا حكمته وقيمه ومثله .. سوف يفطن هذا الشباب المأمول إلى أن قيمة التراث المجيد فى أنه خطوات جليلة خطاها المسلمون سبقوا بها زمانهم وعالمهم

نحو المزيد من الاستنارة والمعرفة والعلم .. يجد فيها المسلم الذكى المستنير المحب لدينه - ذلك الروح العظيم القابع الكامن من خلف الفكرة والغرض والنظرية والتفسير والتعليل .. هذه الروح التى تدفع المسلم إلى الله والحق، وإلى المزيد من الالتصاق بهما والإخلاص لهما .. هذا الإخلاص هو ملاذ المسلمين ليهتدوا إلى معالم خطواتهم لتحقيق المزيد ومريد المزيد الذى يتفق مع روح وجوهر الإسلام .

۞ ۞ ۞

على هامش معالم التقريب *

لب الإسلام هو اليقظة لله و فى الله

يقف محمد عبد الله محمد ملاحظاً كثرة إعلاننا عن الولاء لكتب آبائنا وعلمائنا رضوان الله عليهم، فهل ترانا نفهمها تماما كما فهمها أصحابها ؟

ذلك فيه شيء من الوهم، لأننا نقرأ تلك الكتب القديمة ـ لا محالة ـ بعقليتنا وأفهامنا نحن،ونكسو حلال ذلك ألفاظها وعباراتها بمعانى أمثال هذه الألفاظ والعبارات لدينا، أى بما يوافق أفكارنا وأذواقنا فى عصرنا .. وهذه عملية تقريبٍ تجرى لدينا دون أن نشعر بها أو نتفطن إلى أننا لا نستعمل فيها إلا مفاهيمنا نحن ومعاييرنا وتصوراتنا للقيم، بما فى ذلك معنى القداسة ذاته .

والذى لاشك فيه، أن رضاء الناس عن دينهم رضاء حقيقى لا رياء ولا نفاق ولا مداهنة فيه، فالقوانين يمكن أن تعيش وتسرى وتنفذ وتفرض بالقسر والإرغام، ولكن الأديان لا تستقر فى حنايا الإنسان إلا بالقبول والرضا والاقتناع .. فرضاء الناس عن دينهم لا يمكن أن يكون إلا بقبول وجدانى وعقلى داخلى، ومن هنا كان هذا الرضاء الحقيقى بالدين ـ من جوانب الإيمان وأمرا ضروريا لحياة الدين فى نفوس الناس .

---

* المال ٢٠١١/١/٥

والقائمون على الدعوات، يحرصون على المحافظة على استدامة رضاء الناس عن دينهم، وهى مهمة لا تخلو من الدقة والمشقة، فليس مقبولاً تحقيق هذا الرضاء بإخضاع الدين لأهواء الناس، أو بابتذاله ومسخه ليوافق ما يريدون .. وإنما السبيل يكون فى نجاح بعضنا فى أن يثبت بسلوكه وحياته الخاليين من الادعاء والتصنع والتزمت ـ أن الامتزاج بالدين ومعايشته والأنس به ـ شيء قابل للحدوث فى هذا الزمن دون ابتذال أو مسخ .. نفهم ذلك حين ندرك أن الدين حركة روح وكيان، وليس مجرد فصاحة ألفاظ بتحريك اللسان والشفتين .

ربما كان علينا من واقع ذلك، أن ندرك أننا لم ننجح حتى الآن فى تقديم الإسلام تقديما صحيحا مخلصا عميقا الى الشباب، سيما الشباب المتعلم تعليما جاداً عاليا . يفوت الدعوات أنها لا تصنف نوعيات و مستويات الخطاب، فلا تبذل اهتماما خاصا كافيا للاقتراب من أقناع الشباب المتعلم تعليماً عالياً، اكتفاء فيما يبدو بالتوجه إلى عامة الشباب .. وقد يؤدى ذلك إلى إعراض العقول الشابة القوية المزودة بزاد مهم من العلم والثقافة الحديثين ـ عن الدين .. وهو إعراض خطر .. يحرم الإسلام من العقول القادرة على تحقيق اشتراك الإسلام والمسلمين فى التيار الرئيسى لحياة العصر ..

من حق هؤلاء الشباب المتعلمين تعليما جاداً عاليا، أن يجدوا الى جانب صولة بعض المتعمدين وفصاحة بعض المتكلمين، مكانة واضحة للإخلاص والشجاعة وإنكار الذات .. فبدون ذلك يصعب أن يتركوا ما هم فيه من إعراض أو عدم مبالاة !

ومن الشائع لدى كثيرين منا، الخوف على الدين من العلوم الوضعية الحديثة، ويخشون على الشباب منها، وهو خوف أحول لم

يعد له مكان .. فلا سبيل لصرف العقول عن هذه العلوم، وبدونها لا فرصة لبلاد الإسلام والمسلمين فى اللحاق بركب حضارة العصر.

لا تعارض بين الإسلام، وبين الإخلاص التام للحقيقة، فالإسلام ذاته هو دين الحق والحقيقة، والغاية الأساسية التى يتغياها العلم الوضعى ـ هى أن يقدم للبشرية المزيد من الفهم مع المزيد من الرقى .. المعنوى فى المقام الأول .. فليس هم العلم ولا مقصوده أن يسهل للبشر استبقاء واستدامة نقائصهم والاحتفاظ بميولهم الوحشية والهمجية .. فحين يستخدم العلم وتطبيقاته فى ذلك الاتجاه المدمر، تهب حتما ـ دون أن ندرى ـ رياح الموت !

إن لب الإسلام هو اليقظة لله وفى الله .. والقرآن والسنة لا يتصوران المسلم إلا قلباً ذاكراً لا يغفل عن ذكر الله عز وجل ..

إن لغة الدين والعطر ـ لغة ذات ثلاثة أبعاد : طول وعرض وعمق .. وفى العمق ـ ذلك البعد الثالث الذى يميزها عن لغة العلم التطبيقي ولغة الحياة الجارية العادية ـ يكمن مخزونها الهائل الذى لا ينفد من المتعة والجاذبية والطرافة والاستبصار !

لا شك أن الإسلام دين ثرى ثراء ضخما، عاش بحكم هذا الثراء نيفا وأربعة عشر قرنا من التطبيق والتأثير فى جماعات واسعة مختلفة السلالات والعقليات والثقافات والأذواق والظروف، واختزن خلال ذلك خبرات هائلة يمكن أن تجعلنا أكثر وعيا وحكمة ورشادا فى اختيار ما نواجه به الحياة وما نحاول به حل مشاكلنا، متى صادف هذا المخزون دراسة واعية دقيقة تتجاوز السطحية إلى التعبير البديع عن الإيمان العميق، وتعنى بجذب الشباب المتعلم الذى يفترسه القلق .

يقول محمد عبد الله محمد إنه ليس بالضرورة أن يكون الذين كتبوا وألفوا هم أفضل آبائنا إسلاما، ولا أن يكون أفضلنا اليوم إسلاما ـ هم الذين يتصدون للتأليف والكتابة .. وليس هؤلاء ولا أولئك أكثر المسلمين معرفة بحقيقة الإسلام وأكثرهم توفيقا في السباحة في بحوره .. لأن الإسلام أولا وأخيرا حياة ومكابدة ومعاناة، وليس مجرد كلام قد ينفع الله به أحيانا، وقد يضر به الناس أنفسهم أحيانا أخرى .. إن الكتابة يمكن أن تكون خطرة على الناس حين ينعزل من يكتبون الكلام عن حياة من يعيشون الواقع .. أو حين تتجه الكتابة إلى المجردات والنظريات وتزدرى الواقع المحدود القابل للتناول الفعلى .. وحين تنحو إلى محاولة فلسفة الواقع بعموميات ومصطلحات فضفاضة تلتصق عباراتها وصيغها وشعاراتها بخيال الناس فتغطى على فطنتهم وتفسد فطرتهم !

يغيب في زماننا عن اقتراحات الإصلاح التى تهبط كالمطر من ملايين المصلحين، أن لب الإسلام هو اليقظة لله وفى الله، فتَبْعِد في التركيز على ما هو خارج الإنسان، ولا تتفطن إلى أن الصلاح والإصلاح ينبغى أن يتجه إلى داخل الإنسان !

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

الجهاد الحقيقى فى الإسلام

الولاء لله تعالى ليس محض تشدق بالكلام، أو تفاصح بالألفاظ .. يصدق تعبيرنا عن الولاء لله والإخلاص فى العبادات والمعاملات، حينما نحرص على الشرف والأمانة، وحين نقف إلى جانب الله حين يقتضينا الوقوف إلى جانبه تضحية غالية .. عندئذ فقط نكتشف أنفسنا ونكتشف أننا قادرون فعلا على الوفاء مما تشهد به ألسنتنا فى كل صلاة .. ونكتشف كذلك أننا كسرنا السور الكثيف غير المنظور الذى يحسنا فى قيود وحدود حياتنا المألوفة المتذلة السطحية بشواغلها الصغيرة وأنانيتها الكفيفة الشرهة ! وأننا قد ارتفعنا وارتفعت قيمتنا بالاتصال بحياة أرقى وأعمق وأكثر امتلاءً بالرضا والفهم .

عند هذه المعانى يبدأ محمد عبد الله محمد رحلته فى البحث عن الجهاد الحقيقى . بداية هذا الطريق هى الامتلاء بالرضا والفهم لمعنى الولاء لله .. حين يصبح هذا الشعور الثمين قوت أرواحنا وصفقة البيعة الحقيقية التى عقدناها مع الله عز وجل . لا نفرط فيها لحظة من أجل مال أو سمعة أو جاه أو مكانة أو منزلة يمنحها إيانا ذلك العالم الرخيص الذى كسرنا أسواره بهذا الولاء الحقيقى لله . هذا هو بعض المعنى الكلى الكامن خلف فكرة الجهاد فى الإسلام .

---

* المال ٢٠١١/١/٦

يرى محمد عبد الله محمد أن هذا المعنى لا ينقضى ولا يبطل قط، لأن قضية الله عز وجل، والولاء له، قائمة أبدا تدعو أبناء الأرض إلى راية السماء دعوة باقية إلى آخر الدهر، وفرص الجهاد مفتوحة دائما لكل قلب يوفقه الله تعالى إلى الوقوف إلى جانبه وقبول التضحية من أجله عز وجل .

صور هذه المواقف والتضحيات التى تناسبها ـ لا حد لها، وهى متغيرة بتغير الظروف والأزمنة، بيد أن معنى الوقوف إلى جانب الله والولاء له بالتضحية الغالية ـ هو معنى ثابت باق .. وهو الذى يملى علينا المواقف المناسبة الواجبة .. ويختار لنا التضحية التى علينا أن نقدمها . فلسنا مقيدين بالسيف للمجاهدة فى مواقف لا ينفع فيها السيف، وإنما ينفعها التضحية بالمطامع والأمجاد ونبذ الاعتزاز العنصرى أو الطائفى، وتنفعها التضحية بالمصالح الشخصية، وترك الأحقاد والشعارات التى تنشب فى بعض النفوس ويهون فى شفائها الموت نفسه !

إن الجهاد ليس فرصة لشفاء وإشباع وتمجيد ميول الآدمى العدوانية أو التمير بسببها، وإنما الجهاد يكون فى الولاء لله تعالى وحده بعيدا عن جاهلية عبادة الذات والعشيرة والقوة المادية وحب التغلب وعشق العدوان وسفك الدماء وقهر الرجال والقسوة على الضعفاء وازدراء الرحمة والمحبة والرفق والاعتدال .. هذه فعلا هى الجاهلية، البعيدة كل البعد عن الجهاد الذى هو ولاء لله وفى الله ..

قد يمر على المسلم وقت يكون فيه جاهلاً يفتقد بعض العلم والمعرفة، ولكن يستحيل أن يكون فى أية لحظة مسلما وجاهليا فى وقت واحد .. فالإسلام نقيض الجاهلية، وهدايته كانت ولا تزال لإخراج الإنسان من هذه الجاهلية المتحوصلة فى عبادة الذات والعشيرة والقوة المادية، الساقطة فى حب التغلب وعشق العدوان

والاعتزاز بسفك الدماء وقهر الرجال والقسوة على الضعفاء وازدراء الرحمة والمحبة والاعتدال والرفق .

الجاهلية حياة جافة غليظة متغطرسة كثيفة خالية من الولاء لله عز وجل، منصرفة إلى تأليه قوة البطش واحترام مشاعر العدوان .

الجهاد فى الإسلام لا يحمل أى شبهة من معانى هذه الجاهلية .. بل أساسه الانتماء لله تعالى والولاء له .. وفهم المسلم لمعنى الجهاد، لا يتم إلا إذا صاحبه الشعور القوى بكرامة الانتماء إلى الله عز وجل .. وهذا الشعور عنصر جوهرى ثمين فى الإسلام ..والعزة كلها لله صاحبها ومصدرها، والعزة لرسوله الذى اهتدى وهدى الناس للاعتزاز بالانتماء إلى الله، والعزة للمؤمنين المعتزين بالله ورسول الله .. هذا شعور هائل بالنبل والشرف يضع المسلم فى الإطار الذهبى الذى تلمع داخله فضائل الإسلام .

هذا الشعور بالنبل الذى يشعر به المسلم السوى، أبعد الأشياء عن الغرور الصلف والغطرسة والاستعلاء على الخلق وتجاهل الكون وازدراء الوجود .. إنه رفض تام لهوان الروح والعقل، ومقاومة كاملة شاملة للتعفن الداخلى .. هو المسار الطبيعى الذى لا يوجد مسار آخر سواه، لولاء العقل والروح لله بإخلاص وشجاعة ولإصرارهما على هذا الولاء وشعورهما الدائم بهذا الولاء . هذا الشعور بالفعل ـ فيما يقول محمد عبد الله محمد ـ هو ممارسة ومعايشة الإحساس العميق بالله فى حياة المسلم كلها، أو هو التعلق الشغوف بهذا الإحساس العميق بالله فى الحياة كلها . إنه هو هذا الولاء التام الفعال للمولى عز وجل ..يهتف باستمرار بصوت يزداد ارتفاعاً فى وجدان المسلم بأن الدين هو عند الله الإسلام، وليدفع وجدانه هذا بعيداً عن الكبر والأنانية والانتصار للذات والبغى والظلم والشر .. وليجمعه ويقربه من توابع الولاء لله عز وجل، ويدفع فى حناياه

الرحمـة والتواضـع والشجاعـة والنصفـة والحـق والخـير .. حيـث لا تعصب ولا سرف، وحيث لا يتصور التعصب والسرف، لأن الـنفس وقد أحبت لله جل شأنه، وامتلأت بالولاء له سبحانه، ارتقـت فـى مدارج السالكين إلى معراجه تبارك وتعالى، حيث ترتفع النفوس إلى أجمل وأنقى مراقيها .

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

الحياء والحكمة

الشعور بالنبل الذى يملأ صفحة وجدان المسلم السوى، شعور حاصر لا ينقطع .. لا يفارقه قط النفور من السخف واللغو، ومن الاستهتار وعدم المبالاة .. وهو نفور فطرى إلهى يشعر به العقل حين يمتلئ بقيمته وبإخلاصه للحق عز وجل . هذا النفور من السخف واللغو، هو الحياء أو هو لب الحياء .. هو الذى يصد العاقل الحى عن أن يصدر منه ما يعيب .. أو فيه شئ من عدم الرشد أو عدم الإخلاص .. أو يعبر عن ابتذال ـ مقصودًا كان أو غير مقصود ـ لنور العقل ونزاهته ..أو ينطوى على غفلة من حضور الله تعالى ونظامه فينا وفى الكون كله .. هذا النفور الفطرى ـ الإلهى ـ نعمة من الله عز وجل .. تختلف فيه حظوظ الأفراد وتتفاوت أنصبتهم فيها . ومن المستحيل أن يُحْرم من هذا النفور من طوىً قلبه على تدين حقيقى .

وهذا ينقلنا ـ فيما يرى محمد عبد الله محمد ـ إلى ميدان فسيح لا يزال العلم الوضعى يهمله حتى الآن، ألا وهو ميدان " الحكمة " . وهى تلك اليقظة إلى العناية بالأمور الأساسية فى حياة الإنسان والتى تقع ـ نظرًا لثباتها ـ خارج مجال اختلاف الأذواق والمشارب والأفكار والآراء .. تلك اليقظة الهادئة التى يعطينا إياها الوعى والالتفات إلى قيمة الإنسان ومسئوليته، وحرصه على التعاون بفهم

* العقل ٢٠١١/١/١١

وإحساس مع الحياة والأحياء .. فالحياة معنى جليل يجاوز فرديتنا، موجود قبلنا وباق بعد مماتنا ..

فى ميدان الحكّمة ملتقى رحب يتلاقى فيه الإحساس والحدس والبرهان، ويمتزج العقل والقلب، وتتعايش القيم والأخلاق والمبادئ والمعارف والقضايا والحلول والسلوك والفكر، ويسترد الإنسان وحدة وجدانه التى تتعرض للتفتت والتشتت والانفصام والانشطار فيما يصادفه من الاعتراك والتصارع !

ومع أن زماننا غاص بالمعتقدات والمصدقات، إلاَّ أن هذه وتلك ليست صورًا وكيفيات للتعلق بالحكمة والتفطن إلى قيمتها .. بل هى فى الغالب صور لابتعاده عن الحكمة ورفضه إياها .. تغذى فى الآدمى دون أن يشعر ـ مصادر المجاجة والاندفاع والحول، وتوقف النمو العقلى والعاطفى، بل وقد تدعوه إلى الغض من قيمة هذا النمو والاستهانة به، وربما السخرية منه !

ليس من حقنا كمسلمين، ولا هو من الفطنة، أن نرفض زماننا وأن ندير ظهورنا للحضارة الحالية .. وليس فى ذلك انقياد أعمى يساوى الطالح بالصالح من مفرزات هذه الحضارة .. فلا مراء أن فيها النافع وأن لها مضارًا .. وأن واجبنا يقتضينا أن نفهم بإنصاف، وبغير جمود وتعصب، مواضع النور ومواضع الظلمة فى هذه الحضارة .. وأن نأخذ بما يفيدنا ويتوافق معنا، وننبذ ما عداه .. دون أن نغفل عما فى هذه الحضارة من ميل هائل نحو العناد والإصرار، يزداد وضوحًا بين الكتل والجماهير، وهذا هو مكمن الخطر الذى يتهدد مصير الإنسان، ما لم يميز بالحكمة ويستبصر طريقه متخليا عن العناد لنواميس الوجود أو نقض قوانين العقل !

من المهم أن نفطن إلى أن التشويش بدوامات الدعايات التى تملأ الدنيا، يساهم فى خداعنا لأنفسنا وخداع بعضنا بعضا، ويساعد هذا الميل إلى العناد الملازم للحضارة الغربية التى تؤدى دعاياتها المفرطة، إلى اختلاط الغرور بالكرامة، والاندفاع بالانطلاق، والإغراق العاطفى بالتطور، وتصنيف الحكمة والروية فى باب الجمود والاستسلام ومعاداة التقدم .

ولن تكسب الدعوات الإسلامية شيئا من الدخول فى تلك الدوامة المدمرة، التى تغذى الشعور بالعنف، وتصب المزيد من اللهب على الاندفاع، وتوقظ الخلافات القديمة والحديثة لزيادة الحول والفجاجة العاطفية والعقلية . فهذا التلبيس الكثيف، يجرى فى خط مضاد ومعارض للخط الرئيسى للدين، وهو لا يتورع عن إساءة استخدام مصطلحات الدين وتوظيفها لما يريد، حين يحرفها عن مواضعها فيصف العناد بالإيمان، والإصرار الصرير بالإلهام !!

ينبغى الالتفات إلى أن هذا كله، مهما أظلم واستشرى، لا يمكن أن يعدم نهائيا شوق الإنسان للنمو والنضج، ولا أن يميت حنينه إلى الحكمة .

إن أى آدمى، متى تحقق له الهدوء ووجد من يثق فيه ويأتمنه، قمين أن يسمع هتاف هذه الأشواق فى أعماقه، وقمين أن يلبيها ويستجيب لها . مشكلة النفوس فى زماننا وفى كل زمن - هى دائما مشكلة ثقة وأمانة وتنمية الثقة والأمانة . على دعوات التقريب بين المذاهب، وبين الأديان إن شئت، أن تواجه هذه المشكلة مباشرة وبلا مواربة، وأن توقن معها أنها ستكسب حتما إذا أبعدت نفسها بوضوح وصراحة عن ذلك التلبيس وتلك الدوامة، ووقفت بوضوح إلى جانب الحكمة وإعلاء كلمتها، ودعت الجميع والشباب خصوصا إلى أهمية التعلق بها والحرص عليها .. وتزداد فرصة

تحقيق ذلك حين تقترن الدعوات بنماذج إسلامية حية موجودة بالفعل تحقق فيها ولديها النضج العقلى والعاطفى، واجتمع لديها الصبر والروية والاعتدال وضبط النفس والإخلاص لما تعتقد أنه الحق والخير، ولا شىء سواهما، وأعلنت عن هذا الإخلاص بسلوك ناضج مخلص يعبر تعبيرًا صادقا عن قول القرآن المجيد : " وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا " (البقرة ٢٦٩) صدق الله العظيم .

٭ ٭ ٭

على هامش معالم التقريب *

الوحدة والمساواة

لا تكتفى الدعوة إلى التقريب، التى حمل مشعلها محمد عبد الله محمد مع باقة من أفضل العلماء إخلاصاً وعلماً .. لا تكتفى باتخاذ " الوحدة " بين المسلمين شعارا، بل تسعى جهدها فى إبراز التفاصيل والمعالم التى تجسمها وتجمع الناس حولها بفهم يجعلها رجاءً حيًا قريبًا يقتضى من كل مسلم أن يكتتب فى تحقيقه وإنجاحه .

ينبغى الالتفات إلى أن الإسلام ككل ـ وليس كفرق ومذاهب ـ يقابل ويواجه مبادئ كلية قوية التأثير والانتشار، لا يمكنه أن يدير لها ظهره أو أن يغفل عن أن التقريب بين المذاهب هو حركة الجذب القادرة على جذب التفات المسلمين وجمعهم على هدف الاعتزاز بالإسلام ككل والدفاع عنه ككل ..

ينبه محمد عبد الله محمد إلى أن مواضع هذه المقابلة والمواجهة، هى من هذه الزاوية معالم طريق التقريب . اتصل بهذه المواجهة ما سبق ذكره عن نظرية الحقوق والحريات، وما يتعلق بالمال، وبالعلم والتعلم .. باعتبارها من الأسس التى لا يمكن لدعوة التقريب أن تتجاهلها .

وتمثل المساواة ركنا أساسيا من هذه الأركان، ينطلق السعى إليها دون تجاهل واقع اختلاف البشر فى المواهب والملكات والاستعدادات والقدرات، وهو اختلاف يزداد كلما اختلفت الظروف وامتدّ الزمن

---

* المال ١٢، ١٣، ١٩، ٢٠١١/١/٢٠

وتكاثر الناس . ومن مخاطر ذلك أن يختلط بالميل إلى " الاستعلاء " الشعور بالتفوق والرغبة فى الإعلان عنه !

ينتج عن هذا الميل - لا محالة ! - قلّة تعتبر نفسها من " الخاصة " أو " النخبة " أو " الصفوة " أو " العقلاء " أو " القادة " .. وما إلى ذلك من مظاهر التمير التى تتذرع بها هذه القلة أو الصفوة، وتستعلى على الكثرة الكاثرة التى تصف - من باب الاستعلاء - فى عناوين " العوام " أو " الدهماء " أو " الجهلاء " وما إلى ذلك من نعوت تسبغ على هذه الكثرة !

وتطبيق هذا التقسيم يداخله - فضلا عن الاستعلاء - كثير من الغرور والوهم والادعاء والتساند من جانب القلة أو الصفوة، وغير قليل من الخوف والتخاذل والإنضغاط والتسليم من الجانب الآخر ! . وهذا التقسيم لا يخلو أحيانا كثيرة من تحكم أو افتراض فوارق، قد لا تعبر عن فروق حقيقية فى المواهب أو الاستعدادات أو القدرات !

وطبيعى أن تنتظر هذه القلة - انقياد الكثرة وإذعانها - بحكم هذه الفوارق المفترضة - إلى ما تراه وتقدره وتنحو إليه هذه القلة أو الصفوة أو النخبة !

وبسبب افتراض البلادة فى الكثرة، لا تنقطع شكوى القلة من أن الكتل والعوام تشكل عبر التاريخ قشرة سميكة تشبه قشرة الأرض، تتناثر عليها وتتلوث وتتسرب فى جلامدها وأوحالها ورمالها وتتحطم كل المذاهب والمبادئ والقوانين والأنظمة والأفكار العالية وكل ما أنتجته العقول الفذة لهذه الصفوة !!

وفى ظل هذا الاستعلاء، واتهام الكثرة الكاثرة أن فيها عوامل التحلل والفناء ومياديس الإهاجة - تزعم الصفوة المحتكرة للعقل والنضج، أنها الوحيدة القادرة على تعاطى المجهود العقلى وإنتاج ما يلزم للتقدم الفكرى والترقى الروحى، وتتصور باستعلائها أن من

مسئوليتها تصحيح عمل الخالق جل وعلا !! وأن لوازم هذا التصحيح لحلقة هذه الكثرة الغبية الخاملة ـ أن تتسنم ظهرها، وتفعل من خلال ذلك ما تشاء !

ومع أن أحداً لا يمكن أن يمارى فى أن مجال الكثرة الضعيفة ـ تربة تُعزى إليها كثير من المشاكل التى تواجه الإنسانية، إلا أن التصدى لها ومحاولة استنباط الحلول لمعالجتها ـ كان ولا يزال ـ ينطلق ويتم فى وسط مشوب بالاستعلاء الذى يمارسه القادة والحكام والمشرعون والمفكرون والفلاسفة والعلماء .

على أن ملاحظات أمثال هؤلاء على ظروف وأحوال كتلة أغلبية الناس، تأتى من على البعد البعيد، من مسافات زمانية أو مكانية أو طرفيه لا يمكن معها استخلاص كنه ما يصادف العامة أو تصور ما يناسب حل مشاكلها وما تعانيه !

إن ما تراه الصفوة حسناً، لا يشترط بالضرورة أن يكون كذلك بالنسبة للكثرة الكاثرة .. وما تصفه هذه الصفوة من حلول، أو تخططه من خطوط ـ لا يمكن بحكم اختلاف الظروف أن يبقى على ذات قوامه أو استقامته الأولى عندما يدخل فى محيط الكتل الذى تتجاذبه قوى هائلة لا يحيط بعلمها إلا الله عز وجل .

إن المبادئ والتنظيمات البشرية لا تتفاضل إلا بمدى نجاحها مؤقتاً ـ فى اجتذاب الكتل زمناً ما، ولكنها تعود فتتعرض للالتواء والإجداب والانتكاس .. ويكشف ذلك عن وجود أفراد قليلين متميزين مهمين يركبون أكتاف كثيرين غير مهمين، متساندين إلى نظام لم يعد ينتظم شيئاً، وإلى مبدأ لم يعد يصدقه أحد .. لا يرى الناس إلا ما يتحدر فيهم من استعلاء مقيت يسمم النفوس ويطرد منها الإخلاص والوفاء والقدرة على التساند والتكافل والمشاركة !!

في قلب قضية الاستعلاء التي أثارها محمد عبدالله محمد، تقع مشكلة احتياج المجتمعات البشرية إلى العظمة والأبهة في سياستها وضبطها .. وحين يقول القائلون إن اصطناع العظمة والأبهة لا غنى عنه لحكم الناس، وهو ما تذرع به معاوية بن أبي سفيان للتخلص من نظرات عمر بن الخطاب اللائمة، يقابله بالحتم والضرورة إشاعة الخوف والخنوع في المحكومين وتشجيع الملق والصغار بينهم، وإفشاء الوهم والخداع في أفكارهم . ثم شيئا فشيئا تصير هذه الآفات ضرورة لا غنى عنها لحكمهم أو التحكم فيهم !

نعم . إن وجود أقلية مهيبة لا تنقطع الحاجة إليه، إلاّ أنه لا يخفى أن اصطناع العظمة والأبهة يؤدي إلى تسلط الماديات والأشياء المادية على عقول الناس ونفوسهم . وهذه الآفات لا تتفشى إلا في جماعة تعتقد أو تصدق أن " الأشياء " أكثر وأهم قيمة من " الإنسان " أو " الناس " .

إن أطر الأبهة والعظمة، تحيط المتحلي بهما بجو قاهر، يعطل أو يحجب المشابهة والمماثلة الطبيعية بينه وبين بقية خلق الله تعالى .. ومن ثم لا يعود قادرا وقد دار رأسه بمظاهر العظمة التي يلتصق بها - لا يعود قادرا أن يرى نفسه واحداً من الناس، يمكن أن يسري عليه ما يسري عليهم، وربما لا يعود قادرا على إدراك أن سنن الكون والوجود تسري عليه كما تسري على كل مخلوق ! يرى في عين نفسه أنه يكبر ويتضخم باستمرار، وأن الآخرين يضمرون ويصغرون في عين أنفسهم وفي عين نفسه .. يغذي ذلك وينميه ويرسخه اعتياده وهو على التفرد والتميز واعتياد الآخرين على التسليم والتزلف والإغناء والاسترضاء !!

فكيف إذن يحدث التقارب أو التقريب ؟! إن اطار العظمة يخاطب أولاً غريزتي الطمع والخوف، ويتعامل ابتداء وانتهاء مع

النوازع الأنانية، وعلى أطراف هذه وتلك تتغذى عوامل النفور لا التقارب!

إن القرآن المجيد يرفض كل صور الاستعلاء فى علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وفى علاقة الحاكمين بالمحكومين، والأغنياء بالفقراء.. كما يرفض أن تكون السلطة مسا أو فرصة للعلو والركوب على رقاب الناس، ويرفض أن تكون العظمة أو الأبهة إطارا يتحاكم إليه الناس، أو درجا يتسلقون به أو ينتظرون منه مغانم لذلك سواء فى الدنيا أو فى الآخرة .. وفى القرآن الحكيم :

" تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ " (القصص /٨٣)، .. وفى القرآن أيضا : " وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ " (الزمر /٦٠) . " سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ " (الأعراف /١٤٦) . " فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ " (الأحقاف /٢٠)

إن تقارب الله تعالى يبدأ وينتهى من "لا إله إلا الله" .. ومتى وجد هذا الولاء الحقيقى لله تعالى فى قلب المسلم السوى ـ ابتعد يقينا عن مظاهر العظمة والأبهة، وتجنبه حاكما كان أو محكوما، وعافت نفسه وكرهت أوهام وتهاويل هذه المظاهر، مدركة أنها لا تنتفع ولا يمكن أن تنتفع بشىء من ذلك الباطل الذى لا يرى فى عماه أن حقيقة الله تعالى حاضرة قاهرة فوق عباده

قد أمرنا النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن نعلو مع الله فى بلاده وعباده، وأوصانا أن نحثو التراب فى وجه المداحين .. الذين

هم مروجو العظمة الباطلة وأعوان الظالمين والطغاة ومسوغو عبادة الأصنام البشرية !!

لا يقر القرآن المجيد والسنة المطهرة، من صور الحكم، إلاَّ الصورة الرشيدة التى تلغى كل المسافات وأنواع البعد والغربة والانفصال بين الناس وبين حكامهم.. لا يرتضى من الحكام إلا التعرى من كل أغطية الأبهة وستائر العظمة والاستعلاء، مراعيا فى ذلك أن ألا تحتجب بشريتهم وعبوديتهم لله عز وجل، وألا يخدع الناس عن حقيقتهم .. وأن يكونوا صورة مثلى يتجرد فيها الحكم من كل الامتيازات المادية، وكل ما يجعله مطمعا أو مغنما للراغبين فى التملك والعلو فى الأرض والركوب على رقاب الناس !

ظل الإسلام فى فترة الخلافة الراشدة، حريصا على إبعاد كل مظاهر الاستعلاء والتعاظم ـ عن صور الحكم والحكام والولاة .. يدرك جلال ومثالية هذه الصورة الراشدة ـ من يقارنها بما يراه الناس ويحسونه الآن فى نظم الحكم التى أغرقت ـ رغم اختلافها ـ فى اتخاذ الأسماء والأوضاع والأغراض فى البلاد المختلفة، وفى الإغراق فى مظاهر وتهاويل الأبهة والعظمة على قدر المتاح فى كل بلد، مما أوجد ويوجد انفصالا حادا بين الحكام والمحكومين من ناحية، وبين الأغنياء والأكابر والأقوياء والأحياء ـ وبين بقية الناس من ناحية أخرى !!

يتساءل محمد عبد الله محمد، وهو يبحث فى التأثير السلبى للاستعلاء ـ على التقريب الواجب بين المسلمين ـ يتساءل أو دعنا نقول : ينبه إلى ملمح هام للإسلام، تجلى فى أنه فى عنفوان العقيدة أيام النبوّة والخلفاء الراشدين الأربعة رضوان الله عليهم، قد استبعد كلية إطار العظمة فى الحكم، ولم يتصور النبى عليه السلام ولا المسلمون فى عهده، ولا الخلفاء الأربعة ولا من كان فى عهدهم بالمدينة ومكة ـ لم يتصوروا أن يكون للخليفة قصر يحكم منه

الناس، ولا حاشية تحف به أو حرس يحوطه ويحميه، ولم يتصوروا أن ينعموا بأطايب الطعام أو يرفلوا فى الغالى من الثياب ..ولم يتصور أحد من الصحابة والتابعين والعامة، أن عليه أن ينحنى إجلالا وتعظيما للخليفة حين يلقاه، أو ينكسروا أو يطروا ويمتدحوا أو يتملقوا . ولم يدر بخلد أحد منهم أن يخاطبوا النبى أو أحدًا من الخلفاء الأربعة بشىء من ألقاب العظمة أو الفخامة أو التبجيل أو السيادة !

وبرغم رفض الاستعلاء فى الحكم بشتى صوره وأشكاله ومعانيه، فإن ما باشره النبى عليه السلام والخلفاء الأربعة من شئون الحكم على الرعية لم يكن ضئيلا ولا ضيقا، بل ساسوا أمور الدين والدنيا فى سلاسة بعيدة عن الاستعلاء، ونجحوا فى إقامة إمبراطورية واسعة الأطراف !

يبدو للمتأمل أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الأربعة من بعده، قد جردوا حكم الناس ـ تجريدًا تامًا ـ عن فكرة الملكية ومن فكرة الانتفاع .. والمسئولية التى كانت فى يد كل منهم، هى مسئولية ومشقة بلا عوض ولا مقابل ولا أطماع ولا مزايا .. ولأن الحكم كان على هذا المعنى، فإنه برئ، فى ذلك الزمان من أى محاولة للوثوب على السلطة أو غصبها، ولا احتاجت الدولة لاصطناع الموالين أو البطش بالمعادين . بل إن عمر بن الخطاب أوقف إبان خلافته سهم المؤلفة قلوبهم .

وهذا النوع من الحكم الذى سبق به الإسلام نظم الحكم فى أوروبا التى لم تفارق فكرة الملكية إلا بعد الثورة الفرنسية ـ هذا النوع الفريد من الحكم فى الإسلام، بلا عوض ولا مقابل، اللهم إلا الكفاف، حسب الحاكم الاشتغال بالمحافظة على سلطانه بين المحكومين .. فلم يصيع أحد منهم فى ذلك مالا أو يسفك دماء للمحافظة على حكمه !

وهذه التجربة فى الحكم، التى امتدت نحو ثلاثين عامًا استغنت فيها كلية عن إطار العظمة والشوكة، هى قطعة ثمينة جدًا فى تاج الإسلام .. وإذا كانت هذه الصورة الرفيعة للحكم قد تعرضت لانتكاسة بعد خلافة الإمام علىّ كرم الله وجهه، إلا أن ذلك لم يكن كرهًا فى تلك الصورة، وإنما للعجز إثر استشهاد الإمام عن استنقاذها بسبب الخلافات والمنازعات والفتن التى قطعت أسباب التعاون والتساند فيما بين المسلمين، ودفعت بفكرة حماية السلطة إلى الساحة التى آلت إلى الذين نازعوا الإمام فى خلافته، فانشغلوا بالسلطة وتكريسها ووقايتها .. ولعل هذا هو الذى أسلس إلى نوع من اليأس جعل غالبية المسلمين ينصرفون حتى اليوم عن الاهتمام بشئون الحكم فى بلادهم !

ومن المؤسف أنه على أنقاص هذه التجربة الفذة، أو القطعة الثمينة فى تاج الإسلام ـ قامت أو نشأت فكرة الخليفة الملك، بما استتبعها من وراثة الملك التى امتدت طوال اثنى عشر قرنا عبر الدولة الأموية ثم العباسية وما تفرع عن كل منها وما تلاهما .

وعبر هذه القرون التى سادت فيها فكرة الخليفة الملك، وانتهت عملا بانتهاء الدولة العثمانية فى العشرينيات من القرن الماضى، صاحب الملك انتفاع الخليفة بالدين واستخدامه فى توثيق ولاء المسلمين لشخصه وملكه ودولته، وهيمنة الملك ـ استنادًا إلى ذلك ـ على توزيع المناصب الكبرى فى الدين والدنيا .. واتخذ الإسلام تبعًا لذلك جنسية كلية أو وطنية عامة انتهت إلى الإقرار للملك الخليفة بملكه وخلافته معًا، وحملت الإسلام بغير حق طغيان وظلم وحماقة الطغاة والظلمة والحمقى من ملوك الأمويين والعباسيين والفاطميين والعثمانيين وغيرهم .. كما حملت الإسلام بغير حق مسئولية تجذر الاستبداد وشيوعه تلك القرون الطويلة !!

ويخطىء من يعزو هذه التجربة الإسلامية العظيمة التى كانت فى زمن النبوة والراشدين، إلى مجرد قرب عهد المسلمين بالبداوة وما يرتبط بها من البساطة والقرب من الطبيعة، ذلك أن البداوة تعرف الاستعلاء وتحبه وتعشق العظمة وتتيه بها .. وعبرت عنها أشعار شعرائها ..

كذلك من الخطأ رد نفور الإسلام من العظمة والأبهة واستنكارهما - إلى فكرة الزهد . ذلك لأن من يتأمل موقف الإسلام يرى بوضوح أنه يرفض العظمة لأنها شىء غير مفيد وضار لمن يرجو العيش فى سلام وكرامة وصدق مع النفس والغير .

نفور الإسلام من الاستعلاء والعظمة، مرده إلى تعلقه الشديد بالصدق .. وهو تعلق يعبر عن جوهر الإسلام فى تعامل المسلم مع ربه .. معاملة فيما كبر أو صغر، وفيما جل أو حقر .. هذا التعامل مع الله حاضر فى الفرائض وفى العبادات وفى المعاملات .. وهو تعامل لا يتحقق إلا إذا كان أساسه الصدق الصرف مع الله تعالى، ومن المحال أن يحل محله " مظهر " الصدق أو صورته أو اصطناعه أو المراءاة به .. لأن كل هذه الصور والمظاهر التى يمكن أن تحيل على الناس، لا قيمة لها عند الله تبارك وتعالى الذى يعلم السر وما يخفى .. والمسلم السوى لا يستطيع أن يرى عظيمًا غير الله تعالى، ولا أن يبصر عظمة غير عظمة الله تعالى، فإليه سبحانه وحده تتطامن وتعنو الوجوه والنفوس وتخشع للحىّ القيوم .

لذلك فاستغناء الإسلام عن حكم الناس فى إطار العظمة، اقترن باستغنائه عن تقديس أو تأليه السلطة .. وارتبط فى جوهره بفكرة المساواة التى ترفض التعاظم والاستعلاء، وتربط بين الناس بشعور فكرى كامن فيهم، وهو الجسر الحىّ للتقريب، ومنبع الشعور بالكرامة التى تعطى للمسلم حقه فى ألا يتكبر عليه أحد، وأن يعيش فى مجتمع عماده الهداية والرشاد والحكمة والمساواة .

* * *

لم يتجاهل الإسلام الفوارق الموجودة بين الناس، ولا افترض عدم وجودها . وإنما عمد القرآن والسنة إلى تغيير نظرة الناس إلى هذه الفروق ومعناها ودلالتها وقيمتها، وإلى مكافحة العادات الجاهلية الظالمة ومنعها من أن تستبد بتأويل وفرض تأويلها لهذه الفروق .

هذه المعالجة الباطنية النفسية اتخذت طريق التلقين : تلقين المسلمين أولا أن الملكات والمزايا والتراث والقيم ـ كلها نعم مصدرها الوحيد هو الله عز وجل، وأن بقاءها وزوالها مرتبط برضائه سبحانه ومشيئته .. وأن كل المخلوقات رهن بهذه المشيئة، وأن من تعاظم على ربوبيته قصم ظهره إذ العظمة لله وحده لا يفكر فى مشاركته فيها إلا مشرك ؟

والتلقين الثانى الذى عمد إليه القرآن والسنة، هو تلقين المسلمين أن المبالغة والتطرف والإفراط فى الطلب ـ ليس من الإسلام . وأن الله تبارك وتعالى لا يحب الانفراد والاستئثار والاحتكار والبخل، ويمقت الاستطالة على الناس بالمال أو بالسلطة أو بالأهل، وأنه سبحانه وتعالى يحب السماحة والسخاوة والرفق، وأن المهم لنجاح الحياة هو البركة لا الكثرة

والثالثة التى عنى بها الإسلام، هى تلقين المسلمين أنهم إخوة به .. وأن لهذه الأخوة تبعاتها أمام الله بتساندهم في السر والعلن، فلا يجوع منهم أحد ولا يعطش ولا يتعرى ولا يُظلم ولا يُروع ولا يُضام بينما إخوته آمنون يأكلون ويشربون ويلبسون وينعمون .. وأنه عز وجل لا يقبل ممن أسلموا وجوههم إليه أن يتباغضوا ويتنافروا، وإنما يحب لهم أن يتحابوا ويتساندوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .. ولا يقبل الذى يحب أن يحتاز لنفسه كل شىء .. وأن يمتلك ويتميز ويتسيد ويرتفع وحده . فهذا الانعزال والانحياز للذات يعطل تيار الإسلام، ويبث الأنانية والتباغض

والتباعد والغربة والفرقة بين المسلمين الذين يحب الله تعالى لهم أن يتآخوا وأن يتقاربوا .

أما الرابعة التى يلقنها الإسلام لأهله، فهى ألا يخافوا الفقر ولا ينبغى أن تفزع قلوبهم منه .. فخوف الفقر من الشرك الخفى لأنه ضعف فى الإيمان بالله وضعف فى الثقة بوعده .. وكذلك يلقنهم الإسلام ألا ينفروا من الفقراء أو يتجنبوهم أو يتعالوا عليهم أو يستخفوا بهم أو يستكثروا نعمة الله على ضعيف أو فقير، أو أن يكرهوا وصول نور الله وفضله ورحمته إليهم .

والإسلام يلقن أهله خامسا ـ إدراك قيمة الناس والاعتراف بأهميتهم واحترام خصوصياتهم وحرماتهم، وتحاشى كسر خواطرهم بالاستطالة والصولة والتعالى عليهم وقلة المبالاة بهم .

ويلقنهم الإسلام كذلك، أن الفروق التى تستوقف أنظار الناس عرض زائل لا يمس حقيقة الإنسان

لذلك رفض الإسلام كل فكرة مبنية على الفروق الطبيعية كاللون أو العرق، أو على الفروق المكتسبة كالنسب والمكانة والمال.. فهذه كلها حوائل تباعد بين المسلمين وتحول دون تقاربهم والتقريب بينهم .. وتصد شعورهم بأنهم جميعا عبيد الله وحده وملكه سبحانه وحده، وتحول دون امتزاجهم وتعاطفهم وتعرقل تدفق تيار الأخوة فى الله عز وجل .

إن عبادة الفوارق هى التى تهدد قيمة وفائدة وعمل الحياة الإسلامية وتهدد معنى تساوى المسلمين فى نعمتها كل بقدر ما فى قلبه . والإسلام لا يقر ما يسمى بالطبقات أو أى تقسيمات للناس على أساس المال أو العرق أو الأنصبة من الدنيا .. فالطبقية مهما كانت صورها تشكل عوازل تعرقل المعنى الجامع الذى يطوى

يجمع كل أفراد الجماعة وينسيهم ما بينهم من فروق ويذكرهم بما بينهم من أخوة وتعاطف ومودة ورحمة .

ومعرفة الدرجات غير إقرار الطبقية والطبقات .. فالدرجات تابعة لمسئوليات الناس فى الحياة العامة والخاصة، ولا تضمن لأحد حيازة السند الدينى أو السلطان الدنيوى، ولا تقر له إلا ما يبذله الوفاء بواجبه واتباع الحق فيه، وإلا كان غير جدير بدرجته مغتصبا لها !

والإسلام يسلم بالفروق فى الأرزاق، وبحرية السعى فى طلب الرزق، والاجتهاد فيه، ويمنع المصادرة عليه .. لأن الله وحده هو الرزاق، ومتى فهم المسلم ذلك، فارقه القلق واستعجال النتائج والوقوع فى براثن الهموم والمخاوف، وامتلأ ثقة فى وعد الحق سبحانه وتعالى واطمئنانا إلى رعايته وعطائه ورحمته .

ليس من الميسور فهم المساواة منفصلة عن الأخوة والإخاء . فالمساواة وعدم المساواة شعور قبل كل شىء .. هذا الشعور ليس سببه الأشياء، وإنما سببه الإنسان ذاته . ولذلك فدعائم المساواة لا تقوم منفصلة عن الإنسان وعواطفه الخالصة الصادقة .. ولا معنى ولا أمل لمحاولات التقريب المعتمدة على القوة والإلزام، ولا لمحاولات فرض توحيد الدخول والأرزاق وتسويتها بالقسر والإرغام .

لا تسمح تعاليم الإسلام بوجود الإحساس الطبقى الحاد المرير الذى يجعل الناس فى صراع وحروب ظاهرة أو خفيه، معلنة أو غير معلنة . وسبيل الإسلام فى المعتركات التى تملأ دنيا الناس وتشعلهم وتشعل الحروب بينهم، هو أن يكتسب إلى صفه أرواح البشر .. كبشر لا كملائكة .. فإذا اكتسب أرواح الناس صار بمقدوره بواسطة الناس أنفسهم أن يقود الغرائز والأطماع والمصالح.. هذه الطريقة التى تكسب أرواح البشر قد تركها معظم الناس فى أوروبا منذ أواخر القرن الثامن عشر، وانصرفوا عنها إلى محاولة

كسب العقول فقط، والاستغناء بضمير الإنسان عن الإيمان بالقانون الأخلاقى، وعن الله عز وجل !

على أن الاقتصار على كسب العقول فقط أو الاهتمام بكسبها، لم يُجد فى منع الحروب والفتن والشرور الكثيرة التى شقى ويشقى بها العالم الحديث .. فالناس لا يألمون ولا يأتلفون لا يسكنون ولا يقبلون ولا يسالمون ـ استجابة فقط لحكم عقولهم، وإنما أيضا بوجيب عواطفهم ومشاعرهم وما ألفوه. وهذا الجانب الفعال الرئيسى فى كيان الإنسان، لم يعد يلاقى فى التعليم ما تلقاه العقول والآداب والعلوم والفنون، وصار أغلب زاده مستمدا من المجالس الخاصة والمحافل والاجتماعات وما قد تبدله بعض الصحف والمجلات والإداعات والمطبوعات، بيد أن هذه الوسائل معنية فى المقام الأول بنجاح حملاتها وتحقيق أغراضها فى تحريك نوازع الناس ودوافعهم فى الإتجاهات المرسومة لهم ! ومن ثم لا تعنى بتربية النفوس ولا بمساعدة الناس على النمو والنصح وصحة الحكم، لذلك اتسم عصرنا بقوة التحزب وسعة التعصب الحزبى، بينما لا يتطابق المتعصب الحزبى مع الإنسان الصادق .

وهذه الحال لا يتصورها الإسلام ولا يقبلها، لأن المسلم الصادق الممتاز هو الإنسان الصادق الممتاز طبقا لموازين الإنسانية التى يتبناها الإسلام .

تحقيق المساواة بين الناس مصدره فى الإسلام صدق الولاء لله عز وجل، والثقة فى الله عز وجل، الذى إليه يتوجه المسلم السوى، ويسند إليه ظهره، ويدرك ما بينه وبين الناس من إخاء وأخوة فى الإنسانية فى كنف الله عز وجل .

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

المساواة و عمـــار الحياة

ليس مرد التطامن والمساواة فى الإسلام، فيما يلاحظ محمد عبد
محمـد، أن الإســلام يزهـد فــى الحيــاة علــى هــذه الأرض
يزدريها، فكيف يحتقر الإسلام الحياة وهى مرتقى المسلم
رصته الثمينة لتنمية عقله وروحه، والاكتتاب برصيده فى الحياة
حرة .

إن الامتحان الحقيقى للإنسان هو هنا . على هذه الأرض ..
دار الآخرة لا تكليف ولا اختيار فيها، لأنها خير محض، لا مجال
ا لتقارع بين الخير والشر، ولا لتوزع الإنسان أو موازناته للبحث
حياراته أى طريق يسير فيه !!

فى هذه الأرض يصنع الإنسان موازينه، ويربى كفته، ويحدد
سيره فى الحياة الآخرة .. لذلك فالإسلام لا يحتقر ومحال أن يحتقر
ياة، ويخطئ من يظن أن الإسلام يعطى ظهره للحياة أو يحتقرها،
لى وأهم غاياته هى عمارة الحياة .. وهذه " العمارة " هى حصاد
يبذله الإنسان فى دنياه من السعى والجهد والاجتهاد .. ولا
غى للمسلم أن يهرب من الحياة، ففى ذلك تعطيل لسنن الله، بل
يه أن يعيشها بحماس ـ فى ظل الله، وأن يتمسك فى سعيه
صورة الإسلامية التى تعلى القيم والمبادئ وتحوط بها الحياة

---

* المال ٢٠١١/٢/١٦

وتثريها، وتحفز المسلم على الاستمساك بها، وعلى متابعة النور الذي يهديه إليه دينه ..

المسلم السوى الفاهم لا يحار أبداً مادا يصنع بحياته وبواجبها .. ولا يعانى ما يعانيه الأشقياء المحصورون فى جمع المال والسلطة، ولا الواقعون فى هذه العدمية أو العبثية .. فهو يعرف لحياته معنى وغاية . ويتعامل مع هذه الحياة بعمق وجد وإخلاص واجتهاد .

أما التسليم لله، فهو إيمان وليس انهراما .. ولذلك فإن التسليم يَبْطُل ويفقد معناه فى نظر الإسلام إذا انطوى على تسليم لغير الله عز وجل ... فمخافة الله، وهى فرع على الإيمان الخالص به، تزول إذا طوى المسلم جوانحه على خوف من مخلوق .. الخائف من المخلوق لا أمان ولا لإيمان له، والمؤمن الحق لايعرف الجبن والاستكانة، والذى يخاف الموت يموت فى كل لحظة !!

لقد أعطت بعض العادات والاعتقادات مفاهيم مغلوطة ألصقت خطأً بالإسلام، وهى ليست من الإسلام .. فالولاء والتبعية والرضوخ والتقرب للأقوياء والباطشين من الفانين الهالكين، ليست من الإسلام، وإنما هي ضعف ووهن فى العقيدة .. كثيرا ما تفرض أحكاما وأعرافا مبناها التساهل والإغضاء .. وهو ما لا يرضاه الإسلام ولا يقره ..

يجب أن يتنبه المسلمون إلى الاختلاف الأساسى بين " المساواة " فى نظر الإسلام، وبين معناها فى زماننا .. المساواة فى الإسلام معنى روحى ونفسى، له آثار سلوكية وخارجية تعبر عن تحسس الناس من داخلهم، أما " المساواة " فى زماننا، فهى معنى سياسى واجتماعى يتجسد للناس كمشاركات انتفاعية ومزايا وحقوق وإصلاحات عامة خارجية فى محيطهم .. ولأن الإصلاحات والمزايا

عامة التى مصدرها الحكم، تُعزى ويروج لها على أنها أيادٍ وأمجادٍ لحكم أو لحزب أو لنظام، فإنه يخالطها فى كل عصر ويداخلها قدر ن الدعاية يقل أو يكثر ... وهذا التداخل بين الإصلاحات وبين دعاية، صار يستوقف النظر فى زماننا، ويدعو للتأمل . فقد صارت لإصلاحات ضربا من المزايا المادية التى ترضى رغبات أو أطماع أو رور الجماهير، وكلها وجوه للزهو واللهو والإثارة .. صارت المساواة عنى الآن المساواة فى الخدمات العامة والمرافق العامة مع بسطها إلى وسع مدى، وغاب المعنى الروحى الإنسانى للمساواة فى خضم ذه الصوالح والمنافع المادية، ولم يعد للمساواة معناها الأول، وجار لك على المساواة فى حق الحرية وحق المشاركة وغيرها من الحقوق لترتبة على هذا المعنى الأصيل للمساواة الذى أفل وابتعد وغاب !

لا يمكن للإنسان أن يعيش منعزلا عن الناس، ولكن لا يدرى حد منذ متى بدأ الآدمى يتعالى ويزهو بأنه مخدوم يخدمه غيره .. ذلك شىء قديم يقال إن له نظيرا عند أنواع أخرى من الحيوان لحظها من يراقبون عالم الحيوان .. ومع ذلك يلاحظ أن الإنسان سوى فيه أنفة طبيعية تجعله يعاف الاحتياج إلى معونة الآخرين ى خاصة شأنه، ويبدو أن نقيض ذلك، سيما لدى الطفل، معزو إلى تلذذ والزهو بإذعان وخضوع الغير لمشيئته .. بيد أن المسلم السوى ستغنى بنفسه ـ عندما يتبع هدى نبيه ـ فى خدمة نفسه ببساطة لا ضجة ولا استعراض .. وتراه بلا زهو، وأيا كان دخله قليلا أو ائضا، يسهم فى مساعدة غيره، ويقيم معهم فعلا ـ وببساطة وبلا ضجة أو استعراض ـ أواصر قائمة على المساواة، حين يرد الفائض ن وقته وطاقته ودخله على محتاجين أو مستحقين .. يقدمه إليهم يأخذونه منه بنفس طيبة مع المحبة والأخوة فى الإسلام .

يزداد فهمنا لفكرة المساواة فى الإسلام، فيما يبدى محمد عبد الله محمد، إذا تصورنا الفارق بين " التميز " و بين " قصد التميز " واتجاه الرغبة إليه .. فالتميز واقع يقع عند توافر أسبابه وظروفه، ويستحيل منع وقوعه فى حياة البشر، أما " قصد التميز " فقد يكون رغبة فى ترقية الذات وتكميلها للانتقال بها من حال إلى أحسن وأفضل وأكمل .. وهذا لا بأس به، بل مطلوب ما دام يتخذ أسبابه الموضوعية بلا تكبر ولا استعلاء، لذلك يخرج " قصد التميز " عن هذا الإطار المقبول إذا كان ترفعا وهربا من الشعور بالتساوى وإغراقا فى المغالاة فى الشغف بإبراز التفوق والتميز والتعالى على الآخرين .. فهذه الرغبة تسلس إلى بلاء وتعطل الإحساس بالعبودية لله تعالى وحده، المستغنية عن تأليه الذات ومدائح الناس .. هذه العبودية هى من معالم التقريب، لأنها دعامة شعور المسلم بمساواته لإخوانه ومساواة الناس بعضهم لبعض .. وبحرية أصيلة متجهة إلى الله عز وجل .

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

الطريق إلى المساواة

من الحقائق التى يلتفت إليها التقريب، أنه كلما زاد شعور الإنسان بحريته وبقيمتها ـ زاد شعوره بالارتباط بما اختاره، وشعوره أيضا بالتبعية والمسئولية، والعكس صحيح .فإذا خفت أو ضؤل أو انحط شعور الإنسان بقيمة حريته ـ تضاءل وتقلص شعوره بالتبعة والمسئولية .

والمسلم قد اختار الله ورسوله، وكلما زاد شعوره بهذا الاختيار ـ زاد بالله تعالى وبرسوله عليه السلام ارتباطا . وكل حياة المسلم السوى تتساند وتتعاون بكل عناصرها وتفاصيلها على تقوية هذا الشعور بالارتباط ودعمه وتوكيده .. فلا يكف ذكر وتذكر المسلم لربه عز وجل .. ولا يكف عن تلبية أصداء هذا التذكر فى عمله وسلوكه وتعاملاته .. وهذا التذكر الدائم لهذا الرباط ولقيمة حرية المسلم ومسئوليته وأهميته .. هو شيء أساسى لفهم وتطبيق فكرة المساواة كما هى موجودة فى القرآن المجيد والسنة النبوية .

وهذا الشعور الصادق، هو الذى يبعد صاحبه عن التعلق والتهافت والتكالب على كل مظاهر وصور وأشكال الشهرة والصيت والإعجاب والمراتب والألقاب وما إلى ذلك من مظاهر التميز والاستعلاء .. وبالتالى يبعد روح المؤمن عن الآثار والنتائج المترتبة على هذه الفروق بين الآدميين، ويبقى ضمير الإنسان وروحه

---

* المال ٢٠١١/٢/١٧

وعقله من التهافت على مثل هذه الأشياء، ويحمى من ثم باطنه وسريرته من الفساد وتخريب روحه وحريته .

واختيارنا لله عز وجل، لا يبقى اختياراً من طرف واحد، وإنما يلاقى ترحيبا وتشجيعا وتوفيقا من الله جل شأنه .. وهذا الشعور هو الذى يسكن نفوسنا ويجنبنا القلق الذى يشوش على شعورنا بالحرية والوحدة، ويغرقنا فى الصوارف وفى الغفلة والنسيان والهروب وعدم المبالاة !

إن المسلمين يتلقون ـ كل حسب حاله ـ مدداً خاصا من الله تبارك وتعالى، يحسه المنعم عليه فى نفسه فيضاً من النعمة أو الفضل أو البركة أو التوفيق أو اللطف أو الستر أو العناية . وحين يختفى فى فؤاد أحد ما شعوره بهذا الارتباط الشخصى بمولاه عز وجل، يكون قد غلب على أمره وضل طريقه حين غلبه هواه، ولا نجاة له إلا بالتوبة وتجديد بيعته والعودة إلى رحاب ربه ولطفه وعنايته ورحمته .

يلفتنا محمد عبد الله محمد إلى أن المسلم المكلف لا يواجه الله عز وجل بإرادة ذاتيه مستعلية تعارض أوامره سبحانه ونواهيه .. فالإرادة التى لا تتقيد بذلك إرادة ضالة مرفوضة .. والإسلام حريص على ألا يكون للمسلم ظاهر يخالف باطنه، أو إرادة خاصة مخبوءة يحتفظ بها لنفسه وأخرى يواجه بها الله تعالى والآخرين . يهتم الإسلام بألا يعيش المسلم بإرادة مزدوجة يتسرب بازدواجها فى روحه وضميره ـ النفاق والجبن والرياء .. ومراد الإسلام كسر هذا الازدواج الخطر والانفصال بين قلب الإنسان بين سلوكه الخارجى الذى قد تفرضه ظروف غير قائمة على الحق والولاء له .. وتؤدى من ثم إلى السقوط فى التفاهة وما لا يسيغه أو يقبله الإسلام .

يعود بنا محمد عبد الله محمد - بعد ذلك - إلى الحديث في مسألة الفروق بين البشر وانقسام الناس إلى قلة وكثرة، وإلى ظاهرة استعلاء البشر بعضهم على بعض، واصطناع العظمة والأبهة بعضهم على بعض .. فيلاحظ أن دين الله يدين أولا وفي الدرجة الأولى الأقوياء الذين منهم وفيهم دائما أصحاب النفوذ والسلطة والغنى والمكانة، وفي يدهم تصريف وترتيب أمور الضعفاء أو المحكومين وتوجيه حياتهم العامة والخاصة .. وكذلك نجد أن عناية الإسلام البالغة في التعليم والتأديب والتهذيب والمراقبة ... إلخ - موجهة أولا وفي الدرجة الأولى إلى أولئك الأقوياء باعتبارهم الكبار أصحاب النفوذ والكلمة المسموعة .

والقرآن المجيد يخاطب ويجادل ويفحم ويلحم في الدرجة الأولى، أولئك الكبار والأقوياء .. وإليهم يسوق وعيده وتنديده ..وإليهم في الدرجة الأولى - يتوجه إعجاز القرآن الحكيم، وعليهم انسابت ألفاظه وآياته المعجزة .

لم ولن يتغير القرآن بما حمله وسوف يبقى حاملا إياه إلى آخر الزمان، ولكن الناس هم الذين تغيروا ويتغيرون .. فبعد أن كان القرآن في عنفوان الدين مدرسة صارمة لتعليم الأقوياء .. يلتزمون حدودهم صدوعا لما أمر به، ابتعد هؤلاء بعد زمن الرسالة والراشدين - عما جاء به القرآن المجيد، وعطلوا دوره في رعاية الضعفاء بضبط حياة الأقوياء وسلوكهم وتصرفاتهم .. ولم يعد هؤلاء الأقوياء يتعاطون منه إلا بلاغته دون هدايته .

ومع تعطل الاستجابة لتعاليم المدرسة الصارمة التي أقامها القرآن المجيد لتعليم وتقويم وتوجيه الكبار والأقوياء، تعطل عمل السدود التي أقامها القرآن والسنة في وجه عدم المبالاة .

والمتأمل منا يجد أننا وآباءنا من قبلنا إلى أجيال عديدة، نقف من الـدين مواقـف مختلفـة، منهـا مواقـف الأقويـاء والمترفـين الـذين لا يجاوزون البحث والنظر كميدان للرياضة والنشاط الذهنى والفنـى - إلى"المبالاة " الواجبة بالإنسان الذى سيسألهم الله تعالى عـن مـوقفهم منه وما قدموه له . ومنها مواقف الخائفين من مسائل الـدين الـذين يتجنبون الاقتراب منها حتى لا تورطهم فى التبعات والمسئوليات . ومنها موقف الذين يشعرون أن حياتهم فى حاجة شديدة إلى الإيمان والإسلام، ويجدّون بكـل قـواهم فـى الـسعى لإشـباع هـذه الحاجـة إشباعاً حقيقيا .. وهؤلاء هم معقد الرجاء وأمل دعوة التقريب.

أهم ما يجب الالتفات إليه، أن تفشى " عـدم المبـالاة " بـالروابط الإنسانية مرجعـه فـى الواقـع والحقيقـة إلى بنيـة الحـضارة الحديثـة الحالية التى ساد فيها منطق التجريد حتى فى الألعاب، وتقوم على إخضاع الإنتاج بالمعنى الواسع لهذه الكلمـة للعقـل وحـده، أو مـا يسمونه بعقلانية الإنتاج، وهى مطق صارم لا يقيم وزنا ولا يبـالى بالروابط الإنسـانية، ويتجاهل الإنسـان ويحولـه إلى شـيء وينظـر إليـه نظرته إلى الأشياء، ومن أخطر ما فى عملية التـشيىء - دفـع النـاس إلى الازدحام المادى، وضعف شعور الإنسان العادى بقيمته بل بذاته، وتعـوده علـى قبـول الإحـساس بالـضآلة .. ضـآلة إرادتـه وعواطفـه وقيمته، فتسترضى عنايته بما معه من الأخلاق والـدين، ومـن أسـف فإنه صاحب هذا الاختزال الـشديد - تقلـص مـستمر فـى الـشعور بالواجب والمسئولية، وتراجع وهبوط قيمة هذا الـشعور فـى جـدول القيم التى يهتم بها إنسان هذا العصر "

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

العدالة والمساواة

مما لا مراء فيه، أن الحياة العصرية اختزلت واجبات الإنسان ـ بما هو إنسان ـ اختزالاً شديداً .. ومن الطبيعي أن يصاحب هذا الاختزال بالضرورة ـ تقلص في الشعور بالواجب والمسئولية، وهبوط قيمة هذا الشعور في جدول القيم التي صار يهتم بها إنسان العصر .

وهنا يتوقف محمد عبد الله محمد ليلاحظ أنه لم يعوض هذا الانكماش في الضمير والروح، ومن ثم سطحية في العواطف والإحساس ـ لم يعوضه زيادة الواجبات العامة والالتزامات الضريبية والإدارية والوطنية المفروضة على الأفراد تجاه الدولة . وقد يقال إن هذا شيء لا بد منه لاستمتاع إنسان العصر بمزايا ما يقذف به الإنتاج الكبير من سلع وخدمات وما يوفره من رخاء مادى هائل تدمه العلم الحديث والتكنولوجيا المبنية عليه . ولكن التحدى المقابل يثير سؤالا بالغ الأهمية، هو كيف يمكن للإنسان أن يحتفظ بهذه المزايا إذا كان منطقها يستتبع باستمرار انكماش ضميره وروحه وتقلص شعوره بالواجب والمسئولية ؟!

إن اختزال الواجبات على هذا النحو، من أجل هذه الأغراض، يأباه الدين ويرفضه .. فالدين لا يتصور الحياة خالية من تبادل الواجبات والتساند والتعاون والتآخي في حمل التبعات

* المال ٢٠١١/٢/٢٣

والمسئوليات . ومن الملحوظ أن الإسلام لم يتخل عن هذا الواجب ولو كان حتى من أجل التجرد للنسك والعبادة والترقى الروحى .

فلو شاع ذلك بين الناس وتحاكوا فيه، لتعطلت عمارة الحياة، وتخلخل المجتمع .. بينما هم الإسلام إعمار الحياة العامة والخاصة، بترابط إنسانى عماده التعاون والتراحم وتساند الناس فى خطوات ترقيهم وتخلقهم على هذه الأرض بأخلاق الله .

هذه الحياة بمقاصدها، لا تقام إلا إذا تحققت المساواة التى تقوم على العدل الذى لابد من توفير مناخه .. ومناخ العدل، فيما دل عليه القرآن والسنة، فى محبة الشجاعة فى الحق، وعدم السكوت أو الصبر على الظلم، والعزوف عن الباطل .. وهذه الشجاعة التى يحرص عليها الإسلام - تربية وخبرة ومران وتدريب وفهم .. وكثيرا ما يتوهم البعض وجود هذه الشجاعة فى أنفسهم وهم فى الواقع أبعد البعداء عنها وأضعف الناس عن تحمل تبعاتها حين يأتى الداعى إليها !

والواقع أن الدول لم تعد تهتم كثيرا فى هذا العصر - بإنتاج الشجاعة الأدبية والرجولة فى الحق .. وليس يجزئ فى إغفال هذا الجانب، أن تعنى الحكومات والشعوب بإنتاج الخبراء فى العلوم والصناعات والفنانين والأدباء وأرباب المهن والحرف، أو بناء الكوادر الحزبية والشبابية، وأبطال الرياضة، وإقامة وتدريب الجيوش والأساطيل والقوات الشرطية وتنمية قدراتها النظامية والقتالية .. فذلك كله على أهميته يبقى ناقصًا إذا أغفل إنتاج صفة الشجاعة والرجولة، أو إذا ترك توفر هذه الصفة لعشوائيات الظروف التى قد تنتجها اعتباطا وقد لا تنتجها !!

ويبدو أن القوالب الناعمة التى صارت تصب فيها حياة الناس، لم تعد تشعر بالحاجة إلى الشجاعة والرجولة .. وتتصور أن الإنسان

العادى يمكنه أن يعيش ويموت ويؤدى دوره فى الحياة بدونهما .. وهذا موطن من مواطن الداء .. يؤدى إلى اعتلال الحياة العامة .

ونحن حينما نتحدث عن المساواة كمقوم أساسى للمجتمع، ومعلم من معالم التقريب .. ينبغى أن نتذكر حديثنا عن الحريات بصفة عامة، وأن ندرك أنها تتوقف طرديا وعكسيا ـ على ثقة الضعفاء فى أمانة واستقامة ضمائر وسلوك الأقوياء .. فإخلال الأقوياء بالاستقامة واستخفافهم بالأمانة ـ لا يبقى معه جدوى كبيرة من التشريعات والأنظمة مهما نصت على المساواة .. ولا يجدى معه إنفاق الأموال الكثيرة أو الهبات والمنح لتحقيق المساواة، وتذهب سدًى كل محاولات الإقناع أن المساواة فى سبيلها للتحقق .

كذلك فإن اختصار القضية فى إزالة الأقوياء، تصور أو خيال شارد فارغ قليل العقل والتجربة .. فمن يزيل الأقوياء يرثهم ويحل محلهم، وهكذا حكايات الفتوّات الذين يهبّون لإزالة الفتوّة الذى بغى وتجبر وظلم، ويتوسل المناهض فى مناهضته إلى قيم العدل والمساواة، حتى إذا هزمه وارتقى فتوّة الحارة أو الحىّ، تحول تدريجيًا إلى فتوّة آخر، لا يلبث أن يجمع مقاليد القوة ومعها الظلم فى يده، ليمارس بطشه على الناس، معطيًا ظهره لكل قيم العدالة والمساواة التى تبناها وتشدق بها أيام كان يناهض الفتوّة السابق عليه !!!

يضاعف صعوبة تحقيق المساواة، أن العالم لم يستغن فى الماضى والحاضر ولا يمكن أن يستغنى فى المستقبل ـ عن وجود الضعفاء والأقوياء ..ولا عن حاجة المجتمعات إلى الأقوياء الذين يبدو أن الاستغناء التام عنهم مضاد لنواميس وواقع الحياة ..

وحكمة الإسلام أنه لم يتوهم إمكان خرق سنن الوجود، أو قلب موازين الكون، ولكنه مع ذلك لم يقف عاجزا عن معالجة هذه

القضية .. تكمن قوة الإسلام فى أنه يقظة وصبر وإعادة تربية للنفس والروح .. هذه التربية هى التى تقوّم القوى كما تداوى الضعيف، وتكفل تطامن القوة وتعافيها من البغى والظلم والجبروت، وتقيم للمجتمع أواصر وضوابط لا تتيح للقوى أن يتجبر ويستعلى بقوته على الضعفاء، وتلزمه بأن تكون قوته فى خدمة المجتمع .. وأن تكون الثروة فى جبر وكفكفة الفقر .. وأن يكون علم العالم فى تعليم الجاهل وصلاح الجماعة .. فى فرض المبادئ التى لا تفرق ولا تميّز بين الناس لقوة أو منصب أو جاه أو مال أو نفوذ .. عبقرية الإسلام، ومعلم أساسى من معالم التقريب فيه، أنه لم ينكر أو يتجاهل وجود القوة والأقوياء، فأقر بواقع الاختلاف والتفاوت، ولكنه جعل القوة والعلم والثروة فى خدمة المجتمع والناس على سس العدل والإنصاف، فى إطار من الأخوة الإنسانية والمساواة، التى لا تفاصل فيها إلا بالعمل الصالح

۞ ۞ ۞

على هامش معالم التقريب *

الجد والجدية

ينبه محمد عبد الله محمد، إلى أنه ينبغى ألا نتعب من تعريف المسمين بالتقريب، وأنه حركة لجذب التفاتهم إلى الإسلام كأمل جامع شامل يجمعهم كلهم على اختلاف مذاهبهم .. ولتنبيههم إلى أن الإسلام بهذا الشمول يواجه حضارة قوية جدا اكتفى محمد عبد الله بأن يصفها وقت كتابة هذه الفصول بأنها غير إسلامية الجذور، ولكننا صرنا نراها الآن مطوية على عداء دفين للإسلام كشف عن وجهه وجعل يربو ويزداد .. وهذا الموقف العدائى للإسلام لا يجوز الاستخفاف به، فكيف تكون مواجهته ؟

يبدو أن " الجد " هو مفتاح الإجابة عن هذا السؤال .. ومن اللازم أن نلتفت إلى معنى الجد عندنا وعند هذه الحضارة الغير إسلامية . لأن " الجد " خلفية ضرورية لكل شيء ذى قيمة .

ومن يرقب عصرنا يسمع وصف الجد والجدية يسبغ على كل شيء، حتى الألعاب والرقص والغناء .. وكل ما تتجلى فيه المهارة فى التدبير والإعداد والأداء .. ومن يراقب ذلك يظن أنه لفرط تعلق هذه الحضارة أن كل شيء فيها قد تحول إلى جد أو أنه قد زال فيها الفارق بين الجد والهزل .. حتى باتت هذه الحضارة تعبد المهارة وتصفق حتى للظالم الماهر الذى يغلب بحيلته الضعيف ويقهره !!

---

* المال ٢٠١١/٢/٢٤

ولكن الجد الذى يعنى الإسلام ودعوة التقريب، ليس هو المهارة فى داتها، وإنما هو الجد المطلق الذى ليس وراءه جد أعلى منه .. هذا الجد هو شعور الآدمى بأن الحياة شيء حاد جدية لا آخر لها، فالحياة لم تخلق لهوا ولا لعبا ولا عبثا .. وهذا الجد المطلق ضرورى لكل النواحى العليا فى حياة الإنسان .. فبدونه لا تكون الأخلاق أخلاقا ولا الدين دينا ولا العلم علما ولا الفن فنا .. ولا دعامة لهذا الشعور بالجد المطلق أو بجدية الحياة وأسسها جدية لا آخر لها - إلا الشعور بوجود الحق المطلق تبارك وتعالى . " قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ " (الأنعام ٩١) ..إذ بغيره تكون الحياة لعبا ولهوا وزينة على خلاف مانبه إليه القرآن المجيد .. ورب العزة يقول فيه : " وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ " (الأنبياء ١٦، والدخان ٣٨) .

بغير هذا الجد يصبح اللازم الأخلاقى واحترامنا له، واللزوم الدينى والتزامنا بأوامره ونواهيه - بغير هذا وذاك يصير لزوم الأخلاق والدين لزوما نسبيا يجوز عليه التغير بل والكسر ما دمنا غير واثقين أو غير ملتزمين بجديتهما بصورة مطلقة .

إن اللازم الأخلاقى يستمد قوته من جدية أخذنا إياه مأخذ الجد الذى ليس فوقه جد .. والجدية المطلقة التى نقابل بها اللزومين الأخلاقى والدينى - هى وحدها التى تعطى لهما مقامهما الفريد بين القيود والضوابط والمعايير التى تحكم ضمير الإنسان وسلوكه .. وهذه الجدية هى التى تعطى اللزوم الأخلاقى والدينى وحدتهما ودوامهما وأثرهما ..

وكما تقوم المقابلة فى الاستعمال اللغوى بين الجد والهزل، تقوم أيضا - أى هذه المقابلة - بين الجد والتفاهة .. فتعلق الإنسان بالجد وحرصه عليه، وهو الذى يباعد بينه وبين التفاهة ويرفع قيمته عند

نفسه وعند غيره .. وبغير هذا الشعور بالأهمية والقيمة لا يحس الآدمى أن له حقوقا عامة قبل مجتمعه وحكامه، وعند ذلك تضيع الحريات العامة ما دامت التفاهة قد غلبت الجدية !

فالشعور بالجدية المطلقة للزوم الأخلاقى والدينى، هو فى ذات الوقت شعور بأهمية وقيمة الإنسان وروحه، وذلك ضرورى لحماية حقوق الإنسان .. وبغير هذا الجد لا توجد مسئولية، لأن المسئولية هى الجانب الجاد فى الحياة، وما تفرضه من واجبات والتزامات .

والاستعداد للإحساس باللزوم الدينى والأخلاقي وبجديتهما المطلقة شيء فى جبلة الإنسان يفصله عن باقى الأحياء .. وهذا الاستعداد يقوى كغيره ـ مع العناية والمران فى بيئة صحيحة غير عليلة . ومحتويات هذا اللزوم عندنا كمسلمين ـ مصدرها الأساسى هو القرآن المجيد والسنة المطهرة .. وكلاهما جد محض لا مساغ فيه لغير الجد .. وكلاهما من الله عز وجل

والمسلم السوى يلاقى نواميس الله عز وجل بالجد المطلق الذى لا يفاضل ولا يفرق بين بعضها وبعض .. بل يرى مخالفة هذا الناموس إثما، فالإسلام لا يغادر إطار الجد، ولا يغرق فيه .. ولا يوجد للإسلام صورة جذابة لذيذة غير مملة، وأخرى عابسة متجهمة .. فالتزام الجد مبدأ جوهرى لا يلتفت لتحقيق لذة أو لتلافى عبوس، وإنما يعبر عن روح الإسلام الذى يلازم المسلم فى ما يفعل حتى فى أوقات الراحة، وفى كل ما يدع .

وبدهى أن العلم الحديث لا يستغنى ولا يمكن يستغنى عن الجد المطلق .. ذلك أن العلم يطلب الحق والمزيد منه ولا يرضى بسواه ولا بأنصافه أو أرباعه .. وفى هذا الاتجاه المستمر الدائب نحو

الحق، يلتقى العلم والدين اللذين وإن فصلتهما الوسائل، إلاّ أنهما تجمعهما تلك الغاية الأخيرة .

إن طلب الحقيقة هو الغاية، ولكن الحقيقة التى بوسعنا أن نحققها هى الحقيقة النسبية .. ومع ذلك علينا أن نصر ونصمم على طلبها .. نعم قد يلابس مسيرتنا تداخل بين الصواب والخطأ، وبين الحقيقى والباطل، ولكن الخرافة والضلالة سوف تملآن حياتنا إذا تراضينا أو أهملنا فى طلب الحقيقة كغاية تحتاج إلى البحث عن الصواب والإنصات لصوت الحق . فإذا سألنا أنفسنا بأى مقياس نقيس الحقيقة فى دنيانا، فإن مقياسها هو الوضوح والارتياح .. وفى الحديث النبوى أن الخير ما ترتاح إليه النفس، والإثم ما يحيك فى الصدر ويكره اطلاع الغير عليه ـ فى هذا الحديث ما يقرب إلينا هذا المعنى .

نحن فى هذه الدنيا عطاش دائما إلى الحق، ولا يفارقنا هذا العطش إلى أن نموت، وهذا العطش ليس وهما ولا سرابا، وإنما هو حاجة حقيقية تبحث عن مطلوبها ولا تكف عن هذا البحث عنه !

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

المسعى إلى الحق

الحاجة إلى الحق المطلق والاحتكام إليه، توجد مع كل مسعى مخلص للإنسان أيا كان وطنه أو دينه أو ثقافته .. يشترك في ذلك كل المخلصين، ولكن يختلف السعى قوة وضعفا تبعا لاختلاف الاستعداد والتربية الدينية والبيئة .. ومقدار فضل الله تعالى ونعمته..

إن الاعتياد على الجبن والهوان والأنانية قد يخفت صوت الحاجة إلى الحق . فلا نكاد نسمعه، ولكن هذا الصوت يعود فيدوى حين تعمل معاول الظلم والجور، أو يطل الخطر، أو تشيع الغفلة وعدم المبالاة والاستكانة .

يعلم المسلم بحكم عمار الدين فى وجدانه، متى يقول نعم ومتى يقول لا .. وأنه لا يستطيع أن يستغنى فيما يقول ويفعل عن الاستناد إلى الحق .. فالإخلاص معلم أساسى فى الإسلام، وهذا الإخلاص هو بوصلة سعيه باسم الحق والمصلحة الحقيقية .. وأشواق المسلم السوى المخلص فى توغلها وراء الحقيقة تسحب العقل والروح من السطح إلى الأعماق .. وتعطيهما العمق الذى يحصن الروح ضد الإحساس بالجدب والتفاهة والهوان .. وكلما توغلت الروح فى طلب الحقيقة تجردت الحقيقة من القيود التى تفرضها الظروف، وتجلى نور الحق المطلق غير المشروط .

---

* المال ٢٠١١/٣/٢

هذا الحق يسبق ما سواه، ولا ينبغى أن يزاحمه شيء، وهو بذاته وراء وفوق كل حجة أو برهان .. وإذا أخذنا الإحساس بحقائق عالم الغيب كمقياس أو دليل، سنرى أننا لا نحس هذه الحقائق الغيبية إلا حين يملأ قلوبنا التواضع والإخلاص والشعور بروعة جلال الحياة والكون .. حين نتقى الصلف والغطرسة والانحصار فى الذات، ونترك عدم المبالاة . فهذه الحقائق لا يلم بها ويدركها غير المتيقن، اللاهى عن السعى إليها باستقامة وإخلاص .

يعود بنا محمد عبد الله محمد إلى الإحساس الواجب بجدية الحياة، لأنها مع الاستعداد وقوة الموهبة هى التى تدفع الناس دفعا شديدا إلى طلب الحقيقة وإلى إرشاد الغير إليها .

على أن حديث الناس عن أهمية الحياة، معظمه نظرى مؤقت .. يوازيه أو يسببه أننا فى الواقع لا نحفل كثيرا بحياتنا ولا نشعر بقيمة أيام العمر إلا حينما يشرف على الانصرام .. ذلك لأن اعتيادنا على الحياة يلغى إحساسنا بخطرها، بل يلغى إحساسنا بالوقت فى فترات الشباب والصحة وإقبال الدنيا .

إن من مهام الدين الأساسية، نشر الجد فى الفراغات الموجودة فى حياة الناس .. هذه الفراغات التى اعتادوا أن يشغلوها بالصغائر والتفاهات .. وللأسف لم تعالج الحضارة الحالية ذلك حين أضعفت مكانة الدين، بل زادت هذه الحضارة ـ المادية ـ أسباب ووسائل العبث وإضاعة العمر ومقبرة الوقت، وملأت حياة الناس بسخف لا يستطيعون معه أن يلجئوا إلى أعتاب الله !

ومع أن التعليم بطبيعته عملية تحصيل يجب أن تقترن بالجد والجدية، إلا أن الصلة بين التعليم وبين الجد والإحساس بالجانب الجاد فى الحياة بعامة، هذه الصلة باهتة أو غير واضحة، بحيث لا

يوجد تناسب طردى مضمون بين الإحاطة بالمعلومات والمعارف والمهارات، وبين الإحساس بالجد والالتزام به .. بل قد تؤدى الأطماع أو الطموحات المتعحلة غير المعنية بالأسباب - إلى ضعف هذا الإحساس بالجانب الجاد فى الحياة .

إن العوامل المؤثرة فى حياة البشر عوامل لا تحصدها الكتب وبرامج التعليم .. ومعظم هذه الجوانب محجوب لا تلتفت إليه الأنظار عادة .. ويؤثر ذلك على اختيارات آدمية غير قابلة للتعليل وإن كنا نحاول تبريرها بعد حصولها ..

يريد محمد عبدالله محمد أن يقول إن المغالاة فى كفاية التعليم بذاته لمواجهة مشكلات الحياة العامة والخاصة، مغالاة ينقصها الجد شأنها شأن المغالاة فى أى شىء آخر .. وهذا برغم وضوحه، لا تدركه الحضارة المادية - الحالية، وتنصرف عنه بالعدد والتصنيف والتوصيف الخارجى .

ربما كان مطلوبا أن نلاحظ أن التعليم العام يغذى الحماقات أحيانا دون أن يدرى، حين يعطى الفرص - بمقاييسه الظاهرية أو الشكلية - إلى المحرومين من المواهب، ويعطيهم بالتالى فرصا للصدارة والرياسة والتسلط، على حساب أصحاب المواهب الحقيقية !

إن التعليم وإن طال أو كثر، لا يمنح بذاته دائما الإحساس بالجدية، ولا يمنع من العامية ونزقها .. لأن العامية ليست قلة تعليم، وإنما هى كثافة طبع ونقص فى الشفافية الطبيعية .. هذه العامية هى العيش فى الجسد والأرض، وعبادة الجسد والأرض واليأس من كل ما عدا الجسد والأرض !

والجد اقتناع وإخلاص عميقان فى الروح .. وهو غالبا ما يضيق بالمظاهر مخافة أن تأخذ هذه المظاهر مكانه وتقطع طريقه ..

والإخلاص هو الذى ينظف أيدينا حين نمدها جادين إلى الله، ويحملها ويطهرها من كل قبح وقذارة .. ومهما بلغت شقوة الآدمى، فإنه يستطيع أن يمد يده إلى ربه عز وجل .. بعمل مخلص تسمح له به ظروفه، حتى وإن لم يكن مما ينضوى فى الصور والأشكال والأنماط . فلا تلازم بين الجدية وبين النمطية .. ولا تضارب إطلاقا بين الجد وبين السرور .. فليس الجد جهامة أو عبوسا، وإنما هو شعور بالمسئولية وقيام بها .. والقيام بالواجب جالب للسرور وحائل يدفع بعيدا غيوم الكآبة والعبوس !

إن انحسار الجد من أية قيمة أو مصلحة من قيم ومصالح الحياة المشتركة، أمارة سقوطها وزوال اعتبارها وقلة جدواها .. وشعور الإنسان بالجانب الجاد فى حياته وبجدية الحياة ـ هو فى جوهره شعور الإنسان بقيمته، وهذا الشعور بالقيمة هو الدور الموقظ والمنبه الذى يسلم به للإنسان روحه وعقله، وينقذه من الوجود العرضى الوقتى الزائل، ليصله بالحياة فى معناها الدائم الباقى .

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب*

التكبيرة الصادقة

حين يذكر محمد عبد الله محمد ـ الجانب الجاد في حياة الإنسان، فإنه لا يقصد تقسيم حياة الإنسان إلى أقسام وأجزاء هذا جاد وهذا غير جاد أو يمكن أن يكون جادا أو غير جاد .. وإنما هو يشير إلى أن حياة الإنسان بطبعها كل لا يتجزأ.. ولكن هذا الكل يبدو أحيانا لوعينا من زاوية الجد في أكثر الأحيان، ويبدو لنا من زاوية اللعب والهزل والمرح والضحك في بعض الأحيان .. فالجد ليس ولا يمكن أن يكون حالة دائمة لا تنقطع أو لا تتحللها راحة أو استرواح .. فمعنى ذلك ـ وهو بطبيعته محال ـ أن يختنق الإنسان وتختنق معه الحياة .

ولكننا نشهد في الحضارة الحالية أقساما منفصلة أو تكاد، وتجزئتها أجزاء منفصلة في إطار تقسيم العمل أو التخصص .. وأيضًا بالتبعية للمستوى الاجتماعي .. ونشهد شيئًا من ذلك في انفصال الحياة العامة عن الحياة الخاصة، أو انفصال القانون عن الأخلاق، أو الدين عن الدنيا .. فإذا اخترنا تقسيم العمل مثالا، للاحظنا أنه يحصر أحيانًا نشاط الآدمي في تركيب مسمار أو صامولة، أو ملء استمارة، أو تغليف سلعة .. إلخ . وهذا التقسيم يفصل العامل عن باقي العملية وعلومها وقواعدها ومهاراتها

* المال ٢٠١١/٣/٣

الأخرى . ونرى ذلك فى التخصص ومجالات المتخصصين التى تحصر كلا منهم فى تخصصه فلا يتناول سواه .

لذلك لم يعد غريبًا أن ترى الطبيب أو المهندس أو الاقتصادى أو الفنى ـ عاديا فى سلوكه وتفكيره، ملتزما النمط الذى تلقاه فى القرية أو الحىّ الذى نشأ فيه، ملتزمًا بذات تقاليدها وأنماط وأساليب السلوك فيها . وشبيه بذلك أثر المستوى الاجتماعى فى نوعية الاقتناء أو عقد الصلات أو التزام الزى والمظهر .

أما انفصال الحياة العامة عن الخاصة، فإنه يعطى تبريراً مسلّماً به للإفلات من رقابة الرأى العام، أو تجنب تتبع المخازى .. وزاد فى البلاء انفصال القانون عن الأخلاق بقالة إن ذلك من معالم الحرية الشخصية، ومن ثم لم تعد للأخلاق الهيبة التى كانت لها ولم يملأ القانون الفراغ الناجم عن تواريها .

حياة الإنسان بطبعها كل لا يقبل التجزئة، وحالة التجزئة الداخلية أو الانقسام الداخلى التى اعتادها الناس من قرون ـ عوّقت فيما يرى محمد عبد الله محمد ـ نمو الثقة والصدق .. لأن الحياة المفتتة صارت أشلاءً متصادمة يكذب بعضُها بعضًا، ويشهد بعضها ضد بعض، ويندر فيها وجود النماذج المخلصة الخالصة التى يوافق باطنها ظاهرها ويتوحد معدنها وجوهرها فى كل مساعيها ..

ومع نضوب نمو الثقة، فإن الناس قد اعتادوا الاسترابة فى دوافع وبواعث المواقف الأخلاقية والدينية .. ويحملون معظمها على الرياء والتظاهر والنفاق .. وانتشر مع ذلك عدم المبالاة بالمبادئ والأصول، وتعطل معظم عمل الدين والأخلاق .

واعتياد هذا البلاء أنسى الناس أنه ضد طبيعة الحياة التى تحافظ على وحدتها وعدم تفتتها .. وأنساهم أن الحياة تنمو نموا مشوها

عليلاً إذا وسع عليها فى ناحية أو نواح منها فقط، على خلاف ما عداها .. فالأجهزة التى تصل حياتنا من طريقها بالعالم الخارجى ـ تشبه فى عملها عمل الأوانى المستطرقة .. ما يدخل إليها من شوائب يتسرب حتمًا إلى الكل ..

واعتياد النظرة الجزئية وإيثارها باعتبارها تتفق مع طريقة التفتيت التى درجنا عليها فى تحليل المشكلات ـ أدى ويؤدى إلى انعكاس هذا التفتيت على المحيط المادى الخارجى للحياة الإنسانية، فى القرية والمدينة بل فى المسكن .. وهذه النظرة الجزئية للحياة تبدو على أقسى صورها ـ فى مغالاة الحضارة الحالية ومبالغتها فى التعلق بالمهارة وإعلاء شأنها . وانتشار عادة المهارة قد أفقد الناس الإحساس بأهمية الإنسان كإنسان .

وها هنا يمسك محمد عبد الله محمد بأثر ذلك الملحوظ فى " عادة النفس " كلما شعر الإنسان بتفوقه أو تفوق طائفته أو نوعه وحين يرى الإنسان أنه سيد الكون، تتسلل إليه " عبادة النوع " وهى تسحب ـ حتى باللا وعى ـ من صفاء عبادة الحق تبارك وتعالى .

والآدمى منذ يولد، إلى أن يموت، لا يكف عن استعظام كائنات أو أشخاص أو أشياء، ويتراكم هذا الاستعظام فى أحكام تتراكم لديه بقاياها وآثارها، وتنضح فى عاداته .. وهذا الاستعظام عملية شعورية يشعر الآدمى إزاءها بالضآلة أو الضعف، وأحيانا بالتفاهة وقلة الشأن .. وهذا " الاستعظام " يعطى ـ من ناحية عكسية ـ على الشعور بجدية الحياة الإنسانية .. بينما لا تكف عملية الاستعظام عن إنتاج مخاوف وحدود وقيود وسدود وأطياف تتسلل مع طول الاعتياد إلى داخلنا، فتستولى على أرواحنا وتصيبها بالجدب والضمور .

ولكن المسلم السوى معه : " الله أكبر " .. وهذه التكبيرة الصادقة تحفظ المسلم وروحه وعقله من أشباح ومردة الاستعظام الباطلة .. فالله سبحانه وتعالى أكبر من كل ما قد يستعظمه الآدمى .. فالله أكبر من الناس كافة، ومن الخلق أجمعين، وأكبر من الرؤساء والحكام والزعماء والسادة .. والله أكبر من كل جمع وعدد، ومن كل ما صنع الإنسان وبنى وأنشأ وركب وحرك وغير وبدّل وادخر وكدّس .. والله أكبر من كل ما يخيف النفس أو يؤلمها أو يحزنها أو يسرها أو يفرحها .. والإنسان حين يملأ قلبه من الله أكبر، يصغر أمامه كل ما سواه، ويتجه متحررا إلى الحق المطلق وتحلق روحه فى عنان السماء .

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

الحضارة الحالية

لا تعرف الحضارة الحالية معنى ولا مضمون ولا مغزى النداء الذاكر " الله أكبر " .. فهذه الحضارة مادية لا تعترف إلا بإنجازات الإنتاج فى هذا المكان أو ذاك .. وهى تحشد قواها واهتماماتها لتطوير الوسائل وإتقانها وكفايتها وزيادتها باستمرار كفاية وإتقانًا، ولا تهتم بالغايات وتنقيتها وتصفيتها .. لأن ذلك يفتح الأبواب للمطلق ويوجد هدفا أعلى من الإنجاز والإنتاج، بينما هذا الإنتاج هو كل اهتمام الحضارة الحالية .

هذه الحضارة الجادة أشد الجد، لا تهتم إذن إلاَّ بالوسائل، ولكنها غير جادة فى تحرى الغايات والتحقق من سلامتها وإنسانيتها .. لذلك صار عالم اليوم أكواماً هائلة من الوسائل شديدة الكفاية والعقلانية والذكاء .. ليس له قمة لأنه عالم لا يشعر بغاية كلية خارجه أو فوقه .. ولا يشعر بدافع كلى داخلى يزود هذه الوسائل بالإيقاع والتلاقى والانسجام فى معنى جامع يجمعها ويوحد جهتها . إنه فيما يلحظ محمد عبد الله محمد ـ عالم من الوسائل تتكدس وتتجاور وتتشابك وتتداخل وتتصارع ويفنى بعضها بعضا ويعيش بعضها على بعض .. فى حركة هائلة مستمرة لا تنقطع .

يسجل محمد عبد الله محمد أن كلنا إلاّ من عصم الله ـ صار يكتتب بحياته واعيا أو غير واع فى هذه الحضارة .. حضارة

* المال ٢٠١١/٣/٩

الوسائل والأسباب .. الحاكم والمحكوم، الغنى والفقير، العالم والجاهل . الكل إلا من عصم الله ـ ينحنى للأطياف والأشباح والمردة والآلهة الباطلة التى تسود هذه الحضارة .. لا يسلم من تأليه الوسائل والإنجاز والإنتاج والكفاية والفن أو الاقتصاد والتخطيط أو تقسيم العمل أو الآلة أو التمويل أو الحزب أو المذهب أو الزعامة أو الطبقة أو المجتمع أو الدولة .. صار الآدمى اليوم يؤله هذه الأشياء دون أن يشعر، لأنه صار يعطيها قيمة ليس بعدها قيمة .

وفى هذا المعمعان ضاع الإنسان .. لأنه باع نفسه لتلك الأطياف والأشباح والمردة والآلهة الباطلة .. لم يعد طائره فى عنقه، ولم تعد أفعاله وقراراته تنبع من إرادته هو واختياره هو، وإنما هى قرارات تفرضها الأشياء التى من صنع البشر .

إن شدة تعلقنا بالأشياء طردتنا خارج أنفسنا، وجعلت الإنسان يعامل ذاته كما يعامل شيئا أجنبيا عنه .. لا يحترمه كثيرا ولا يؤمن بأن له قيمة كبيرة .. وذلك قد جعل عواطفنا الإنسانية هشة سطحية خالية أو تكاد من العمق والجد .. وصرنا وهذا أخطر الأشياء على مستقبل الإنسان ـ صرنا غير قادرين على الإخلاص والوفاء، عاجزين عن الإيمان الذى يحصننا من اليأس والهلع !

إننا لا نكتئب فى الحضارة الحالية بعقولنا وجهودنا وحسا للقوة فحسب، وإنما نكتئب فيها دون أن نشعر ـ بما هو أغلى وأهم .. نكتئب فيها للأسف بالاستغناء عن الروابط الإنسانية، وبالاستغناء عن الوفاء والمحبة العميقة اللذين يعلو بهما الإنسان على الأشياء جميعا، ويحتفظ بهامته فوق أمواج التطاحن والصراع المهلك على الأشياء !

لقد صار هذا التعلق شائعًا فى بلاد الإسلام وبين المسلمين، وانعكس ذلك فى تهافت الناس على الانتصار للأشياء إنتاجا

واقتنــاءً .. مــدفوعًا بالإنجــازات الــضخمة التــى تــستثير الحمــاس والإعجاب، ولكن ما يـستوقف النظـر أن الحمـاس والإعجـاب ـ لا يوقظان شعورا جادا باحترام الإنسان لنفسه وأهميته وقدره .. بل يصاحبهما فى الأغلب شعور طاغ لدى العاديين بالضآلة والصغر !

ربما ساهم فى ذلك أن الحضارة الحالية لم تلتفت لربط ما تنجزه بإرادة الناس، ولم تعن بأن تكون برهانا على تذكر أهمية وقيمة الإنسان .. كما لم تعرف كيف تستعمل الأشياء وكيف ترسم الحدود لعلاقتنا بها، بل إننا نعاف ذلك ونتحاشاه حتى لا تقيدنا الحدود ويبقى الباب دائما مفتوحا لنكسب من الغموض وانبهام هذه الحدود !

رسالة التقريب التى يبثها محمد عبد الله محمد من خلال هذا الحديث، تتبلور فى أن التقارب حاصل بالحتم والتلقائية بين من علت لديهم القيم والغايات الإنسانية، ولم تستغرقهم عبادة الأشياء وما يتعلق بها من تنافس فى الماديات وغرق فى غريزة الاقتناء التى تقود إلى ما يشبه التطاحن .. يتقارب المسلمون حينما يشملهم ويحوطهم ويتغلغل فى حناياهم النداء الذاكر : الله أكبر .. وحدة التوجه إلى الله تعالى الذى ليس كمثله شىء، وله المثل الأعلى .. هذه الوحدة هى التى تقارب بين أهل المذاهب .. لأنه سبحانه وتعالى أعلى وأجل، عليه جلّ شأنه وإلى قبلته يجتمع المسلمون كافة .. لا يفرقهم مذهب ولا شيعة .. فهم أمام الله مسلمون يسلمون قلوبهم ومقاليدهم إليه سبحانه وتعالى، ذاكرين إياه بربوبيته ووحدانيته وقدرته وغناه وحكمته وكرمه ولطفه .. إن ذكره سبحانه وتعالى هو قبلة الجميع .. " وَلَذِكرُ اللهِ أَكبَرُ " .. وتحت هذه الراية يجتمع كل المسلمين، وتهفو أفئدتهم إلى الواحد الأحد رب العالمين .

على هامش معالم التقريب *

مخاطر عبادة القوة

القارئ لمحمد عبد الله محمد، يلفته سعة وموسوعية علمه، وعمق تفكيره، وقوة عارضته، وغوصه فى كل ما يعرض له .. فلا يغره فى عالم اليوم ما يمتلئ به من العلوم ويحفل به من الاكتشافات والاختراعات، وإنما يرى أنه يغرق لأن معقد الأمل والرجاء ليس فى العلم أو الاختراع بذاته، وإنما المهم أن يكون الناس جديرين بما تم تحصيله من العلوم أو تحقيقه من الاكتشافات والاختراعات . وهذه الجدارة مقيسة بوجوب فهم أن هذه الإنجازات لا جدوى حقيقية منها إلا بما تحققه من نفع أو تؤدى إليه من خير.

فهذه المنجزات قد تكون نعمة كما قد تكون نقمة . وذلك مرهون بقدر تصرف الناس فيما صار فى متناولهم من علم وما حققوه من ابتكارات أو اختراعات . فالحياة تقوم على توازن بين قوى متعارضة، وغفلة الناس عن هذا الناموس الإلهى تقطع الطريق على ترقيهم، ويمكن لهذه الغفلة أن تجعل أعظم مكتشفاتهم وبالا عليهم ! وخذ مثالا لذلك ما يمكن أن تؤدى إليه اكتشافات الطاقة النووية من احتمالات تتأرجح بين النفع والاستفادة من هذه الطاقة فيما يعود بالخير والنماء على البشرية، وبين الهلاك الذى يمكن أن يلحق بكوكبنا كله نتيجة الحمق والتعصب وانفلات وعماء استعمال هذه الطاقة للتدمير !

---

* المال ٢٠١١/٣/١٠

ويبدو لمحمد عبد الله محمد، أننا كمسلمين لم نحدد بعد موقفنا من القوة التى صارت معشوقة عالم اليوم. وهو يعنى بالقوة هنا ـ القوة المعنية بالسيطرة والتسلط على حياة ومصائر الآخرين، والقدرة على تحريك الأشياء والأشخاص . فالقوة بهذا المعنى عارض كثيف يعترض طريق التقريب، يحدث ذلك حين يقع الفرد أسيرا لهذا العشق للقوة. وقد صار معظم الناس مشغوفا بها إلى حد العبادة، فيتسابق الجميع إلى نولها ـ أفرادا ودولا ـ دون التفات إلى ما ينبغى أن يحكمها من توازن هو الضابط لعدم جموح الأقوياء، وهذا الجموح وبال على العالم بعامة، وعلى الدعوة إلى التقريب بخاصة !

والبعض منا يحلو له أن يقحم الإسلام ـ دون أن يشعر ـ فى هذا الاشتهاء للقوة، وأن يطلب أن يكون الدين سبيلا لمنحنا السيطرة والتسلط على حياة الآخرين ومصائرهم . وهذا الطلب أو السعى ـ ما هو إلا إشباع لشهوة التفوق وإخضاع الآخرين. وليست القوة بهذا المعنى الذى يتجه إلى الاستعلاء والإخضاع ـ ليست هى غاية الإسلام، بل ليست فى مقدوره، لأن هذا "الإخضاع" نقيض وضد عبوديتنا لله وولائنا له عز وجل .

المسلم السوى يطلب الله وحده، ولذلك فهو يطلب الحق والعدل ولا يشتهى ولا يمكن أن يشتهى القوة الباطشة التى تخضع الغير أو تمتهنه أو تذله أو تبغى السيطرة والهيمنة عليه. إذ فارق بين ما يؤدى إليه الاتجاه إلى الله من قوة داخلية إزاء من يتهالكون على الأشياء وعلى طلبها، وبين من يسعون إلى القوة للاستعلاء والهيمنة .. فقوة الإيمان وصدق التوجه إلى الله ـ قوة مفروضة نابعة من صدق هذا الاتجاه، إزاء من لا يرون الحق ولا يطلبون الله .

فنعمة الإبصار ليست فى فضل المبصر على الأعمى، ولا فى قوة المبصر بالقياس إلى ضعف غير المبصر وعجزه، وإنما نعمة الإبصار

فى "ذات الرؤية" وفى الإحساس الثمين بمعجزة الإبصار وملامسة العالم بأجنحة نور هذه الرؤية وإمتاع القلب والعقل بآية النظر.

ينبهنا محمد عبد الله محمد إلى أننا كمسلمين ـ لا نطلب الله لإذلال الآخرين بالقوة المادية الذاتية الفردية أو الجماعية .. فالله سبحانه وتعالى ليس أداة ـ جل شأنه ـ نتوسل بها إلى شيء وراء ذاته عز وجل .. وإنما نطلبه ونتجه إليه بصدق وإخلاص لأننا محتاجون إليه لنحيا حياة خيرة عادلة .. محتاجون إليه حاجة لا يدخرها لنا غيره سبحانه، ولا يشبعها سواه عز وجل، ولأن حياتنا بدونه ـ تبارك وتعالى ـ ينقصها الجد والمعنى والغاية، ولأننا حين نطلب شيئا آخر وراءه ـ لا نعود نرى النور المصاحب للاتجاه الصادق إليه، ومن ثم تسدل العتامة على أرواحنا ونطمر حريتنا فى تراب الشره والكبر والتوجس !

أحياناً ما تأخذنا الأمجاد التى حققها المسلمون، فننسى أنها أحداث فى طريق الإسلام، وليست هى الإسلام ذاته، بل إن الإسلام أكبر وأبقى من هذه الأحداث .. إننا ننسى حين يأخذنا التعلق بالأحداث أو الأمجاد ـ ننسى أن الإسلام اتحاد فى الله يتجاوز كل الحدود السياسية والثقافية، لأنه اتحاد فى الحق من أجل الحق والهداية .

تكمن جذور انحراف الفهم، فى ثقة الناس بالقوة المستندة إلى الأشياء، وعدم أو قلة ثقتهم فى الفهم .. ومن تصورهم تبعاً لذلك أنهم يستطيعون أن يغيروا ضعف أو شقاوة الحاضر والمستقبل عن طريق القوة وليس عن طريق الفهم والجد . لو أحب الناس الفهم والجد حبهم للقوة ـ لتغير حالهم مع الله ولأمكنهم حل جميع مشاكلهم.

إننا قليلاً ما نتأمل معنى اعترافنا بالله عز وجل، ومعنى الاَّ إله
 الله بالنسبة لنا . نعم نحن نعترف بالله طول الوقت، ولكننا
حدد له عز وجل ـ دون أن ندرى ـ موضعا على هامش واقعنا
يدا عن مركز هذا الواقع وجوهره . ربما كان مرد ذلك إننا وإن
كرنا فى الله عز وجل فى صلواتنا وصومنا وحجنا، إلا أننا لا
خله ـ تبارك وتعالى ـ فى تصورنا وعزمنا .. لأننا غالبا ما نفكر
لى وجه ونفعل على وجه آخر. وعند ذلك يحدث الانقطاع أو
لانفصال بين عقائدنا وأفكارنا، وبين الإرادة والعزم والفعل الذى
تجسد فيه الإرادة والعزم، وهذا يؤدى فى حياة الكثيرين إلى سوع
ن التمثيل أو الادعاء أو عدم الحد، ويلفتنا كثيرا عن تنمية الإيمان
ذى هو أولا وأخيرا أمل وثقة، ويصاحبه اعتقاد جازم بأن حياة
لإنسان فى الله، كانت وستبقى فى الله بعد زوال كل ما يصاحب
حياة الفرد من حمق ونشاز . إن الإمساك بحبل هذا الإيمان ـ هو
هم معالم التقريب .

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

الطاقة الروحية

يعود محمد عبد الله محمد، فيذكر القارئ بأنه لا يقصد عما يكتبه سوى لم الشمل وجمع كلمة المسلمين، وأنه لا ولم يُرد الجدل الفلسفى قط .. وإنما هو يخاطب المسلمين لافتا إلى أن الإسلام هو بداهة وجود الرب ـ سبحانه وتعالى ـ فى قلب المسلم السوى وعقله .. وهذا الحضور الربانى يغمر وجود كل مخلوق آخر ..صغر أو كبر .. وهذا يضعنا أمام الفكر الحديث فى مواجهة لا مهرب منها .. فهذا الفكر بالغ التكبر لا يعترف بالله ـ عز وجل ـ إلا إذا دخل من بابه هو وأثبت له هويته ـ سبحانه ليس كمثله شىء ـ وفقا لمقاييس هذا الفكر وبراهينه . بينما من المحال أن يبدأ فكر المسلم بالنسبة لربه عز وجل ـ إلا من قوله تعالى : " قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ " (إبراهيم ١٠) .

إن الإسلام لا يتصور ارتقاء البهيمة إلى إنسان، وإنما يتصور وينشد ارتقاء الإنسان إلى إنسان أفضل . والإنسان فى الإسلام بالله ولله، من أول يوم خلق، من الأزل إلى الأبد . لا تبدأ إنسانية الإنسان من انحصار الفرد فى الأشياء الجزئية التى تصافح حواس الحيوان، وإنما تبدأ الإنسانية من الإحساس الرائع بالكل خارج الأشياء وفيها وخلفها وأمامها وفوقها وتحتها وحولها .

* المال ٢٠١١/٣/١٦

هذا الإحساس العلوى الذى لا نظير له فى عالم الطبيعة، هو الأساس الذى بنى عليه عالم الإنسان بكل ما فيه من حق وخير وجمال . نري هذا المعنى فى قوله تعالى : " فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ " (سورة ص٧٢) .

هذه الطاقة الروحية التأسيسية التى ميّز بها المولى آدم وبنيه من بعده نعمة عظيمة .. وهذه النعمة العظيمة قوة لا تستطيع عقولنا أن تعرف ماهيتها وإن كانت تستطيع أن تسجل وتتبع تأثيرها وظواهرها .

وهذه الطاقة الروحية جزء فى تكوين الآدمى .. لا يخلو منها إلاَّ الشاذ الشائه .. وفقدها نهائيا من قبيل العاهة، بل هو عاهة العاهات . وهذه الطاقة الروحية تكمن خلف الطاقة العقلية والعاطفية ومضفورة معها .. وحين تنشط هذه الطاقة الروحية أو تخبو ـ تتأثر بها عقولنا وعواطفنا وتسجل تأثيرها فى ذاكرتنا باللغة المألوفة لنا .. وتأثير هذه الطاقة الروحية فينا قد يضعف أو يهن أو يخبو، ولكنه لا ينعدم قط . ولا سبيل لتنشيطها بغير ما قدره مولاها ـ عز وجل ـ فى دائرة ما قدره لها .. فهى لا تتأثر بأى تنشيط صناعى أيًا كان مصدره، أو بأى عوارض إيحائية قد يتعرض لها الإنسان .

يشدنا محمد عبد الله محمد ـ إلى كوننا نشعر بهذه الطاقة الروحية فى التأمل حين يسحبنا التأمل ونستغرق فيه فنكف عن الحركة واللغط والهرولة وراء حاضرنا ومستقبلنا فى الدنيا بظواهرها ومظاهرها. نشعر بها حين نتجمع فى داخلنا فنحس بما وراء السطوح اللامعة البراقة أو العكرة الداكنة . حين تتوقف ثقتنا فى الأشياء المعروضة التى تلتهمها أنظار المتدافعين المتعجلين . حين نحس وراء الوجود العادى اليومى المفكك ـ بوجود أكثر تماسكا وارتباطا وأكثر امتلاءً بالحقيقة والحكمة : عندئذ يمكن أن ندرك

معنى الأشياء ونفهم سرّها .. وبهذه الطاقة ينكشف الغطاء فنرى كل شىء آية من آيات الله عز وجل .. نراها كما يقول القرآن المجيد فى كل ربع وظاهرة وجزء ومخلوق وآية من آيات هذا الكون . نراها فى الكواكب والنجوم، وفى الشمس وضحاها، وفى القمر إذا تلاها . وفى النهار إذا جلاها .. وفى الليل إذا يغشاها .. وفى الفجر والضحى والشفق، وفى السحاب والرياح، وفى المطر والرعد والبرق، وفى البحار والجبال والوديان، وفى الحيوان والطير والحشرات والنبات . حين ينكشف عنّا الغطاء فنمسك بمعانى ما نراه وتشعر بوحدة الكون التى تسرى فى الكون وترتيبه .

ونحن نشعر أيضا بالطاقة فى الدعاء الصادق .. الدعاء الذى نفزع به إلى الله عز وجل ونطرق بابه متخلين عن كل ما لدينا من أسباب القوة أو المنعة أو العلم أو الخبرة أو المهارة أو الجاه والمكانة . حين ننسلخ من كل هذه المظاهر ونحصر تفكيرنا وإرادتنا فى مخاطبة المولى عز وجل سائلين إياه متضرعين إليه مخلصين له الدين والرغبة فى أن يسمع دعاءنا ويجيبنا إلى سؤالنا متمثلين وعده عز وجل :

" وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ " (غافر٦٠) .. وقوله تبارك وتعالى : " وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ " (البقرة ١٨٦) .

إن الدعاء إيمان وتشبث بالله وإخلاص فى التضرع والحاجة إليه. هو حركة روح مباشرة نحو الله، تيقظ أملها فى الله فطرحت نفسها على بابه .. وهذا الدعاء الصادق الذى يلتقى عليه المخلوقون ـ يطوى المذاهب والشيع، ويتقارب به من ينشدون إجابة السماء ..

حينذاك يشعر كل المتوجهين بالدعاء، بتأثير الطاقة الروحية فى مقابلة الألم والمشقة والخطر بالرضا الحقيقى، ولا يخشون بهذا الرضا أى صعاب أو يأس أو جزع، وحالهم على قلب واحد ينطق بما يرشد إليه القرآن المجيد من قول الله عز وجل فى القانتين الصابرين :

" وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ* فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ "

(آل عمران ١٤٧، ١٤٨) .

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

قوة الطاقة الروحية

حين تكتمل قوة الطاقة الروحية وتتوهج تصير لصاحبها بمثابة موهبة خاصة .. لا يكاد صاحبها مع اكتمال وعيه وإدراكه وعقله وإرادته ـ لا يكاد يعرف الألم أو المشقة أو الخطر أو يحس بشيء من ذلك .. فهذه الطاقة قد رفعته فوق الالتفات للألم والمشقة والخطر .. بعيدا عن طائلة الخوف والقلق .. لا تصل إليه أصوات الطبيعة الأرضية ونداءاتها بالهرب مما يؤلم أو يشق أو يخيف !

يلاحظ محمد عبد الله ـ أن تأثير هذه الطاقة الروحية يتجلى أيضا في الحب الحقيقي .. لأن هذا الحب الحقيقي علاقة باطنية ثمينة نادرة .. فيها يستغنى المحب عن تمييز نفسه وتدليلها والانحياز إليها .. ويستغنى أيضا عن النفاق والرياء والتصنع، وعن الحيلة لاصطياد المنزلة والمكانة، وعن طلب الاستعراض وكل تمثيليات ومسرحيات الحياة، وعن أن يكون له دور مهم فيها .. فالعلاقة العاطفية العميقة جدا لا يتبادل فيها المحبون إلا ما هو حقيقي، ولا يشعرون بأدنى حاجة إلى اصطحاب المجتمع وأوضاعه إلى داخلهم، فداخلهم غنى بما فيه، تجعل الإنسان مع داخله فى حالة اتساق تام تبهت أمامه المظاهر الخارجية .

ولأن الأذكياء يدركون تبعات هذا الحب الحقيقي، تراهم يخافونه ويهربون منه إذا لاح، مخافة الثمن الذى لا يقوون على دفعه، لذلك

* المال ٢٠١١/٣/١٧

يستعيض معظمهم عن الحب الحقيقى بالحب الاصطلاحى المتداول بين الناس .

يمهد محمد عبد الله محمد بهذه الوقفة، إلى النقلة التى تعنيه أكثر .. ماذا يلم بالمسلم فى العبادة الحقيقية ؟ مع هذه العبادة يشعر المسلم المتعبد بالطاقة الروحية شعورا حادا .. إذ غالبا ما تجمع العبادة الناجحة بين التأمل وبين الدعاء الصادق وبين الرضا الحقيقى بالألم والمشقة وبين الحب الحقيقى لله ورسوله وللناس .. تجمع العبادة هذه الأمور فى مجال تأثير خاص يزيد من كمال الطاقة الروحية وشدتها .. تستوى فى ذلك الأثر الفروض والنوافل .. بل ربما زاد الشعور بها فى النوافل، لخلوها من مصاحبة الإحساس بالإلزام وأداء الواجب الذى قد يصاحب أداء الفروض عند معظم الناس .. وفى القرآن المجيد : "إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا" (المزمل ٦).

ولأن الماديين ليس بوسعهم إنكار هذه الطاقة وأثرها، فإنهم يحاولون صرف الالتفات عن مصدرها الروحى، فيعزونها تارة بالإحالة إلى العقل الباطن وقوته، وتارة بالإحالة إليه وعلى الغريزة وطاقة الغريزة الأولى .. ويقولون إن هذه الطاقة قد انطفأت واستنفدت أغراضها أو كادت فى الإنسان .. بعد أن تطور مخه وسطع ذكاؤه، واستغنى بهذا الذكاء عن الاعتماد على تلك القوى الغيبية المظلمة !

وهذا وهم وهرب، لأن الطاقة الروحية ـ وهذا طابعها الفذ ـ طاقة قفز وارتياد .. بها يثب النوع الإنسانى من درجة إلى درجة .. وبواسطتها نمو العنق والبصر ورهف الأذن والسمع والحس لما وراء الحدود المألوف والمكرر والمتشابه.

ولم ينجح هذا الهرب، فى تفسير الومضات والرؤية الفريدة التى نبعت فجأة من طاقة روحية صادفت باحثين وعلماء موهوبين، تفردوا بها قفزات غير معهودة غطت كل القياسات والبراهين وحققت إشراقات لمعت كالبرق ووثبت وثبات هائلة غير مقدرة ولا محتملة، وشىء من هذه الومضات المذهلة عرفتها رؤية نيوتن وبسكال وديكارت ومندليف وأينشتين وغيرهم من الرواد فى العلوم الطبيعية الحديثة.

ولا يفوت محمد عبد الله محمد ـ ملاحظة أن هذه الومضات لم تظهر إلا لدى النوع الإنسانى، وخلت منها تماماً مملكة الحيوان ـ لماذا ؟ لأن الطاقة الروحية قصر على النوع الإنسانى، ولم يعط الحيوان شيئا منها .. ولذلك لم يتجاوز الحيوان قط انحصاره فى التحديد والتكرار، ولم يستطع قط أن يخرج عن الأطر والأنماط التى جرت عليها أجياله عبر العصور .

وهنا تتجلى قيمة وعظمة الإنسان الذى أراد الله تعالى أن يجعله ـ دون غيره من الكائنات ـ خليفة فى الأرض .. فهذه الخلافة الإلهية هى أولا وأخيرا طاقة روحية.

هنا يتوقف محمد عبد الله محمد ليتأمل رد الملائكة على استخلاف الإنسان فيما رواه القرآن المجيد:

"وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ۞ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ

سَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ" (البقرة ٣١-٣) ..

لقد رفع الله قيمة الإنسان لأنه سبحانه وتعالى قد زوده بطاقة روحية قابلة على الدوام للنمو الذي يكفل نمو عقله وعاطفته معاً.

تتجلى هذه الطاقة الروحية أيضاً ـ فى الثقة الهائلة التى يشعر بها بعض الناس إزاء الخطر والأزمة الحالكة . فى الثقة فى النجاة أو النجاح أو النصر .. وهذه الثقة إيمان مصدره هذه الطاقة الروحية التى تنشط فى المحن والأخطار.

وثمة فارق بين الفن وبين الحرفة، يتجلى تبعاً لوجود وعدم وجود هذه الشحنة الروحية، كذلك الفارق بين الموهبة الحقيقية وبين المهارة. هذه الطاقة الروحية منحة ربانية، ولد أو يولد بها كل إنسان معه نصيبه منها، وإليه إثراؤها أو خفوتها أو انطفاؤها . والخلاف الأساسى بين النقد الفلسفى، وبين الدين أى دين ـ هو وجود الطاقة الروحية وضرورة تنشيطها . سبب ذلك أن النقد الفلسفى لا يعترف بهذه الطاقة ولا يستطيع أن يتناول الدين إلا كفكر بشرى، وهذا النظر يرفضه الإسلام لأن البداية والنهاية فى حياة المسلم العقلية العاطفية هى الاتجاه إلى الله عز وجل . هو وحده الحق، سبحانه وتعالى، وما عداه ظلال وخيالات وأوهام وأفكار وتصورات .. وهنا تتجلى قوة الإيمان المصاحب للطاقة الروحية التى تمثل أهم معالم التقريب بين المسلمين كافة.

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

نمو الطاقة الروحية والعقل

من المميزات الكبرى للحضارة الحديثة، احترامها للتفاصيل وعنايتها الهائلة بالتعرف على الأجزاء وأجزاء الأجزاء وهكذا .. ووصل هذا إلى الجزئ، ثم إلى الذرة فأجزاؤها، وما نجم عن ذلك من تقدم من ناحية، ومن أسلحة الدمار الشامل كالقنابل الذرية والهيدروجينية من ناحية أخرى .. ومع اكتشاف الحضارة الحالية لعالم الأجسام الدقيقة بطاقاتها الهائلة وتعاملها معها تعاملا فاق كل توقع، أتاح ذلك اكتشاف عالم غريب بعيد الأغوار كثيف الأستار، وانفتحت بانفتاحه أمام عقل الإنسان ـ أبواب أخرى واسعة جدا للتأمل والتعلم .. وقف أمامها وأمام أسرار الكون رواد العلم الطبيعي ـ من نيوتن إلى أينشتين ـ حائرين محملقين في دهشة وإعجاب ممزوجين بالشعور بالضآلة وقلة ما لدى الإنسان من علم بأسرار هذا الكون .

هذا وربما استطاع الهمجي أن يحيا حياة معظمها بلا طعم متصل، لقلة حظه من المعرفة والتأمل . ولكن ذلك محال بالنسبة لمن نما وعيه وذكاؤه وأصبح يراقب باستمرار خط حياته وسيرها ككل، ويزنها ويقيسها ويقومها .. بما يلازم اطراد نمو وعيه من احتياج إلى جرعات أكبر من الإيمان .. تنشط طاقته الروحية ويواجه

---

* المال ٢٠١١/٣/٢٣

بها الشكوك والتساؤلات التى تقرع عقله بشدة وهو يطلع على ما يتاح له الاطلاع عليه من أسرار هذا الكون الفسيح المعجز .

فالإيمان أكثر ضرورة للإنسان الذكى شديد الذكاء واليقظة، وهو فيما يرى ويحدثنا محمد عبد الله محمد - ضرورى جدا لكى يحمل مع حياته القبول والرضا ويتحمل ما يصادفه فيها دون أن يتصدع من داخله .. ونمو الطاقة الروحية باطراد معناه نمو روح الآدمى .. ويحتاج هذا النمو الذى يشبه إيقاعه النغمة أو اللحن - يحتاج إلى وقت يتهيأ فيه للإنسان استيعاب روحه وقبولها لما يرد عليها من تغييرات مفاجئة أو طفرات لا تسمح له سرعة تواليها وكثرتها - بالعثور على إيقاع جديد يستوعبها، فتتقلص روحه وتتحوصل ما لم يوافها الإيمان بالمدد الذى يكرس قدرتها على الاستيعاب .

وتوافر هذا الإيقاع لا يمضى مع الإنسان على وتيرة واحدة .. فأحيانا ما يخبو أو يضيع، وأحيانا ما يستقيم.. على أن ظواهر الحياة النفسية تتوقف على توافر أو اتساق أو اضطراب هذا الإيقاع .. فإذا أسرع هذا الإيقاع أخذت بعض هذه الظواهر النفسية فى التغير أو الاختفاء .. يسرى ذلك على عواطف الرحمة والضمير والشعور الدينى والأخلاقى .. وعلى التضامن الاجتماعى والتعلق بالقيم العامة والمصالح العامة .. وعلى الإحساس الوطنى والمدنى .. فكل ذلك يتأثر حتما بتغير إيقاع حياة الناس أو اختلاله ..

وكما تصاب الظواهر النفسية بالاضطراب من النوائب أو الكوارث أو الملمّات أو الثورات، حتى لا يكاد الإنسان يعرف نفسه فى ردود أفعاله وتصرفاته، فإن هذه الظواهر النفسية تصاب أيضا بشىء يشبه ذلك حين يختل إيقاع الحياة بالإبطاء أو الخفوت للمرض الطويل أو الاعتقال أو السجن الطويل أو الإدمان وغير ذلك مما يطفىء لدى الإنسان أنوار حياته ..

وحياتنا العادية مليئة فى هذا العصر بالنشاز والتناقض .. لأن معظمنا لا ينظر إليها نظرة كلية، وإنما يتعامل معها نتفا نتفا ..يدفعنا إلى ذلك ضغط الظروف ومطالب عواطفنا ورغباتنا .. ونادرا ما نحرص على ضم هذه النتف أو الأجزاء أو القطع المتفرقة فى حياتنا لنراها رؤية كلية .. لذلك يتزايد الغمام وتتزايد الاحتكاكات والصدامات والخصومات والأحقاد ..

لذلك لا يلتفت معظم الناس إلى " المشاركة " التى يسهم الآخرون معهم فيها، ولا يقدرون هذا الاشتراك حق قدره .. ذلك لأننا نهمل النظر إلى حياتنا ككل .. ولو نظرنا إلى هذه الصورة الكلية التى نصدف عنها، لرأينا ما تضمه خطوطها الكبرى من معالم وروابط المحبة والصداقة وعلاقات التعاون وتبادل الخبرات والخدمات ورفقة الكفاح وصحبة الأوقات الندية ودفء المودّات .. ولأننا لا نلتفت هذا الالتفات فى معظم الأحيان، فإننا نعجز عن رؤية أو لا نقدر مسافة الطريق التى قطعها كل منا مع زوجه أو ذويه أو أصدقائه أو زملائه .. ولا نلتفت إلى أن هذه المسافة الطويلة - مسافة إنسانية جليلة عامرة بما تستحق من أجله الالتفات والإكبار . فقد أعطتنا وأعطت من رافقونا القيمة والمعنى الذى أنقذنا وأنقذهم من التفاهة والفراغ .

من الحماقة الشديدة أن نهمل الالتفات إلى ماضينا المشترك مع الآخرين .. حين لا ننظر إلى حياتنا إلا كأجزاء منفصلة لا خيط يربطها .. فندفع ثمن هذه الحماقة فى شيخوختنا أو فيما نلقاه من هزائم !

يلفت محمد عبد الله محمد إلى أن اللحظة التى يشعر فيها الإنسان بالرغبة فى الانطلاق من رق نفسه وشواغلها واهتماماتها برغباتها وهمومها . هذه اللحظة هى دائما نافذة على السماء وخطوة

ى الاتجاه إلى الله .. تسمح بالتأمل والاتصال به عز وجل .. اتصالاً
تجاوز الإنسان فيه ذاته وسحنه ويدير ظهره للدنيا التى كفلتها
لغرائز للحيوان .. عند دلك نرى الحياة رؤية صافية ونمسك
حقيقتها .. فتتجلى لنا معالم الطريق الذى يربط على قلوب
لمؤمنين ويقارب بينهم فى رحاب الله .

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

الطاقة الروحية فى القرآن

فى موسوعية وعمق، يتنقل الأستاذ الجليل محمد عبد الله محمد فى كل الدروب باحثا عما يدعم دعوة التقريب، فنراه يتوقف عند اللغة العربية، فينوه إلى أن العارف بها معرفة تسمح بتغلغل معانيها فى أعماقه، لا بد يدرك بغير صعوبة أن ألفاظ وتراكيب القرآن المجيد مختارة اختيارا غير بشرى .. ملحوظا فيه حمل أكبر شحنة من الطاقة الروحية يمكن أن تحملها الألفاظ والتراكيب . ففصاحة القرآن ليست فقط فصاحة فنية أو بلاغية، وإنما هى أيضا فصاحة روحية غير قابلة لأى تقليد .. مبناها اهتداء لا يخطئ إلى أعماق السامع أو القارئ ..

وشحنة آيات القرآن يحس بها القارئ أو السامع مع إحساسه بامتلائها بالحرارة والوزن والصدق .. وتصل إليه دفعة واحدة من عبارة الآية نفسها .. دون أن يحتاج إلى تحليل دقيق .. فشحنتها تنساب إليه مباشرة بلا صعوبة ولا عائق .. والله عز وجل لا يدين أو يهدى عباده بالعويص أو الصعب .. وهو سبحانه القائل : " هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ " (الحج ٧٨) .. فالدين يسر لا عسر فيه، ومسائل الغيب لا تدخل من باب العويص أو المشكل .. فليس يُنتظر من أحد فى هذه الدنيا أن يفهمها أيا كان ذكاؤه .. إنما المطلوب منا التسليم بها بإخلاص وترك علمها لعلام الغيوب ..

---

* العالم ٢٠١١/٣/٢٤

والدين ليس سباقًا فى الذكاء وإنما هو سباق فى الإخلاص والأمانة وحب الناس والاستقامة وفى الولاء بذلك كله لله عز وجل .. والدين يعادى الذكاء ولا يواليه وإنما يعرف خطره كما يعرف خطر المال على نفوس الناس .. فهو كالمال يميل إلى التسلط والسيادة وإلى إبطال المقدسات وتجريدها وقلبها إلى دعاوى بشرية سهلة الاستخدام والاستغلال .. بل يكاد ذكاء الإنسان لا يحب أن يسمع صوتًا لأحد فى الكون إلا صوت نفسه !

ومع أن قدرة الذكاء على التمثل والتصور واسعة جدا، إلاّ أنها كقدرة السمع والرؤية ـ محدودة بحدود قصوى لا تستطيع أن تجاوزها .. حتى مع معونة المراصد والآلات والأجهزة .. بينما قدرة الخالق تبارك وتعالى وغناه ـ يتجاوزان كل الحدود بما لا نهاية له .. ويتجاوزانها إلى ما لا يمكن قط للذكاء البشرى أن يحيط به أو يدركه !

ويبدو أن الطاقة الروحية الأصلية ـ وهى المعين للإطلال على هذه الغيوب ـ كانت عالية جدا عند المسلمين الأول، وأن تنشيط القرآن لها كان جارفا اكتسح ما كان عندهم من العادات والمعتقدات الشريرة الوثنية والمشركة .. ومع أننا وُلدنا فى الإسلام وشربنا من نبعه من طفولتنا، إلا أن طاقتنا الروحية الأصلية منخفضة بكثير عما كانت عليه هذه الطاقة لدى المسلمين الأول، وضعف بانخفاضها بل وخمولها ـ استعدادنا لسريان هذه الطاقة من القرآن إلينا وقل ـ تبعا لذلك ـ استفادتنا من الشحنة القوية التى تحملها آياته، ومن ثم لم يعد للقرآن لدينا ما كان له على الأوائل من تأثير فى السلوك مع الله والناس .

فالقرآن لا يعمل وحده بمجرد قراءته أو إذاعة تلاوته، وإنما تلتقى شحنته الهائلة مع ما لدى قارئه أو سامعه من طاقة قابلة

للتنشيط والتقوية .. فتنشيط هذه الطاقة الروحية لدى سماع أو تلاوة القرآن على قدر استعداد السامع .. فتحرك أعماقه كلها تحريكا عنيفا فى اتجاه الله .. وينشأ بهذه الحركة موحدة الاتجاه موقف موحد متميز، وتذوب كل الاعتبارات الفردية فى التيار الروحى الذى يسرى من القرآن إلى أعماق السامعين أو القارئين له .

ويلاحظ محمد عبد الله محمد، كما لاحظ الشيخ أمين الخولى، أن الإغراق فى التحليل الفكرى قد يقيم حول القرآن ركاما فكريا تتعثر فيه الأرواح، ويعوق وصول شحنة القرآن الهائلة إلى قارئيه .. وقد دخل تحليل الفكر من بابين مهمين فتحا له قلوب المسلمين وعقولهم، هما باب تنزيه الله عز وجل، وباب بيان إعجاز القرآن، ومن بيان إعجاز القرآن دخل الفن الأدبى واللغوى يعيّن للناس سلطان الفكر وحججه - ما هو الجيد فى مائدة الكتاب المجيد ولماذا هو جيد . وأحيانا ما يتم ذلك على حساب الشحنة الروحية التى قل الالتفات إليها .

وأكثر ما ضاق به أصحاب التحليل الفكرى تلك الآيات المفعمة بالحياة والروح من مثل قوله تعالى : " قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى " وقوله : " وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ " وقوله : " إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا " وقوله : " تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ " وقوله " وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ " وقوله : " وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا " ... وغيرها من الآيات التى أخذ محمد عبد الله محمد يستعرضها ليلاحظ كيف ضاق ذرع التحليل بأن تسند هذه الآيات إلى الرب (مع) و (فوق) و (اليد) و (اليدين) واليمين والقبضة والعين والأعين والسمع والرؤية والجوار والغضب والرضا والحب والود وما إلى ذلك .. وهى ألفاظ لا يلتفت المسلم العادى إلا لشدة حرارتها وشحنتها الروحية، ولا يحس بأنها غريبة

على الكتاب المجيد بل إنها أوفر طاقة وحياة وأمس رحما بالدين، وأدوات توصيل وتنشيط للطاقة الروحية التى إليها وعليها معقد الرجاء فى التقريب بين المسلمين .

✿ ✿ ✿

على هامش معالم التقريب*

مقاومة هبوط الطاقة الروحية

لا مراء فى أن شروح الفقهاء للعقيدة، عملية بشرية بها يختار بشر عبارات ـ عربية أو غير عربية ـ للتعبير بها عن تصور بشرى لأمور غير بشرية .. وهذه الصيغ تشير إلى الدين، ولكنها لا تعطينا دينا .. وإنما الذى يعطينا الدين حياتنا فيه وبه ..

والإسلام ليس فكرة ولا مبدأ من المبادئ بحسب اصطلاح العصر، والإنسان لا يدخل الإسلام أو يخرج منه باعتناق فكرة أو مبدأ .. إنما الإسلام حياة موالية لله فى اتجاه الله وكفى بالله جل وعلا هاديا ونصيرا .. وخارج هذه الحياة لا توجد حياة بالنسبة للمسلم السوى الذى لا يتصور حياة يحياها بشر بدون الله .

والشىء الجوهرى فى الإسلام هو الإرادة والعزم والموقف الذى يبنى عليهما إزاء الله جل شأنه بصدق وإخلاص وتأمين .. أما التدبير القرآنى ـ فيما يشير محمد عبد الله محمد ـ فهو جزء فى إنشاء الموقف، ومقدمة لتكوين الإرادة والعزم .. ولكنه يختلف عن التعمق الفكرى النظرى الذى يتعامل تعاملا معقدا مع المفاهيم والمجردات والمصطلحات والرموز .. وهذه الأغراض الفكرية قد تكون لها منافع غير منكورة ولا معترض عليها فى الإسلام، ولكنها لا ينبنى عليها شىء أساسى فى الدين .. إذ إن موالاة الله والاتجاه إليه عز وجل ـ لا ينطلقان من خلفية فكرية نظرية فى الإسلام بل هما

---

* المال ٢٠١١/٣/٣٠

الخلفية الحتمية الواجبة لفكر المسلم .. أياً كان هذا الفكر .. علمياً أو فلسفياً..

والإنسان النظرى لا ينمو لديه الإحساس بالحقيقة نمواً كافياً سليماً .. ووجود الناس بالنسبة له وجود فكرى نظرى لوحدات فكرية نظرية .. ليس بين وجودها ووجوده وحدة فى الواقع .. ولا محبة حقيقية .. بل ترى وجود الناس عنده أقل أهمية بكثير من انتصار الفكرة والمبدأ والنظرية .. ومثل هذا الآدمى الذى لا يعرف محبة الناس، بعيد عن الإسلام .. فهو جبار متحجر مستخف يعيش فى عالم آخر يتخيل كل ما فيه حتى الله - عز وجل على وفق فكرته ونظريته .. ولذلك فهو متعلق بعالمه الموهوم أشد من تعلقه بالحياة .

وكما يقال إن الكفن لا جيوب له، فإن الحياة ليس لها جيب تحفظ فيه الدراهم أو الدنانير .. فهى تنفق وتغتنى وتثرى من إنفاق الحياة .. أما الدين فهو قطعة من الحياة ينفق ويغتنى ويثرى من الإنفاق لا من إنفاق الحياة .. ولا شىء فى الدين يمكن إبعاده عن تيار الحياة مع بقائه حيا .. ومهما صنعنا فإننا لن نستطيع أن نختزن مزيدا من الدين فى الصيغ والأعمال الآلية الخالية من الشعور الحى !!

ويبدو أن ما ثار من خلاف فى تاريخ الإسلام وجدل بشأن ظاهر آيات الكتاب المجيد وروحها وباطنها، وتفسير وتأويل الآيات - يرجع بعضه إلى عدم التمييز بين الشحنة الروحية التى تحملها وتنقلها إلى المسلم المخلص، وبين ما يترتب على نقلها إليه من نشاط فى طاقته الروحية الكامنة . فإن هذا النشاط الروحى يجعل للآيات أصداء وإيحاءات فى قلب المؤمن، وكثيراً ما يحس البعض عند

سماعه آية معينة فى ظرف ما ـ وكأنها آتية بإرادة علوية فى هذا الموقف ليفهم منها هذا الفهم الذى وقع فى قلبه.

وهذا الفهم ليس تأويلاً أو تفسيراً للآية، ولا بياناً لمعانيها، وإنما هو شرح لتأثير عبارات للآية فى وجدان وعقل الناس .. أو هو تداعى المعانى الذى حدث على صورة منظمة عند المتأمل .. وليس لهذا الفهم قيمة تشريعية ولا معول عليه فى استنباط الأحكام الشرعية، ولكن فائدته الروحية عظيمة .. فهو باب واسع يدخل منه الأنس والطمأنينة والإحساس بالقرب إلى الله عز وجل.

وهبوط الطاقة الروحية يرجع فيما يبدو ـ والله تعالى أعلم ـ إلى ثقافة الحواجز التى تقام حول مستويات هذه الطاقة الإلهية التى فى داخلنا . وهذا الهبوط أو الخفوت فيها أو خمولها ـ علامة مرضية تعنى تزايد الحواجز الكثيفة حول الطاقة الروحية .. وفى مقدمة هذه الحواجز قبولنا للقبح وامتصاصنا له والعودة إلى إفرازه وتنميته ونشره . فعدم نفور الآدمى من القبح خلل جسيم فيه، بل هو نوع من العمى الداخلى يفقده التمييز بين ما يجمل وما لا يجمل .. وبين العدل وبين الظلم .. وبين الحق وبين الباطل !

وقد يحاول البعض تحصين حياته من هذا القبح بالالتجاء إلى الأشياء التى يظنها جميلة، فيتزين أو يتحلى بها فى ملبسه أو فى سكنه .. وقد يلجأ البعض إلى العقاقير والكحوليات للتخلص من وطأة الشعور بالقبح .. ولكننا ننسى أن السلاح الأعظم فى مقاومة القبح ـ هو جمال أرواحنا .. أى طاقتنا الروحية .. وننسى أن أهل الله عبر العصور ـ رضى الله عنهم ـ عاشوا على ما يتدفق فى داخلهم عامرا بالجمال والكرامة .. لم يغيرهم الزهد ولا قلة الرياش أو خشونة الفراش أو تواضع البناء وانعدام الفخامة والأبهة !

ويستطيع المتأمل أن يلاحظ التناسب الطردى - فى عصرنا - بين خفوت الطاقة الروحية وبين الاستعاضة عنها بالأشياء والمقتنيات الجميلة لمدافعة القبح !!

وقد لوحظ ذلك بالعصر الوسيط فى أوروبا، بالإغراق - حين تراجع الإيمان - فى مظاهر الأبهة والفخامة والزخارف فى القصور وفى الكنائس والأديرة، بزعم أن الإنسان يستطيع أن يشهد جمال الله فى جمال هذه الأشياء !

يبدو أنه كتب على الأحياء أن يمشوا دهوراً وهم أنصاف نائمين .. غافلين عن أن اليقظة ليست مطلوبة فقط لبداية الحركة أو نهايتها، وإنما هى ضرورية لارتقاء الحياة واكتمالها ودفعها من الآلية خالية من القصد الواعى، إلى الإرادة المليئة بالوعى والحرية.

إن دنيا الأحياء مليئة بمخلوقات تتحرك وتتكرر من مولدها إلى مماتها وهى مغمضة الروح والعقل .. وأشباه هؤلاء العميان هم الكثرة الكاثرة فى دنيانا .. لا تمضى حياتهم على ما فيها - إلا بكفالة العناية الشاملة لله عز وجل، تقودهم برحمتها لتجتاز بهم مراحل متفاوتة ليقل فيها الميل إلى العمى العام والغفلة شيئاً فشيئاً، وليزداد الميل العام إلى اليقظة والإبصار شيئاً فشيئاً .. لأن تاريخ البشر يتوقف على تحول هذا الميل العام وتثبيت تحوله فى أعماق غالبية الآدميين .

✿ ✿ ✿

على هامش معالم التقريب *

نور الله فى الآدميين

يلاحظ محمد عبد الله محمد، أنه فى فترات الركود ـ يختفى الفارق بين الإسلام كقوة روحية دافقة جاذبة، وبين الإسلام كمجموعة من الفروض والأوامر والنواهى .. وهذا الفارق فارق أساسى يشبه الفرق بين الوقود أو القوى المحركة للآلة، وبين أجهزة الحركة والضبط والتوجيه ..

فالنداءات الموجهة من النماذج الإسلامية الكاملة القليلة، لمخاطبة الكثرة وتحريك أعماقهم فى اتجاه الله ونحو الحق والخير ـ هى نداءات روحية لا تؤدى وظيفتها الأوامر والنواهى والمواعظ .. والدين الذى يكف عن إنتاج الأولياء والقديسين والأبطال الحقيقيين ـ يتدهور ويجدب . يجب أن يرى الناس دين الله ونوره فى آدميين، وهم حين يرونه فيهم لا يحتاجون بعد ذلك إلى استدلال وبرهان ووعظ .. فهذه النماذج من الأولياء والقديسين والأبطال ـ هى بشائر الخلافة فى أولاد آدم، وطلائع لمجيء سلالات آدمية أكثر حيوية وشجاعة ونبلا .. وهى بشائر وطلائع لنقلة عظيمة للنوع الإنسانى نحو البصيرة وصدق الولاء لله عز وجل .. لا بد أن تعبرها الكتلة والسواد كيما يصبح الإنسان جديرا بمعبوده ..

الناس فى غمرة أهوائها ومخاوفها وأطماعها، لا تعبد الله إلاَّ على المجاز الذى يسعه فضل الله تبارك وتعالى .. والدين الحى وسيلة إلهية

* المال ٢٠١١/٣/٣١

نحشد أشواقنا وطاقاتنا وتقويها عسى أن تبلغ من الحرارة والعمق والاتساع درجة تنفتح لها مغاليق الأقدار وتنهل فيوض الرحمة وتقع الاستجابة فتنشق الأرحام عن ذرية نفسية لآدم يتوافر فيها النبل الذى ينفذ به آدم وعده المقطوع لله كما شاء الله .

إننا لم نعد نشعر بقيمة الفضيلة والأخلاق والصدق والإخلاص والحقيقة ـ إلا فى أوقات الشدة والأزمات ومع شعورنا بالنقص والخوف والخطر .. فهل فى هذه الفضائل ما يربطها بوظيفة المقاومة والنجاة ؟! وهل لكى يصير الناس فضلاء وعقلاء ـ يجب أن يعودوا فقراء ؟! ولماذا يصاحب الغنى والمترفين فى الرخاء ـ لماذا يصاحبهم عادة نقص فى الإخلاص وضبط النفس ؟! ولماذا لا نشعر بالاحتياج إلى الله إلا فى أوقات الشدة، فإذا شملنا الرخاء لم نعد نحس بالاحتياج إلى الله فنساه سبحانه مثلما ننسى الناس ! ولا يفوت أن مصلحتنا الشخصية هى المحرك لنا فى الموقفين .. أقبلنا عليه سبحانه واتجهنا إليه أم أدبرنا !!

ومن الوهم الصرف، شعورنا فى بعض الأوقات بالأمن المطلق .. وهذا الوهم يتسبب دون أن ندرى فى هبوط الطاقة الروحية لدينا .. تماما كما يتسبب فى هبوطها شعورنا باليأس أو بفقدان الأمل .. ففى الحالين نشعر أننا وحدنا فى الوجود . لا نرى إلا أنفسنا، إما أغنياء مستعنين تارة، أو أغبياء مستغنين عن أى نصير !!

إن أهم ما فى الدين ـ وهو الإيمان بالله ـ ليس قاعدة ولا فكرة، وليس موضوعا نظريا للتعلم النظرى وتبادل التعليم والفهم بين المعلم والمتعلم ! فالإيمان إحساس داخلى عميق وانكشاف واكتشاف ووعى لشىء مجهول مع بقائه مجهول الكنه، وتمسك بشىء غير قابل للتصور .. مع أنه قابل لأقصى درجات التصديق ..

" كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ " (عبس / ١١)، " وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ" (القمر ٤٠)، " ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ "(الزمر ٢٣) " وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ "(الرعد ١٣) " تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا " (السجدة ١٦) ..

وغيرها من الآيات الكريمة التى ـ رغم اختلاف الألفاظ ـ توقظ العقل والضمير وتتداعى بالتشابه والتذكر .

نعم . الإيمان ثقة وليس علما أو معرفة مما يعلمه العقل أو يتعلمه .. إنه شىء خلف العقل وخلف الإرادة يقويهما فى اتجاه معين . والإيمان لا يجعل المستقبل حاضرا، ولا يوقع صاحبه فى حالة غيبوبة ينسى فيها دوافعه وتوالى أحداثه المؤلمة وغير المؤلمة . وهو لا يحول الحياة إلى تمثيلية معروفة الخاتمة أو النتيجة مقدما .. ومع أنه لا يضمن سلامة البدن وراحة البال ولا عدم انشغال القلب ـ لكنه يضمن سلامة الإرادة والتصميم والوثوق الهائل فى صحة الاتجاه .

الإيمان الذى يومئ إليه محمد عبد الله محمد ـ هو أن يمنح الإنسان ثقته كاملة .. بلا شرط ولا تحفظ . وهذا يستوجب أن نكون قادرين على الإعجاب الشديد والاحترام الشديد والحب الشديد .. قادرين على أن نملأ بكل ذلك أفقنا .

والمهم فى العقيدة ـ هو جدها فى نظر أهلها، واعتناقهم إياها فعلا لا كلاما فقط، واختلاطها بحياتهم وسلوكهم الجاد وتغلغلها فى عاداتهم النافعة .. وشاهد صحة العقيدة هو حياتها وحياة

أصحابها .. فإن ضمرت أو فترت انصرف أهلها عنها مهما حاول رؤساء العقيدة الدفاع عنها أو تشديد قبضتها على أفكار أتباعها .

وعلاقتنا بالله عز وجل، وما أنزل إلينا، هديٍ إلهى - توقيفى .. مجيئه من الله تعالى غيب لا نعرف منه إلا ما عرّفنا هو ورسوله به .. والمقصود الأول والأخير للأوامر والنواهى والإشارات والتنبيهات هو خدمة الهدى الإلهى وبلاغه إلى غايته .

والمشكلة بالنسبة لأغلبنا هى فى نقص الالتفات .. فالشاغل الذى يشغلنا عن الله دون أن نشعر - هو شىء يبعد التفاتنا إليه عز وجل .. فحس ونتصور ونعزم ونعمل ونتعامل بعيداً عن التفاتنا لوجود الله تعالى وحضوره، ونتوهم دون أن نقر لأنفسنا - أننا نستطيع ألا نفكر فيه ونستطيع أن نعالج أمورنا دونه جل وعلا .. وأمثال هؤلاء - وهم كثُر فى هذا الزمن - يعيشون معظم أوقاتهم خارج الالتفات إلى الله عزوجل .

و الالتفات إلى الله عز وجل - لا يلغى القوانين الاجتماعية والطبيعية ولا يتجاهلها، وعلى العكس فإن الالتفات إلى هذه القوانين فى ذاتها لا يغنى عن الالتفات إلى الله تبارك وتعالى .. و الالتفات إلى القوانين وحدها دون الاتجاه إلى الله - يحبس أرواحنا التى لا تستغنى عن المطلق ومحاولة الاتصال به .

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

من آثار الطاقة الروحية

يعود محمد عبد الله محمد، فيكرر أن الطاقة الروحية التى يتحدث عنها - ينتسب إليها أصل وتطور كل علم وفن وفكر .. وأنه بمعونتها اكتشف الإنسان معظم هذه القوانين والنواميس وصيغها الرياضية التى تمثل حدس وتصور الإنسان لهذا النظام العاقل المعقول الذى يسود العالم الطبيعى .

فكل الظواهر التى يحفل بها الكون، تمضى فى فلكها المرسوم، وتؤدى دورها، دون أن تعى أو تدرك معنى هذا النظام ودورها فيه .. فالرياح تهب فى جميع الاتجاهات، والأنهار تجرى، والبحار تموج وتذخر بما فيها، والأرض والأفلاك تدور، والشمس تضئ، والقمر يعكس ضوءها، والكواكب تطلع وتختفى، والنباتات تنبت، والحيوانات تولد وتموت .. ولا تعرف شيئا من ذلك كله، ولا معناه، ولا النظام التى هى جزء منه .. لا يعرف ذلك إلا خالقها سبحانه الذى خلقها وأبدعها ويعرفها أكمل وأدق معرفة .

وذكاء الإنسان يدفعه بروحه العظيمة إلى محاولة إدراك ما يدور حوله .. والاتصال بالحق تبارك وتعالى اتصال العبد بالمعبود، والعويلم بالأعلم، والعويقل بالخبير الحكيم الأعلى، والشرارة الصغيرة بالروح الأكبر .. اتصال المخلوق بالخالق .. بسيده ومليكه ومالك كل شئ .. اتصال حوار توقيفى .. يبادل فيه مَنْ لا حد

---

* المال ٢٠١١/٤/٦

قوته ومقدرته وحكمته ـ مَنْ لاحد لـضعفه ولا لـشوقه إلى الفهم والحرية .. وإلى الود والمحبة .. فى هذا الخطاب يقدم العبد المخلوق الصغير إلى ربه عز وجل الخالق الكبير المتعال ـ يقدم حسابا عن روحه وما خلصت به وانتهت إليه .. حسابا لا بد منه لكى يتسق فى روح الإنسان معنى العدل وقيمة الحرية والحق .

يلاحظ محمد عبد الله محمد ـ أن من أسباب هبوط الطاقة الروحية ومن نتائج هبوطها فى ذات الوقت ـ انشغال الناس بالعرضى الوقتى عن الدائم الباقى .. زاد ذلك أن الحضارة الحالية شغلت الناس بزحام العرضى فى يقظتهم وفى أحلامهم .. حتى صار العرضى هو الأصل الشاغل للحياة من حولنا، ومن كل جهة، يملأ النفوس واهتمامات وخيالات الناس ويصرفهم صرفا عن الدائم الباقى !

صار العرضى هو العملة العالمية الحقيقية الآن ..وشمل ذلك الأشياء والشهوات والرغاب التى تتقاسم عقول وعواطف واهتمامات معظم الناس .. وميزة هذا العرضى فى عيونهم أنه ميسور المنال لإرضاء فرديتهم ورغائبهم وخيالهم وحبهم لذواتهم .. ومناسب لإظهار قدرتهم ومهارتهم مع شوقهم إلى استعجال التغير وسرعة الوصول إلى النتائج السهلة البراقة .. وهو مجال يغرى بإرضاء الذات وإبراز الشخصية !

ونحن نتوهم فى انسياقنا للعرضى أننا نزيد حريتنا وسعادتنا ونعطى حياتنا أبعادًا واتساعًا .. وهذا وهم كأبنية الرمال ..ولا ندرك أن انحصارنا فى هذا العرضى الزائل يصير عرضًا وقتيا نسبيا هو الآخر .. ويفقد مع الوقت قيمته لدينا . ونحن كأفراد لا نتصور أنه فى مقدورنا أن نصنع شيئا دائما باقيا .. وهذا وإن كان صحيحا فى الأشياء المادية، إلا أنه غير صحيح فى غير الماديات وفى أمور الروح

وفى قضايا الإنسان الكبرى . وأثر الفرد يتجلى فيمن حملوا الرسالات والنبوات وفى العباقرة الأفذاذ وفيمن حققوا البطولات والإنجازات .. هؤلاء كانوا أفراداً وسيظلون أفراداً إلى ما شاء الله ..

يلاحظ محمد عبد الله محمد أنه يوجد فى الطاقة الروحية شىء يشبه مجالات التأثير المشاهدة فى ظواهر الطاقة الطبيعية .. ويوجد نوع أو أنواع من المجالات تقوى فيه طاقتنا الروحية الكامنة وتشتد ..منها على سبيل المثال بعض مشاهد الطبيعة الحيّة وغير الحيّة .. ومنها بعض أشكال الطقوس والمراسم .. ومنها بعض الآثار والإنشاءات كالمعابد والمزارات . أو التجمعات كالحج وصلوات الجماعة ..

والطابع المشترك فى هذه المجالات ـ أنها على خلاف مجالات الطاقة الطبيعية، لا تعمل بصفة آلية مباشرة فى الجزئيات والذرات ومكوناتها .. وإنما تعمل فى طاقتنا الروحية الكامنة وفى وعى الإنسان وعواطفه، فى الطرق الموصلة من خارج الإنسان إلى أعماقه .

والقرآن المجيد يضاعف فى بيانه الرفيع من تأثير مشاهد الطبيعة بالتذكير القوى البليغ بها ..

" وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ " .. " وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ " .. " وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا " .. " وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى " .. " وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ " .. " تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ " .. " وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن

بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ " .. " وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا " ..

ومن يتأمل فى هذه المشاهد، ويرقب الشجرة، يجدها تمد أوراقها وأغصانها إلى ضوء الشمس .. وتشغل مكانًا مقدرًا لها من قبل فى الأزل، وتبسط مع الأوراق والأغصان ما هو مطلوب وتحتاجه الحياة منها .. تثمر ثمارها وتورف ظلها وتهيّئ للطيور أوكارها وأعشاشها .. وفى مساقط الأمطار وحرارة وعرى الخريف وبرد الشتاء .. كل شىء فيها محسوب بدقة .. وهذا النظام والتنظيم والتقدير رحمة فى نظر الإسلام .. مبنية على رحمة . وآية من آيات الخالق الذى تتجلى رحمته فى إبداعه وصنعه وتقديره وترتيبه .. فلا تصافح قدرة الله مخلوقاً دون أن تصحبها رحمته .. وهذه الرحمة هى جسر يسع الناس جميعًا .. ممدود من الأزل إلى الأبد .. عليه يلتقى المؤمنون بلا واسطة .. فى اتجاه الواحد الأحد، الملك القدوس، العزيز الجبار .. سبحانه وتعالى .. رب العالمين .

✿ ✿ ✿

على هامش معالم التقريب *

ما تبثه الطاقة الروحية

فى الإسلام ـ رحمة الرحمن، ليست رحمة نظامية إحصائية للمجاميع والأنواع فى عمومها الذى قد يشبه نفع المرافق والخدمات العامة والمزايا الاجتماعية، وإنما رحمته سبحانه وتعالى ـ رحمة حيّة موجهة قصداً إلى إنسان حىّ .. تعرفه الرحمة تماماً وتقصده قصداً .. يلفت محمد عبد الله محمد إلى أن هذه الرحمة ليست معنًى مجرداً، ولا تقف عند المجردات، بل هى رحمة من الله الحىّ القيوم، لا تشبه علاقة الدول أو الحكومات أو الأوطان لشعوبها، أو علاقة الأحزاب بأشياعها ـ وإنما تشبه إن جاز التشبيه لمجرد التقريب، تشبه فى حرارتها واختصاصها رحمة الأم أو الأب أو الصديق الصادق ..

والله تبارك وتعالى لا يعامل عباده بالجملة على أساس إحصائى من باب الاقتصاد الذى يجرى عليه البشر والحكومات توفيراً للجهد والمال، فهو جل شأنه أعظم وأغنى من أن تخضع رحمته إلى هذه القياسات ..

" أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ " (ص ٩) .. " وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ "

---

* المال ٢٠١١/٤/٧

المنافقون ٧) .. " وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ " (الحجر ٢١) ..

وكثيرًا ما ينسى معظم الناس أهمية الطاقة الروحية حينما يعترض فكرهم على الأشكال والطقوس والمراسم،لأنهم لا يرون منها إلا الجانب الآلى وما ينفق فيها من جهد، ولا يتعمقون روحها ومعانيها ولا يلتفتون إلى تنشيطها للطاقة الروحية الكامنة فى كل منهم . وهذه الوظيفة تجاوز فى قيمتها وأثرها ما ينفق فى الطقوس من وقت وجهد أو مال .

كذلك الآثار والإنشاءات، من مساجد وجوامع ومزارات .. فهى قد تكون مجالا لتأثيرات قوية تنشط الطاقة الروحية وتقويها، ونجاحها فى ذلك يعوض وزيادة ما أنفق فيها أو عليها .

والتجمعات الدينية ليست مجرد احتشاد وازدحام، وإنما هى نية وقصد وإرادة واتجاه إلى الله عز وجل .. ولا يتحقق ذلك إلا بتمثل هذه المعانى التى هدى إليها القرآن المجيد ونبه إلى وجوب تنقية هذه التجمعات الدينية مما يفسدها .. فيقول رب العزة : " فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ " (البقرة ١٩٧) ..فكل من هذه الشوائب يعارض بل ويقاوم الطاقة الروحية، ويفسد القصد والمناخ المناسب لها .. وإذا فشا أى من هذه الشوائب فى أى تجمع دينى - مزق روح وحطوط قوى التجمع وأبطل أو قلص تأثير الطاقة الروحية، من أثر التدافع والتصارع على المناسك وأماكن العبادة أو المشاهد .

حين يسلم التجمع الدينى من الرفث والفسوق والجدال، يتخلص من المعوقات ويصبح مجالا قويا للتأثير .. يتوقف حجم وشدة قوته على كثرة العدد وتشابه المشتركين فى المظهر والنداءات

والابتهالات .. يسهم فى ذلك نشاط الطاقة الروحية الكامنة التى تسرى من الفرد إلى المجموع، وتتزايد قوتها وأثرها بالتضافر بين المشتركين فى المراسم بل ولدى المشاهدين لهم .. وفى الأثر : " إن لله آنية من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين .. وأحبها إليه سبحانه ـ ألينها وأرقها " ..

والإنسان جيد التوصيل للطاقة الروحية ـ هو آنية الله .. يألف الناس ويألفونه .. ويحبهم بإخلاص ويحبونه .. لأنهم يجدون عنده راحة الخاطر، والأمل والثقة . وأمثال هؤلاء الذين وهبوا اللين والرقة، الآلفين والمألوفين، قال فيهم الحديث الشريف : " المؤمن آلف ومألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف ". أمثال هؤلاء شاءت رحمة الله ألا تخلو الأرض منهم .. تقل أعدادهم أو تزيد تبعا لمقدار ترحيب البيئة بهم ..

يُروى عن أبى بكر الصديق ـ أنه وصف أبا عبيدة بن الجراح لمن يسألوه النصح والتوجيه، فقال لهم : " عليكم بالهين اللين، الذى إذا ظلم لم يظلم، وإذا أسِىءَ إليه غَفر، وإذا قطع وَصَل، رحيم بالمؤمنين .. عليكم بأبى عبيدة بن الجراح "

والإنسان اللين الخلق، الآلف المألوف، إنسان موهوب، حظه من الطاقة الروحية كبير وكثير .. فهذه الطاقة الشديدة هى التى تعطيه هذه القدرة الفياضة على التواصل مع الناس، دون أن يضيق صدره أو يعيل صبره أو يفتقر حلمه ..

يرى محمد عبد الله محمد أن هذا الإنسان لا تتناهى مجالات تأثيره التى تنشط فيها طاقته الروحية، وينطلق منها جانب حر على هيئة تيار روحى متتابع النبضات .. يختلف شدة حسب الأحوال إلى من يتصلون به أو يقتربون منه .. فالعبادات الفردية والصلات

الاجتماعية العادية ومصافحة الأيدى لأيدى الناس وقلوبهم وعقولهم .. مجالات تأثير تنشط فيها الطاقة الروحية فائقة الوفرة .. بل إنها تنشط لمجرد سماع الألفاظ والعبارات وأصوات الأدعية أو الضراعات أو الابتهالات والترتيلات ..

وفى هذا الباب تختلف قوة الموهبة والعطية الإلهية .. ويتدرج صاحبها ارتفاعا فى نعمة الله تبارك وتعالى وفضله، إلى أن تصير ذكراه - أى تذكره حيًا أو ميتًا - مجالا واسعًا وقويًا فى ذاته لتنشيط الطاقة الروحية لدى محبيه أو لدى من يتذكره أو يذكر أمامه من عباد الله العاديين المستورين . وهذه العطايا الإلهية، هى باب غير مباشر للتقريب بين المؤمنين الذين يتلاقون بغير ترتيب ولا قصد على مصادر إشعاع هذه الطاقة الروحية التى تأتلف وتتجمع عليها القلوب .

على هامش معالم التقريب *

وملة إبراهيم

مع كل ما أنجزته البشرية من تقدم فى جميع المجالات، فإن التعامل مع غير الحسيّات لا يزال صعبًا بل ويزداد صعوبة على كثير من الناس !

ذلك أن البشرية عاشت دهورًا طويلة تكاد لا تتعامل إلاّ مع الحسيّات الملموسة أو المرئية أو المسموعة .. ومن أجل ذلك تهيبت التعامل مع القلة التى كانت تتعامل أو تدعى التعامل مع غير الحسّى . وكادت هذه القلة أن تكون معزولة عن جمهور الناس، سواء فى المعابد أو المحاريب أو المراصد أو المكتبات ..

إلاّ أنه فى أحضان تلك القلة ـ نما مع الوقت التأمل والتفكير فى الكون والمصير، ونمت بين جماعات المتأملين تصورات متقاربة غير متماسكة لما يشبه ـ فى البدايات ـ أن يكون دينا .. ونقول يشبه لأنه كان مزيجا من إرهاصات التدين ومن الفلسفة، خالطه ـ أى المزيج ـ نوع من الترفع والكبرياء يناسب العقول المتعالية التى جاورت فى تطورها كتلة الناس، وفتحت الطريق للتأمل الذى قاد إلى هذه التصورات إزاء الكثرة الملتصقة ـ بشدة وإصرار ـ بالوجود المادى حتى فى تصورها للحياة الآخرة، وفى تمثلها لما هو دين وما هو دينى .

---

* العالم ١٣، ١٤، ٢٠١١/٤/٢٠

كانت هذه هوة واسعة بين الدين غير الحسّى الذى يفهمه المتأملون، هكذا يقول محمد عبد الله محمد، وبين ما يدين به بقية الخلق .. وبقيت تلك الهوة موجودة وتزداد اتساعًا دون أن تتأثر لا بالتحضر ولا بزيادة العمران، ولم يعن المفكرون بإزالتها بل صار هناك قبول لتلك الهوة كأنها من سنن الوجود وطبائع الأشيا، أو إن شئت كانت سمة من سمات العالم الوثنى .

جاء الإسلام فاتحة للوجدان والضمير تكسر هذا الفارق، لأن كل شىء فى الإسلام يبدأ من الاتجاه إلى الله وينتهى إليه .. واتجاه الناس إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس مجرد فكرة كما قد يتوهم البعض، وإنما هو حركة حية لأحياء .. يدعون أحياءً آخرين إلى الإله الحى .. بيد أن الاتجاه إلى الله عز وجل لا يرتبط ببيئة من البيئات الحاضنة له فى بداياته ارتباط تلازم ودوام، ذلك لأن الاتجاه إلى الله تحرر وانطلاق إليه سبحانه .. غير مثقل بأى أرضيات أو بأى أشياء أرضية موجودة أو كانت ثم فنت .

ينتقل محمد عبد الله محمد انتقالاً مقصوداً إلى إبراهيم الخليل عليه السلام، فيلفت إلى أنه وملته فى منتهى الأهمية للإسلام، بل ولكافة الأديان السماوية ..ونحن كمسلمين نعتقد فى ملة إبراهيم ونرى أنها هى هى ملة الإسلام .

ورسالة إبراهيم عليه السلام ـ ركزت جوهر الدين فى الاتجاه إلى رب العالمين وحده لا شريك له .. وهو اتجاه عام مطلوب من المفكر وغير المفكر .. ومن المتعلم والجاهل .. ومن الغنى والفقير .. ومن القوى والضعيف ..ومن الصحيح والمريض .

فالإسلام يلتقى مع ملة إبراهيم عليه السلام، فى أنهما دين غير حسّى .. مفتوح الأبواب لكل الناس.. الدعوة إليه تتجه إلى كل ما

لدى الآدمي من العقل والضمير .. فذلك يجعله يحب الحق من قلبه ويكره الظلم .. والإنسان يجد نفسه حتمـا علـى طريـق الله ـ كلمـا قوى نفوره من الظلم وازداد حبه للحق .

لا يحتاج الإنسان إلى علم كثير لكي يستقيم داخله فيجد نفسه على طريق الله، وليكـون حنيفـا مسلمًا ـ كتعـبير القـرآن المجيـد . فيكفى الإنسان أن يعتاد نوع اعتيـاد علـى الإنـصات لنـداء فطرتـه الإنسانية، وأن يتخلص من ضجيج وصراخ الغريزة الحيوانية ـ ليجد نفسه مكلفا مسئولا مدعوا إلى الله جل وعلا .

إن الله فى ملة إبراهيم، وهى دين الإسلام، وجهـة الكـل .. لأن الاتجاه إلى الله دين الفطرة .. والإسلام ـ كملة إبـراهيم الحنيـف ـ لا يطرد أحدًا من مائدة الله، فلا يزدرى أحدًا أو يـستبعده لأنـه جاهـل من بيئة جاهلة مزدراة .. فهذا أعمى أحق بالنور . روحه ظامئة أولى بالارتواء .. وفي القرآن المجيد على لـسان نـوح لقومه : " وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُو رَبِّهِمْ وَلَـكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُـونَ * وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ " (هـود ٢٩، ٣٠) .. وفى أهـل الكتـاب : " وَمِـنْ أَهْـلِ الْكِتَـابِ مَـنْ إِنْ تَأْمَنْـهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِـدِينَارٍ لا يُـؤَدِّهِ إِلَيْـكَ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَـيْسَ عَلَيْنَـا فِـي الأُمِّيِّينَ سَـبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَـى مَـنْ أَوْفَـى بِعَهْـدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ " (آل عمران ٧٥، ٧٦) .

يتوقف محمد عبد الله محمـد ليقـول نعـم : إن الأمـيين قـادرون على الحب بألوانه ومكوناته، وكلما زادت ألـوان الحـب ومكوناتـه، زاد رضا الله عن الإنـسان والإنـسانية . ولأن الآدمـى يـدرك الظلـم ويمقته بفطرته، فإنه أهل بهذا لأن يضع يده فى يد الله عـز وجـل .. والدعوة إلى الحق والحب ـ دعوة مفعمة بالأمـل .. حاولـت وتحاول

كسر احتكار الفكر المتكبر الذى يستبعد من رحابه سواد الناس .. وهذه الدعوة المفعمة بالأمل لا تزال من عهد إبراهيم عليه السلام - لا تزال دعوة جديدة لم تهرم أو تشخ ولم تفقد جدتها رغم كثرة السنين والهزائم !

إن ملة إبراهيم هى ملّة الإسلام، وإسلامه عليه السلام هو إسلامنا .. وفى القرآن المجيد :

" وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ " (البقرة ١٢٧ - ١٢٩) .

* * *

يقول القرآن المجيد :

"وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ* إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ* وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ*أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ " (البقرة ١٣٠ - ١٣٣)

ويخاطب الكتاب المجيد ـ النبى عليه الصلاة والسلام فيقول له :

"قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ".. (الأنعام ١٦١)، وفى خطابه للمؤمنين، يقول رب العزة : "... هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ ..." (الحج ٧٨).. ويقول جل وعلا لرسوله المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم : "ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" (النحل ١٢٣) .. وفى خطاب عام لا تخطئه بصيرة، يقول القرآن المجيد: "وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً" (النساء ١٢٥)..

من يتأمل هذه الآيات القرآنية يفهم أن دين الله واحد، وأن كراهة الظلم وحب الحق ـ تصب فى اتجاه الإله الواحد .. تبارك وتعالى رب إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب وموسى وعيسى ومحمد .. ومن أحب الحق بكل صورة كان على دين إبراهيم ومحمد وشجرة الأنبياء والرسل .. ولا يغيب عنه شئ وهو فى رحاب ربه الذى قال الكتاب المجيد عنه :

"اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ

بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ" (البقرة ٢٥٥).

إن الدين يفتح أبوابه كلها للبسطاء، كما يفتحها لجميع خلق الله .. وهو يعتنى بالبسطاء ـ وهم كتلة البشر ـ لأنهم قادرون على سلوك الاتجاه إلى الله والمحافظة عليه .. دون تعقيد ودون حواجز.. أما تصور أمور الآخرة، فليس فى وسع أحد أن يتصورها تصورا مطابقا لحقيقتها وواقعها مهما بلغ ذكاؤه وعلمه.. يكفى المسلم فى ذلك أن يعتقد فى أعماقه أنه لا نفع بعد الموت لغنى أو ثراء، أو ملك أو سلطة أو جاه أو مجد أو نفوذ أو سطوة أو قوة مما يتنافس عليه الناس فى الحياة الدنيا"..

لا شيء فى الآخرة يخضع لما نقيمه فى الدنيا من سدود وقيود وحدود .. والمؤمن يدرك أن الموت انطلاق وانعتاق، وليس خسارة ولا فقدا ولا ضياعا .. إنه انطلاق يرشدنا محمد عبد الله محمد إلى أنه إلى عالم الوفرة والرحمة . ونفهم الوفرة حيث لا مجال فى ظل الوفرة لما يتنافس عليه الناس لإشباع حاجاتهم فى مجتمع الندرة، حيث لا يفى المتاح بمطالب ورغبات الكل، بينما لا شيء محجوب فى ظل الوفرة .. لا مجال للاستحواذ ولا للاستئثار ولا لقوانين القلة أو المحدودية .. ونفهم الرحمة حين ندرك أنه لا مجال ولا قابلية فى الآخرة مع رحمات الله ـ لا مجال للتناحر ولا للفساد والإفساد .. رحمة الله تتجلى آياتها فى الآخرة فى إنحسار كل أسباب التنافس والتسابق والشحناء والاقتتال والحسد والبغضاء .. وعد الله تعالى لنا بآخرة خالية من كل هذه التناقضات، موفورة وفرة لا آخر لها يضمنها الغنى الحميد البر الرحمن الرحيم الذى لا حد لغناه سبحانه وقدرته وبره ورحمته.

ومن يتأمل فى آيات القرآن المجيد التى تحدثت عن الجنة، يدرك جيدا كيف أنه فى ظل قانون الوفرة والرحمة تفقد المرغوبات الدنيوية كل أسبابها للشقاق والتناحر..

" مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ .." (محمد ١٥).

" عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ* مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ* يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ* بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ* لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ* وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ* وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ* وَحُورٌ عِينٌ* كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ* جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا* إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا* وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ* فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ* وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ* وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ وَمَاء مَّسْكُوبٍ* وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ* لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ* وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ* إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء* فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا* عُرُبًا أَتْرَابًا" (الواقعة ١٥-٣٧).

بهذه الآيات وأمثالها، نعرف من القرآن المجيد أن الله تعالى وعد البشر فى ظل قانون الوفرة والرحمة ـ بما يتطلع ويرنو إليه البشر، وأن آياته سبحانه فى وصف الجنة ـ كما فى وصف النار ـ توكيد لخلود بشرية الإنسان بنسيجها الشعورى والعقلى، والله تعالى أعلم، وسبحان من له الملك والدوام.

لا يخطئ القارئ المتمعن اتساع رسالة التقريب التى ينشدها محمد عبد الله محمد، حين يراه ينتقل نقلة مهمة يشير فيها إلى أن أهل الأديان السماوية يقرون ملة إبراهيم، ويتفقون على أنها قد خلت من الخلافات والأحداث والمشاكل التى امتلأ بها تاريخ النصرانية الطويل، وتاريخ اليهودية الأطول .. وفى القرآن المجيد:

"مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا" (آل عمران ٦٧) .. ويقول جل وعلا فى نفس السورة : "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ" (آل عمران ٦٥)..

وبهذا ومثله يشير الكتاب المجيد إلى أن المسلمين لا يعبدون تاريخا، لا تاريخ أمة ولا تاريخ دولة، ولا تاريخ مذهب أو فكرة .. إنما يعبدون الخالق عز وجل . وليس للخالق ـ سبحانه ـ تاريخ ذاتى. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .. ولكن له سبحانه على مخلوقاته وعباده أفضال ونعم سابقة وأفضال ونعم لاحقة، وله عز وجل آيات فى السموات والأرض وما بينهما، أما موقفنا نحن من الله جل وعلا ـ فهو موقف بشرى صرف .. يشمله تاريخ البشر لأنه جزء منه لا يتجزأ، مهما تغيرت أو تبدلت أو تطورت الظروف والعصور والأحوال والمعارف والأفكار.

يقف محمد عبد الله محمد، كما توقف مراراً ـ عند اتجاهنا إلى الله عز وجل .. هذا الاتجاه إليه سبحانه هو الذى يعطى حياتنا الثبات والجد والقيمة المطلقة .. لأنه يجعل الزمن ـ بالنسبة لنا ـ زمناً روحياً مفعماً بالأمل والثقة .. زمناً للرقى فى اتجاهه وجهة واحدة ثابتة بيقين في حبل ممدود من مولد الإنسان إلى الله تبارك وتعالى ..

يمضى بالإنسان قدماً، ويقوده فى طريق ترقيه ليبلغ إلى كماله فى الله عز وجل.

وحين نتأمل ملة إبراهيم عليه السلام، نعرف أنها لم تعرف المعبد، وإنما عرفت المسجد المفتوح بجميع أجزائه للساجدين إلى ربهم .. ونعرف أنها لم تعرف كهانة ولا وكالة عن الله عز وجل، ولم تعط أحدا صكاً أو تصريحا للتكلم باسمه، ونعرف أن ملة إبراهيم اتصال مباشر بسيط غير معقد بين المخلوق وخالقه.. ونعرف أن ملة إبراهيم ثورة هائلة دائمة على ألوهية المجتمع البشرى، وأنها لم تسمح بأن يسند الناس إلى المجتمع ما هو لله .. ونعرف من تأملنا فى ذلك كله أن قوى المجتمع - لا الدين ! ـ هى التى تتخلل بظلالها وأشباحها عقل الآدمى وعواطفه ومعارفه وعلومه وكل دوافعه وأغراضه .. وأنها هى التى تحيط بروح الإنسان وتكبلها بالدوائر والأسوار، وأنه كلما نجحت روح الإنسان فى الإفلات من بعض هذه الأسوار وجدت أمامها أسوارا أخرى من صنع المجتمع والناس .. من أجل ذلك كان طريق البشر إلى الله طويلا، يقتضى من الطالب له السائر فيه أن يثابر ويكافح لتخلص له وجهته إلى رب العالمين.

المسلم فى ملة إبراهيم، لا ينتبذ الناس، وإنما يعايشهم من خلال اعتياده على اليقظة لوجود الله وتمسكه بطريق الله - سبحانه - لا العكس .. ومن يخلص فى توجهه إلى الله لا يعييه إرضاء قوى المجتمع وأصنامه، ولا يخضع لضغوط هذا المجتمع الخانقة على روح الإنسان.

إن الانعتاق من ألوهية المجتمع، ومقاومتها، هو صراط الاتجاه إلى الله عز وجل بإخلاص وصدق وإصرار واستمرار . ذلك أن الوثنية بيئة مثالية للطاعة العمياء، لذلك كانت مقاومة هذه الوثنية الدائبة

المستمرة هى العبادة الحقيقية والدين الحقيقى والسبيل المستقيم لرفض كل صور الشرك ـ بالاتجاه إلى الله الواحد الأحد رب العالمين.

حين يقع الإنسان فريسة الخوف أو رغاب المصالح، يصبح المجتمع فى نظره صنما هائلا يتقرب إليه بكل السبل طلبا للمال والسلطة والنفود والجاه، وتفقد خطواته ومهجته طريقهما إلى الله.

فى ملة إبراهيم ومحمد، على الإنسان أن يوجه وجهه وروحه شطر الذى فطره، لا بالنظر إليه تعالى فقط فى داخل النفس أو فى التطلع إلى السماء، وإنما بالنظر إليه فى عباده وفى مخلوقاته. وفى أغلى عبادة عليه وهم الضعفاء .. وسحية الإحسان شاملة فى الإسلام لم تقتصر على الوالدين أو ذوى القربى، وإنما امتدت لكل ضعيف ألم به ضعف بسبب الفقر أو السن أو المرض أو الحاجة أو الأسر .. يقول عز وجل :

" ... وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا " (النساء ٣٦) ..

" وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ" (النور ٢٢) .. وفى وجوه البر . " ... وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ" (البقرة ١٧٧) ..

وفى وصية جامعة يقول رب العز لرسوله المصطفى عليه السلام: " وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ".. (الكهف ٢٨).

لا معنى للاتجاه إلى الله، إذا فقد الإنسان إحساسه بقيمة الروابط الإنسانية، وأعطى ظهره للضعفاء، وحجب بره وعطفه عن المحتاجين .. فالاتجاه إلى الله محبة فى الله لجميع خلقه، والتفات بار إلى هذه الودائع التى أودعها سبحانه وتعالى لدى كل مسلم.

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

عدم المبالاة

لأن الوثنية تخاطب أولا المخاوف والحظوظ اليومية في نفس الآدمي، فإنها لا تعيش وتزدهر ـ كما يلاحظ محمد عبد الله محمد ـ إلا في مجتمعات عدم المبالاة .. سواء كانت تلك المجتمعات بدائية أو متحضرة .. وسواء كانت تسكن البوادي أو النجوع أو تقيم في المدن والحواضر .. ذلك أن المجتمعات التي لا تبالي لا تكترث بالقيم الإنسانية، ويتجاهلها أفراد هذه المجتمعات في حياتهم العامة والخاصة .. وهذا هو أيضا حال حكام هذه المجتمعات .. فلا يرون هم والمحكومون في نهارهم وليلهم وسلمهم وحربهم ـ لا يرون من وجود الآدمي إلا قابليته لإيجاد المال أو النفوذ أو إضاعتهما .. ومثل هذا المجتمع معدوم أو فاقد الروح .. يحتاج أفراده إلى أوثان أو أصنام تسكن مخاوفهم من تأثير الهوى والشره اللذين يعبثان بحظوظ الناس!

في مجتمع عدم المبالاة لا طعم للروابط الإنسانية .. تلوك ألسنتهم صفات القربى أو الأخوة أو الصداقة أو الجيرة دون أن تعيها قلوبهم .. لأن القلوب معزولة في دنيا اللامبالاة .. كل منها منصرف لذاته مشغول برغابه مستريب في غيره خال من الثقة في نفسه ومن باب أولى في غيره .. في داخل كل منهم سخط ورفض وقلق دفين .. لأن هذا الداخل مجدب ظامئ محروم من الري والشبع .

لذلك فربما ليس عجيبا أن تتخذ الحركات المناهضة لمجتمعات عدم المبالاة – أن تتخذ صور " الأحوات " .. سواء في الماضي أو في

---

* المال ٢٠١١/٤/٢١

الحاضر .. فتهيئ للمنضم إليها أن يجد للأخوة في أحضانها ما لم يذقه طوال حياته في مجتمع عدم المبالاة ، ويجد مما يقدم إليه فيها حلاوة طعم الروابط الإنسانية العميقة الحميمة ، فضلا عن حلاوة الانتماء إلى طائفة يتبادل أفرادها الثقة بغير حدود .

وقد تُلاقي أمثال هذه " الأخوات " - تحت أي وصف أو اسم ، دينية اجتماعية كانت أو اجتماعية فقط - قد تُلاقي قلق وتوجس المجتمعات التي تظهر أو تنتشر فيها ، أو تُلاقي قلق القوى المسيطرة على هذه المجتمعات . فتكافحها وتسعى للقضاء عليها وتطارد أعضاءها .

ولم تبرأ المجتمعات الإسلامية من آفة "عدم المبالاة " .. في البوادي والحواضر . فانتشرت فيها " الأخوات " العديدة .. مذهبية ونحلية وباطنية وصوفية .. وقاومها السلطان السياسي لما أوجسه انتشارها أو أخافته قوتها أو تطلعها إلى النفوذ السياسي ..

ومن الملاحظ أن من شجبوا مبادئها وعقائدها لأسباب فقهية ، لم يلتفتوا إلى أن ظهورها عرض لمرض مستحكم أمسك بتلابيب البلد الذي ظهرت فيه .. وإن هذا المرض صب في شيوع " عدم المبالاة " وتفشي عدم اكتراث الناس فيها - خاصة الأقوياء والمترفين - بالقيم الإنسانية . وعدم مبالاتهم بالضعفاء الذين هم ودائع الله تعالى الذين أوصى عليهم عباده ، وجعلهم أمانة وعهدة في عنق كل مسلم قادر على عونهم وحمايتهم ورفع الظلم عنهم .

هنا ينبه محمد عبد الله محمد إلى أن الاتجاه إلى الله عز وجل - إرادة واعتياد .. يحتاجان إلى مواظبة وتدريب .. وهذا يقتضي أن يعطي المسلم السوي نسبة من أوقات يقظته كل يوم للتأمل وذكر الله

هذا التأمل ومعه الذكر الذي قال فيه القرآن : "ولذكر الله اكبر" - ملحوظ في تشريع الصلاة المفروضة .. فالمسلم في هذه الدقائق التي

تؤدى فيها الفريضة ، يقتطع نفسه من تيار وشواغل ورغائب الحياة اليومية ، ويفرغ فيها قلبه وعقله تماما لله عز وجل .. هذا التفريغ هو الصلاة معنىً ووجهة وأداءً .. فإذا انصرف المؤدي عن هذا التفريغ ـ كان معنى هذا أنه غارق في تيار الحياة اليومية ، دون إدراك أو تفطن لما فيه من عدم مبالاة بالاتجاه إلى الله عز وجل ... وحين يستشري هذا تجد هذه المجتمعات تعبد الله كلاما ولا تعبده حقيقة !!!

هنا يتوقف محمد عبد الله محمد مرةً ثانية ليقول إلى أهل الإسلام إنهم إذا أرادوا الخلاص من آفة " عدم المبالاة " ، وما تسببه من تمزق وتفرق وتباعد وفقد الاتجاه إلى الله اتجاها حقيقيا نافعا ومثمرا .. فإن عليهم أن يبدأوا بالأطفال ، وأن يحرصوا بكل قواهم على إنقاذ أرواح الأطفال وعقولهم من مصائب العيش في البيئات المزدحمة المتناحرة .. ومن يلاحظ منا ما يجري اليوم في العشوائيات التي انتشرت انتشارا مريعا بعد سنوات مما كتبه محمد عبد الله محمد – سوف يدرك أن هذا العالم المفكر الجليل قد سبق إلى التنبؤ بما نراه الآن من آثار مدمرة على الأطفال في هذه العشوائيات التي تفشت فيها كل أنواع الرذائل حتى زنى المحارم !!!

ينبه محمد عبد الله محمد ـ من نحو نصف قرن ـ إلى أن الازدحام والتناحر يسقيان الصغار ـ مع لبن الأم – قلة الاكتراث وعدم المبالاة بالآخرين وأن ذلك يعلمهم الخوف على النفس والخوف من الغير ، فتصير أصنام المجتمع هي آلهتهم ، وقد كبروا على ذلك ولم يكد ينفع فيهم أو في مجتمعهم فقه فقيه أو وعظ واعظ أو هداية هادٍ !!!

فأين هذا مما يجب أن يتوفر لنجاح الدعوة إلى التقريب ؟!!

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

الفطرة الإنسانية، والاتجاه إلى الله

تكثر فى الزمن الحاضر، كما كثرت سلفا ويتوقع كثرتها فى المستقبل .. كثرت الدعوات الإسلامية، بيد أنها تفقد حيويتها ونفعها وإقناعها ـ إذا لم تفلح فى لفت المسلمين إلى دورهم ودور الإسلام فى نفع الإنسانية كلها .. فليس من المنطق، ولا هو فى مقدور المسلمين، أن يستقلوا بمصير منفصل عن مصير الإنسانية .

يلفت محمد عبد الله محمد إلى أن من يراجع اتجاه إبراهيم الخليل عليه السلام ـ إلى الخالق ـ يلاحظ ملازمته هو للخالق عز وجل، ومن يتأمل فى مقتضيات هذه الملازمة يدرك أنه من المستحيل مع الإحساس بها ـ أن يتمرد الآدمى على خالقه، ومن أسخف السخافات أن يأتى هذا التمرد باستخدام المخلوق ذات ما ركبه فيه خالقه وأعطاه له .. فهذه رعونة سخيفة وخفة عقل مصيرهما الحتمى إلى الانهزام والقهر !

ومن هنا كانت صفات القهار والمنتقم والجبار وأمثالها التى يصف بها الكتاب المجيد الخالق تبارك وتعالى، كانت تنبيها وتذكيراً لا غنى عنهما لهؤلاء السخفاء خفاف العقول !

إن تسليم إبراهيم للخالق ليس رضوخا لما يعجز الإنسان عن تغييره كالحر والبرد والمطر، مما ترضخ له الإرادة الإنسانية لأنها لا تملك حيلة ولا وسيلة لمقاومته، وإنما كان تسليم إبراهيم تسليما لله

* المال ٢٠١١/٥/٤

عز وجل وتلبية راضية من قلب صادق مصادق، يعطى نفسه بلا شرط ولا مقابل ولا تحفظ، لمعنى التلبية : " لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك " .

إن ملّة إبراهيم، وهى ملّة محمد، عليهما الصلاة والسلام، قد فتحت أبواب الله لكافة الناس .. للإنسان من حيث هو إنسان .. لا لكونه صاحب علم أو فكر أو فلسفة .. فالفطرة الإنسانية هى الأساس والحال والمآل . يتجلى ذلك فى قوله عز من قائل : " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ " (الروم ٣٠) .

إن الإنسان يشعر بإنسانيته حين يتجه إلى الله، وحين يدرك الصلة الوثيقة بين الدين وبين الأخلاق والإنسانية، وحين يلتزم بأن يكون له موقف أخلاقى .. يلبى فيه نداء فطرته .

ولا يكاد يوجد من ينكر أثر الفطرة، وأننا مدفوعون بدافع فطرى لأن نصبح على صورة أفضل .. وقد يقوى هذا الدافع فيحفزنا على أن نكون أكثر اقترابا من حقيقتنا كما تسلمناها من الله عز وجل - لا من المجتمع . إننا عندئذ نكون أكثر انقيادًا لهذه الحقيقة الداخلية، وانقيادًا لقانون وجودنا الداخلى الذى ينبع من أعماقنا صافيا نقيا لا تتطفل عليه أو تزاحمه ضيوف أو أوضار الخارج . إننا نكون أكثر أمنا وثقة لأننا فى دائرة الفطرة، وفيها تنفتح أعماقنا على خالقنا عز وجل انفتاحًا لا يصاحبه شعور بالغربة أو التحفظ أو الابتعاد أو يأس الوحدة والعزلة أو حسرة العجز .. عجزنا وعجز الآخرين عن نصرتنا تجاه المصير الذى نتصور أو نخشى أننا سنقابله منفردين .

مع الله، وفى اتجاه الله، تتمركز ذواتنا فى داخلنا . وتزداد سيطرتها على ميولنا المتضاربة المتحفزة للشرود أو الانتقاض أو الانشقاق .. هنالك تزداد ذات الإنسان وحدة وثباتًا وتمارس وتحفظ حريتها وإنسانيتها فى مواجهة العالم .

يقول محمد عبد الله محمد - إن العقل البشرى لم يشترك فى إبداع نفسه ولا فى إبداع الحياة، فالحياة أكبر منا بكثير، وليست من صنعنا أو اختراعاتنا .. إنها كأرض السوق التى ليست ملكا للمتبايعين فيها ..حالنا فى الحياة كحال البائع الذى يفرش فرشته فى السوق ثم يطويها حين ينقضى يومه . ومهما انبسطنا أو انقبضنا فإن الحياة لن تتوقف ولن تغير مسارها ونواميسها من أجل انبساطنا أو انقباضنا .

إننا نتفلسف ونتعلم ونعتقد العقائد أثناء استعمالنا للحياة داخل الحياة، وباعتبارها صورا - ليس إلا - للحياة .. ولا قيمة لعلومنا ومعارفنا وعقائدنا إلا مع احترامنا للحياة والأحياء ..

أما قول من يقول إننا نصنع حياتنا، فلا يعدو أن يكون إبرازًا بلاغيا لفوائد الاجتهاد والتعلم والابتكار، وإفساح فرص الترقى والتفتح فيها - فى الحياة - علينا وعلى الآخرين .. ولو تأملنا لعرفنا أن كل المبادئ والقيم والمسميات والمصطلحات والمثاليات والماديات وغيرها - ليست لها قيمة أو معنى إلا بالنسبة لآدميين يعرفون قيمة الحياة والأحياء .

والفطرة التى تحدث عنها محمد عبد الله محمد - ليست الطبيعة الحيوانية الجاهلة الغافلة، وليست قبول القذارة والهمجية أو الغباء والخرافة والبلادة .. وإنما الفطرة هى تلك الاستعدادات والملكات والطاقات الدفينة الكامنة فى خلقة الإنسان التى خلقه الله تعالى

عليها .. هذه الفطرة التى إذا انطلقت تجعل لوجودنا معنىً تابعًا لوجودنا الإنسانى .

يعود بنا محمد عبد الله محمد، لينبه إلى أنه بين هذه الفطرة، وملة إبراهيم وهى ملة محمد - بينهما تداخل حتمى .. فالفطرة من الملة، والملة من الفطرة .. وإغفال الفطرة الإنسانية هو إغفال لشىء جوهرى جدًا فى الملة، لأنه يغفل تنمية وحفظ ملكات الإنسان واستعداداته وطاقاته، ويؤدى إلى إعاقتها، وهى إعاقة خطيرة للملة ذاتها !

هذه الفطرة هى فى ملّة إبراهيم ومحمد - قوام السير فى الاتجاه إلى الله من عصر إلى عصر .. من خلال مستويات النمو فى الملكات والطاقات الإنسانية، لا تتقيد خُطى الاتجاه إلى الله بمستوى عصر معين، إلاّ أن يكون هذا المستوى فى ذاته - مناسبا لفطرة الإنسان فى عصر تال، مسايرا لمطالب إنسانيته .. وعندئذ لا يكون هذا قيدا لخطى الاتجاه لله، بل اطرادا لمسيرة هذا الاتجاه من خلال مستويات النمو فى إنسانية الإنسان .

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

سر الفطرة الأعظم، فى الاتجاه إلى الله

الفطرة التى أفاض محمد عبد الله محمد فى الحديث عنها وعن أثرها فى توجيه الإنسان، وفى وجهته - فى ملة إبراهيم ومحمد (عليهما السلام) ـ إلى الله، هذه الفطرة لا تبلى ولا تهرم بمرور الزمن واختلاف الأيام، شأنها فى ذلك شأن العقل نفسه .. لأنها هى أو العقل الإنسانى - لا يرتبطان بالزمان ولا بالمكان

ولكن الصور المكانية والزمانية لهذه الفطرة - تتعدد وتهرم وتبلى تماما، كما تتعدد وتهرم وتبلى صور العقل الإنسانى فى الأمكنة والأزمنة المختلفة .. فالاتجاه إلى الله تعالى لا ينقطع فى أى زمن، اتجه إليه سبحانه ماضون، وخلفهم متجهون آخرون فى هذا الاتجاه، وسيلحق بهم آخرون .. وهكذا إلى آخر الزمان ..

وصور هذا الاتجاه فى أشكاله وحالاته وأماراته ورموزه - قد تعددت وتتعدد، واختلفت وتختلف، وتعرض بعض ما ارتبط منها بمكان معين وزمانٍ معين للهرم والبلى، وحل جديد محل القديم الذى لم يعد كافيا لأداء مهمته المطلوبة منه، وهى إيقاظ واجتذاب العقول والنفوس الجديدة وجمعها فى اتجاه الله تبارك وتعالى.

والمقدسات من ذكرى وسيرة وألفاظ وأماكن وأشياء - هى مصابيح وشارات ورموز على طريق الله.. مرتبطة حتما بأمكنة وأزمنة يجرى عليها ما جرى ويجرى على سائر مخلوقات الله .. لا

---

* المال ٢٠١١/٥/٥

يحفظها الاً حفظ الله تعالى لها، وأن تظل مؤدية بكفاية مهمتها فى إنارة طريقه عز وجل وتصحيح الاتجاه إليه.

هذه المقدسات لا يحفظها أن نعتبرها نهائية مطلقة باقية بقاء الله عز وجل، ولا أن نخلط بينها وبين ذات الله عز وجل، ولا أن نعبدها (؟!) كما نعبد الله عز وجل .. فذلك افراط ومبالغة تفسد توحيدنا وتقطع اتجاهنا إلى الله تعالى وحده لا شريك له . كل المقدسات كلمات من كلمات الله، وليست إلا كلمات من كلمات الله .. يقول جل شأنه " قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا " (الكهف ١٠٩، ١١٠).

ليس فى ملّة إبراهيم، وهى ملّة محمدٍ عليهما الصلاة والسلام ـ أسرار كما فى كثير من الملل.. اللهم إلا سر الفطرة الأعظم .. الذى به يعى المخلوق المسكين الضعيف ذاته ويحس بالحرية والاختيار والمسئولية تجاه خالقه تبارك وتعالى.. سر الفطرة الذى به أمكن أن يجادل ابنى آدم ربه عز وجل ـ الحوار بالمحبة والنصرة والرضا، وأن يعقد معه ـ سبحانه ـ العقود والعهود والمواثيق .. هذا السر هو مناط اختيار الخالق عز وجل للإنسان من بين سائر الأحياء والجمادات ـ واصطفائه ليكون حاملا للأمانة التى بها يحفظ أمانة العقل وأمانة الخلافة فى الأرض.

ها أنت ترى أن ملّة إبراهيم بسيطة، ولكنها ليست سهلة وليست سطحية .. وقد سبق لمحمد عبدالله محمد أن أشار فيما سبق إلى وجوب الالتفات لعدم الخلط بين بساطة الإسلام وبين السهولة .. وأنه من الخطأ ـ الاعتقاد بسهولة الإسلام بمعنى أنه لا يقتضى من

المسلم جهداً ولا عزيمة ولا تضحيات.. فليس الإخلاص لله ـ وهو لب الإسلام ـ أمرا هينا أو لينا .. ولا يمكن التهوين من المجاهدة التى يبذلها المسلم ليلتزم الصدق والحق والعدل والقسط ومخافة الله فى معاملة الناس. ليس فى مقدور المسلم بدعوى بساطة الإسلام أن يتحفف من هذه الواجبات. فبساطة الإسلام لا تعنى البلادة أو مخالفة كل ما هو جوهرى فى الإسلام.

كذلك ليست ملة إبراهيم سطحية، وكيف تكون سطحية وهى تفتح أعماق الإنسان على خالقه وتطالبه بتسليم أعماقه كلها لخالقه بلا تحفظ ؟ وتتقاضاه الإخلاص والولاء، الذين لا يساويهماولا يضارعهما أى إخلاص أو ولاء لأى مخلوق أيّا كان ..

إن الإنسان الذى جعل الله سبحانه وتعالى طائره فى عنقه، قد هيأ له الله تعالى ـ بالفطرة الإنسانية ـ أن يتعارف ويتعايش فى حياة مشتركة تتبادل فى الله ـ الإخلاص فى المودّات والمعونات والعواطف والرحمات، وأن تساند بالإجتماع المادى والمعنوى ـ لنمو وتفتح ملكات الإنسان واستعداداته وطاقاته.. خاصة طاقته الروحية.

لذلك فإن الرهبنة أو اعتزال الناس لمجرد النسك والتفرغ للعبادة ـ شئ ليس فى ملة إبراهيم، لأنه ليس فى الفطرة العامة .. وتجاهل ما هو أساس وغريزي فى أجسامنا وسد منافذه المشروعة المعقولة ـ طلبا للكمال أو التأله ـ ليس له سند فى ملة إبراهيم، لأنه ليس له سند من الفطرة العامة

وعرفت الفطرة الإنسانية أن حب المال هو العدو الذى يسحب قلب الإنسان سحبا شديداً بعيداً عن الله عز وجل .. لذلك لم يسمح المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يسمح للمال ان يقتحم حياته الخاصة قط، ولا أن يتسرب إلى أهل بيته قط إلى أن

ختاره الله إليه بلا تركة وبلا حق فِى أن يكون له ورثة .. ولم
فلف عليه الصلاة والسلام لأهله إلا ما خلفه للمسلمين جميعا،
وهو النبوة ورسالة النبوة التى بهديها يتقارب المسلمون فى اتجاههم
ى الله عز وجل.

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

العبودية لله

يتوقف الأستاذ الجليل محمد عبد الله محمد، وقفة تأمل، ليقول إن نقيض الاتجاه إلى الله - في الحقيقة - هو الاتجاه الشخصي .. التمحور في الذات باتجاه الآدمي دائما وأبدا إلى شخصه .. لا يعتني بسواها، ويصرف كل همه لحمل الآخرين - بالترغيب أو الترهيب - على الاتجاه إليه هو باعتبار شخصه غاية نهائية مطلقة يجب أن يُصرف إليها الاهتمام والعناية.

والصورة الصارخة لهذا الاتجاه الشخصي القاهر، نجدها في الملوك والسلاطين والحاكمين بأمرهم والمستبدين بعامة.. ومن هؤلاء يتسرب غالبا هذا الداء .. داء الاتجاه الشخصي .. يتسرب ابتداء إلى أتباعهم وحاشيتهم عناية بأنفسهم واهتماما بأشخاصهم وتقديم أنفسهم على من دونهم في سلم التبعية للملك أو السلطان أو الحاكم بأمره .. وتتسع هذه الدوائر شيئا فشيئا كل يريد أن يركب من دونه، وأن يعتني بشخصه دون غيره، حتى يصير المجتمع مسرحا ضخما للاتجاهات المتمحورة في الشخصية .. يعتريه عدم المبالاة مع سيادة النفوذ والمال!!

ومن يتأمل في سيرة رسول القرآن - صلى الله عليه وسلم - يعرف أن تاريخ حياته هو مفتاح كنور سنته . حياته عليه الصلاة والسلام حياة روح لم تفارق قط الاتجاه إلى الله لحظة في عام أو

* المال ٢٠١١/٥/١١

خاص من أموره الشخصية .. ولم تنس قط عبوديتها لله عز وجل، ولم تحاول قط ـ فعلاً أو قولاً، صراحة أو ضمنا ـ لم تحاول حمل أحد على نسيان عبوديتها ـ عبودية النبى ـ لله عز وجل، أو عدم تذكر عبوديتها ـ عبودية النبى ـ له سبحانه.. فالمسلمون جميعا من نيف وألف وأربعمائة سنة وإلى آخر الدهر، يقرنون عبوديته برسالته، فيرددون صباح مساء، سرا وعلانية، أن محمدا عبده ورسوله.

كل ذلك مع أن حياته عليه الصلاة والسلام ـ حياة إنسان حقيقى من كل وجه .. إنسان مقتنع ببشريته أتم الاقتناع، لا يتنصل منها ولا يتعالى عليها، بل راض عنها كل الرضا، قابل لها قبولا خاليا من أى تحفظ أو تصنع أو تستر أو مداراة .. فقد اختاره الله تعالى نبيا رسولا للناس، لأنه إنسان حقيقة وفعلا .. من دلائل نبوته أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .. فيروى القرآن المجيد من اعتراضات المنكرين المعاندين : " وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلا مَّسْحُورًا * انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً * تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ...." (الفرقان ٧-١٠) . ولا يغادر القارئ فى سورة الفرقان إلا ويقرأ من قوله تبارك وتعالى : " وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا " (الفرقان ٢٠).

إن سنة النبى المصطفى عليه السلام ـ هى أولاً وأساساً : حياته فى الله .. هى ذلك التيار الواعى المطرد الحرسان على حد التعبير الجميل للأستاذ الجليل محمد عبد الله محمد .. هذا التيار الموحه

أصلياً إلى هداية الإنسان .. أى إنسان وكل إنسان ـ فى اتجاه الله عز وجل .. ذلك التيار جرى ظاهرياً ـ للضرورة ـ فى محيطه الجغرافى التاريخى للنبي صلى الله عليه وسلم، أى إلى من قبلوه وصدقوه وآمنوا برسالته وإلى من رفضوه وأنكروه وقاوموه فى ذلك الجزء (الجغرافى) من العالم خلال الجزء (التاريخى) الذى عاش فيه عليه الصلاة والسلام حياته على الأرض .. فى ذلك التيار يجد المسلم خلق النبى صلى الله عليه وسلم ومعالم أخلاقه الشريفة مرتسمة بوضوح شديد فى أحداث ذلك المحيط التاريخى الجغرافى، حاملة هذه المعالم النيرة فى السنة المطهرة.

فلا يفهم السنة من لا يلتفت إلى شدة إحساسه صلى الله عليه وسلم ـ بخطر تسرب المال إلى حيث روح الإنسان، وإلى حيث العلاقات الإنسانية العميقة، أو من لا يلتفت إلى شدة عنايته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بفهم الناس كأرواح وأنفس وأبدان، لا كمجردات نظرية أو نوعية، ومخاطبته عليه الصلاة والسلام لكل آدمى من أرضية هذا الفهم الفعلى الواقعى، وليس من علياء السلطة أو الجاه أو النظر الفقهى أو الفكرى، مخاطبة مفعمة بما يقنع الآدمى أنه عليه السلام يفهمه تمام الفهم.

كذلك لا يفهم السنة من ينسى نفوره الهائل ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ من الرخاوة والكسل والبطء والعجز والذلة والجبن .. ثم لا يفهم السنة من يفوته فهم المصطفى الكامل لطبيعة محيطه وانقسام ذلك المحيط إلى وحدات منفصلة مختلفة الأعراق واللهجات بل واللغات، يقتات أغلبها على غزو بعضها بعضا، ويتشبث كل منها بماضيه وعداواته وثاراته ومفاخره .. وكلها مبنية على الغلبة والقهر.

نعم لا يفهم السنة من تفوته سيادة الأناة والصبر وسعة النظر وإيثار التوفيق والمصالحة فى الحلول النبوية لمشاكل ذلك المحيط المتقلب العنيف، ومن يفوته ملاحظة اختيار المصطفى دائما لأكثر الحلول جمعا للشمل، ومراعاة لظروف الناس، وأنسبها إعانة لهم على زمانهم. لا يفهم السنة من يفوته مزج الفضائل والمبادئ واستعمال الرسول لها معا كمحاميع يلطف بعضها شدة بعض، ويكفل تساندها بلوغ حل مقنع للإنسان العادى . لا يجد المتأمل حلا للمصطفى من الحلول يمكن أن يوصف بأنه نظرى أو حرفى أو جامد يصدم الفطرة. ثم لا يفهم السنة من يفوته معنى تجرده عليه الصلاة والسلام ـ سرا وعلانية من كل غرض أو اتجاه شخصى، وكل ما يربط حياته بحياة الملوك والسلاطين، وكل ما يسمح بأن يوجد فى أمته من يتميز بالرفاهية أو السؤدد.

ينبهنا محمد عبد الله محمد إلى أن نداء الله فى الفطرة أعمق فى نفس الآدمى وأبعد غورا من كل نداء آخر، غريزى أو كسبى، ولذا كان صوت هذا النداء الإلهى الآتى من أعمق الأعماق "هامسا خافتا"، يسمعه الإنسان حين يخلو لنفسه ويتأملها بعيدا عن الضوضاء والصخب والشغب.

۞ ۞ ۞

على هامش معالم التقريب *

نداء الفطرة ومعالم المسئولية

نداء الفطرة النابع من أعماق الآدمى فى اتجاهه إلى الله .. هذا النداء ليس وهماً كما يزعم المنكرون.. فالتلقين والإيحاء الممتدان لأجيال - لم ينقطعا فى التاريخ القديم والحديث عن غرس المعتقدات السياسية والاجتماعية فى النفوس.. ومع ذلك بقيت هذه المغروسات على اختلاف أنواعها وأشكالها على السطح .. لم تنفذ قط إلى أغوار الإنسان .. وهى إذ تجرف أحياناً كثيرة التفات الناس وتبعدهم عن الدين، حتى ليتوهم أصحاب هذه النزعات والمعتقدات أنها قد اقتلعت جذور الدين، إذ بهم يفاجئون أو يفيقون على الواقع فيكتشفون أنهم لم يكسبوا من الدين إلا معارك وقتية .. ويرون أن أغوار الآدمى وأعماقه لاتزال لله، وليست للمذاهب الوضعية من شيوعية أو اشتراكية أو ديمقراطية أو أى مذهب آخر من المذاهب السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية!

ماذا يعنى هذا؟

يعنى أن الفطرة ليست وهماً وليست هشيماً يمكن أن تذروه الرياح مهما اشتدت.

والإسلام دين الفطرة .. ينزل الفطرة منزلة واضحة فى بنيانه وثبات الفطرة شىء أساسى فى الإسلام .. فهى غير قابلة للتغيير ومن هذه الفطرة - لا من الوالدين - يتلقى الإنسان روحه مباشر

---

* العالم ٢٠١١/٥/١٨

من فاطره .. يتلقاها نظيفة بيضاء، عليه أن يحافظ على نظافتها وبياضها .. فهى لن تتلوث - إن تلوثت - إلا من نواياه وأعماله السيئة .. وحين ندرك هذه المعانى يبرز أمامنا قول الحق جل شأنه فى كتابه المجيد: "وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا * مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا" (الإسراء ١٣-١٥).

وفى اعتبار الإسلام أن المعصية إرادية .. لا تقع إلاَّ من مكلف قاصد عامد .. فجوهرها أنها خطيئة إرادة قاصدة واختيار مميز من إنسان معين، وأنه كان فى وسع هذا الإنسان أن يتجنبها لو أراد ولكنه لم يفعل!

وليس فى الإسلام مسئولية عن فعل الغير، ولا عن خطأ الغير أو خطيئته .. طائر كل إنسان فى عنقه .. ولذلك فلا توارث فى المعاصى لأنه لا توارث فى الأرواح .. وليس فى الإسلام خطيئة أصلية يولد بها الإنسان حاملا وزرها عن سواه .. وآدم فى الإسلام موضع تكريم، ارتكب ذنبا هو وزوجه ثم ندما وتابا وتاب الله عليهما بنص الكتاب المجيد :

" وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا

جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ" (البقرة ٣٥-٣٨).

فلم تتغير فطرة الإنسان بهذا الذنب المغفور، ولا يناقض ذلك أن التوالد تصاحبه الشهوة الجنسية، فذلك جزء من الفطرة طاهر بطهارتها في نظر الإسلام . ومع ذلك فقد يتسيد الجسد على روح الإنسان بفعل الشهوات، وقد يغلب حبه لنفسه على حبه لله ..

وهذا فيما يرى محمد عبد الله محمد ـ جزء من المحنة أو المعركة التى يجب أن تخوضها روح الإنسان فى حياتها على الأرض، وأن تفوز فيها برضا الله عنها ورضاها عن الله .. فيقول القرآن " أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ * مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ" (العنكبوت٢-٧)

وهذه الفطرة لا تستلزم أن يكون اختيار الإنسان وحريته مطلقين، أو غير مرهونين أو مشروطين بظروفه وبيئته ومحيطه، ومقدار معرفته للحق، ومبلغ ميله للحق وقبوله إياه عن رضا . فالمطلوب هو بذل الطاقة والجهد .. وإلى ذلك تعدد التنبيه فى القرآن الحكيم .. من مثل :

" لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ... " (البقرة ٢٨٦).. "وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (الأعراف ٤٢) .. "وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" (المؤمنون ٦٢) ..

أما ما قد يكون بالنفس من نقص أو عاهة أو عجز ـ فمتروك للطف الله ونعمته ورحمته عز وجل.

وتلك المحنة أو المعركة التي يخوضها الإنسان في حياته على الأرض ـ ليست معركة مع الفطرة الإنسانية، وإنما هي معركة مع الشيطان .. هذه المعركة التي سبق أن انهزم فيها آدم ولكن هزيمة عرضية ثم نهض بعدها وندم وتاب عنها وعرف وجهته الصحيحة وكذلك يفعل أبناؤه وأبناء أبنائه إلى يوم الدين.

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

وحدة الإنسانية

أجل . لا تتوارث الأخطاء والخطايا فى نظر الإسلام .. فكل امرئ بما كسب رهين، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وكل إنسان طائره فى عنقه .. والمعنى أن اتصال الحاضر بالماضى قائم فى حياة الإنسان، إزاء ما يصادفه هو من أحداث، ويسلكه هو من سلوك، ويأتيه هو أو يهمله هو من أعمال .. فالذى لا شك فيه، فيما يقول محمد عبد الله محمد، أن الإنسان يحمل ـ أراد أو أبى ـ نصيبه السار أو المؤلم من ذلك فى حدود تطور فهمه وقدراته .. وهذا يوسع بلا شك من دائرة مسئوليتنا عن أعمالنا كمخلوقات عاقلة مكلفة . وأعمالنا التى قد لا نبالى بها أو بنتائجها تلاحقنا من قريب أو بعيد، وقد تتجمع نتائجها ونتائج نتائجها فنفاجأ بالمشاكل والأزمات والأمراض والفتن التى تعرض لنا فى حياة كل منا .

والله تبارك وتعالى لا يكلفنا أن نتبصر لجميع العواقب، فإن ذلك فوق قدرتنا وطاقتنا، ولكن الله تعالى يطلب منا الولاء له والاتجاه إليه لكى يوجد فى الدنيا السلام والاستقامة والعدل والمحبة ـ لا يستطيع الآدمى أن يخلص نفسه وحده من نتائج أعماله وأعمال الآخرين، بل لا بد لخلاصه ـ من التعاون والتكافل والتساند بإخلاص وإيمان .. فقوة الشر مرهونة بانتشاره وكثرة المشاركين فيه، وقوة الخير فى انتشاره وكثرة المشاركين فيه .

---

* المال ٢٠١١/٥/١٩

لا تحتاج روح الإنسان إلى مخلص، لأن الروح - فى نظر الإسلام - تستطيع أن تغسل نفسها وتجددها .. وأن تستعيد نظافتها بالتوبة .. هذه التوبة التى تغتسل بها الروح، شىء خلاف الكلام وإظهار الأسف وأداء الكفارات ..إنها عودة الإيمان إلى التيقظ والاشتعال فى أعماق الإنسان وفيما بينه وبين ربه ..ولذلك فإن التوبة الصادقة تمحو الذنوب، وتجدد وتثرى اتجاه الروح إلى بارئها ..

إن النوايا الطيبة لا تنمحى تماما من روح صاحبها مهما تشاغل عنها أو أخفق سعيه فى تحقيقها .. هذه النوايا تعود بقوة إلى الحياة إذا تعرض صاحبها لتأثير مؤثر قوى يستخرجها ويجددها ويحيى اتجاهها إلى مواضع الخير والبر .. كأنها كانت أخوارا جافة دبت فيها الحياة عندما هطل عليها الغيث فامتلأت بالحركة والنشاط .. هذه العزوم الطيبة كامنة - وإن خمدت - فى أرواح معظم الناس .. وهى أكثر ظهورا فى العامة لأنهم أسهل اعتقادا وأقل تعرضا للشكوك العميقة .. وهذا الاستعداد يفسر ما تظهره هذه النماذج من إخلاص فى استجابتها للدعوات الدينية وفى إيثارها المصلحة العامة والشجاعة والثبات والبطولة .

الإسلام دين عالمى للعالمين، لا ينحصر فى " المحليات " .. لأنه لا يتجه إلا إلى رب العالمين خالق الكون كله وفاطر السموات والأرض، ويعتمد على يقظة الفطرة فى الآدمى وتوجهها نحو الخالق وإسلامها إليه وانقيادها له .

بهذا المعنى كان جميع الرسل مسلمين مصرين على الإسلام، وهم جميعا موضع تصديق وإيمان المسلمين جميعا .. ففى سورة البقرة :

" قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ "

(البقرة ١٣٦) ..

وفى سورة آل عمران :

" قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ "(آل عمران ٨٤)..

وفى خطاب عام، يقول القرآن المجيد :

" أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ "(آل عمران ٨٣)..

" إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ " (البقرة ١٣١، ١٣٢) ..

" صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ " البقرة ١٣٨) ..

" فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ " (يونس ٧٢) ..

" فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ " (يونس ٧٣) ..

" قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ " (يونس ٩٠) ..

" فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ " (الذاريات ٣٦) ..

" فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ " .. (آل عمران ٥٢) ..

" رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ " (البقرة ١٢٨)

يريدنا محمد عبد الله محمد أن ندرك أن وحدة الإنسانية فى الله عز وجل، حقيقة كبرى فى الإسلام .. وأنه لا مجال فى الإسلام للفروق التى تباعد بين الناس على أساس العرق أو الدم أو الثروة أو الحرية أو اللون أو الجنس أو الموطن أو التاريخ .. هذه الفروق فروق باطلة لا مكان لها فى الإسلام .. يحجبها جميعا الولاء لله عز وجل .. هذا الولاء المشترك الذى يلغى الفروق الأرضية ـ يجمع الإنسانية على طريق التقارب والتقريب .

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

عالمية الدين

يستطرد محمد عبد الله محمد، ليقول لنا إن إقحام الفروق الأرضية في علاقة الإنسان بخالقه ـ يفسد هذه العلاقة الروحية ويخل بالتوحيد أو يشوش عليه، لأن هذا الإقحام يكسب الفروق الأرضية أي الدنيوية صفة نهائية إلهية لا يرضى عنها الله عز وجل، وهو سبحانه لا يقيد بها. فليس لروح كرامة عند الله ـ لمجرد أن صاحبها ينتمي إلى شعب بذاته أو سلالة أو طائفة معينة، أو لأنه يعتز بماض عريق أو مجيد . إن كرامة الروح هي في شدة ولائها لله، فإن كان صاحبها يؤنسه هذا الولاء، فلا بأس من أن تقويه نماذج طيبة من أصله وأهله .. فتلك ذرية بعضها من بعض شملتهم نعمة الله تبارك تبارك وتعالى.

ويدلل محمد عبد الله محمد، على ما يلفت إليه، بأن الآدمي لا يبالي بهذه الفروق الأرضية إذا أحب آدميا آخر حبًّا حقيقيا، حال كون الحب الحقيقي يكتسح كل هذه الفروق .. فكيف بمن يحب الله ويتجه بكلياته إليه ؟! إن احتفال الآدمي بهذه الفروق فيما يتعلق بالدين، يعني أنه لم يحب الله حبًّا حقيقيًا خالصا ولم يمنحه روحه، وأنه بالنسبة له سلطة عليا بعيدة عن أعماقه، أو يعبده على أساس أنه إله هذه الفروق الأرضية الراجعة إلى الدم أو الأصل أو الجنس أو الشعب أو القبيلة أو الوطن أو الطبقة أو الطائفة.

---

* المال ٢٠١١/٥/٢٥

فالله تبارك وتعالى هو رب العالمين، وليس رب طائفة ولا شعب لا قبيلة ولا جنس، فلا يجوز أن يُخص بأنه رب إسرائيل أو بنى سرائيل، أو رب هذا الدين أو ذاك، أو رب هذه القبيلة أو تلك .. نما هو رب العالمين .

" تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا " الفرقان/١) ..

" وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا " (سبأ / ٢٨) ..

" قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ سَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَدُونَ " (الأعراف / ١٥٨) ..

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " الحجرات ١٣) .

والرسل والأنبياء، هم فروع شجرة واحدة وبناة بيت واحد رسس السابق للاحق ويكمل اللاحق ما سبق إليه السالف .. وفى خطاب الكتاب المجيد إلى رسول القرآن ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمره رب العزة بما ينبغى أن يقال :

" قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ " (آل عمران /٨٤) .. وفى سورة البقرة ـ يقول جل شأنه : " قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ " (البقرة ١٣٦) .

ومن يتابع المبادئ الأساسية فى القرآن الحكيم، تصافحه معالم هذه العالمية لديانة لا تتقيد بمكان ولا بزمان ولا بجنس ولا بشعب .. فالاتجاه إلى الله عز وجل يستحيل أن يكون مقيداً بمكان أو أمكنة معينة، أو مقصوراً على زمان أو أزمنة معينة، أو مخصوصاً لقبيلة أو طائفة أو قوم أو شعب، أو مشروطاً بعقلية أو درجة نمو أو تطور معينة .

ورسالة الهادى البشير محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ موجهة كما رأينا فى الآيات البينات إلى الناس جميعا، وكلمة " الإنسان " أو " الناس " فى القرآن المجيد تنصرف فيما يبدو ـ والله سبحانه وتعالى أعلم ـ إلى عموم الناس .

" قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا " (الأعراف ١٥٨)

" وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ " (الأنبياء ١٠٧)

" قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ "

(الأنعام ٧١)

" قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ " (الأنبياء ١٠٨)

فعالمية الدعوة الإسلامية، أساسها توحيد الله عز وجل ووحدة الرحمة الإلهية وتطابق الفطرة الإنسانية فى أجناس البشر وتساويها فى ظل الله فى الدنيا والآخرة .

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

لا زعامة دينية

يلاحظ محمد عبد الله محمد قيام المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعرض الإسلام على ملوك الروم والفرس والحبشة .. كان أمر الناس آنذاك بيد الملوك، ولم يكن فى تلك البلاد جاليات ومراكز عربية يمكن من خلالها بث الدعوة الإسلامية ولو سرًا، وهو ما كانت الدعوة المسيحية قد فعلته مستخدمة المراكز اليهودية المنتشرة حول البحر المتوسط .

وكان مقصود الدعوة بالقوة المنظمة كصورة من صور الدعوة الموجهة إلى الملوك والرؤساء والزعماء المعادين للإسلام .. كان مقصودها قهر السلطة المعادية التى تصد دعوة الإسلام كيما يزول سلطانها ونفوذها السيئ الذى تستغله فى مقاومة ومصادرة انتشار الإسلام . لم يكن المقصود إجبار أحد على دخول الإسلام، وإنما تحقيق الحرية والمناخ الذى يتيح لمن يريد ـ اعتناق الإسلام عن رغبة حرة .

وما حققته الفتوح الإسلامية كان من هذا السبيل الذى أزال " حواجز الصد " من أمام الدعوة الإسلامية، فدخل عديدون فى دين الله أفواجا .. وكسبت الدعوة أرواحا وقلوبا استيقظت فطرتها تجاه الإسلام بمشاهدة حال آلاف من المسلمين المخلصين وما تحلوا به من ثبات عماده الصدق والصبر . فلم ينتشر الإسلام بقوة الفتح

---

* المال ٢٠١١/٥/٢٦

فالإسلام لا يسمح بتوجيه أى قوة لقهر الفرد على اعتناق الإسلام: " لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ". (البقرة ٢٥٦) .. فلا إسلام بلا روح ولا حرية ولا إخلاص ولا ولاء حقيقيا لله، ومن أسلم كرها من المحال أن يحمل أى صفة من هذه الصفات الأساسية للإيمان الذى يعتد به الإسلام .

والإسلام انتشر بالفعل، بمئات الطرق، بعد انطلاقه من بيئته الأولى الحاضنة فى الجزيرة العربية، فوصل إلى الصين والهند وجزر المحيط الهندى وإلى بحر قزوين وبحر أورال والبحر الأسود، وإلى أعماق وأطراف أفريقيا وشرقها وغربها، وإلى أوروبا وأمريكا، فضلا عن بلاد الشرق الأوسط وشمال أفريقيا والسودان .. وفى مقال بعنوان : " بل نور الهداية وسلامة اليقين " ـ نشرته بأخبار اليوم ٢٠٠٦/١٢/١٦ وبصوت الأزهر ٢٠٠٦/١٢/١٥ وفى كتاب : " بين شجون الوطن وعطر الأحباب (ط ١ ص ٨٩) ـ فى هذا المقال استقصيت ما نشر عن تعداد المسلمين الآن فى دوائر المعارف العالمية .. وفى كتبها السنوية، وورد بالكتاب السنوى ٢٠٠٤ لدائرة المعارف البريطانية أن عدد المسلمين بمنتصف ٢٠٠٣ قد بلغ فى آسيا ٠٠٠ ٨٨٠ ٩٨٦ مسلم مقابل ٠٠٠ ٣٤، ٣٢٥ مسيحى، وأن تعدادهم فى أفريقيا بلغ ٠٠٠ ٢٠، ٣٤٤ مسلم، ووصل تعدادهم عام ٢٠٠٥ فى الولايات المتحدة ما يناهز سبعة ملايين مسلم، وتورى الإحصائيات الحديثة أنه قد وصل الآن رغم محاولات التشويه إلى قرابة عشرة ملايين، ونحو أربعة ملايين فى ألمانيا، وقرابة خمسة عشر مليونا فى روسيا.

وهذا الانتشار الواسع، وفى بلاد عديدة لم تجر فيها أى فتوحات إسلامية، قد جعل النسيج الإسلامى حافلا بأشكال مختلفة تبعا لطبيعة الشعوب ولغاتها واختلاف ظروفها الاجتماعية والمادية والتاريخية . ولكن هؤلاء الملايين من المسلمين الذين يناهزون الآن

بليونين - منقادون لله عز وجل، متمسكون بالولاء له ولكتابه المجيد وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - لا يمحو أحد أو يجور على شخصية أحد، وإنما يسانده ويعينه على الاستمرار فى الاتجاه إلى الله تبارك وتعالى . وهذا هو التوجه الذى يجب أن تعنى به الدعوات الإسلامية المعاصرة .

فى القرآن المجيد :

" قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ " (الناس ١، ٢، ٣) .

تعالى الحق سبحانه علوا كبيرا عن أن يكون حكرا لشعب أيا كان، أو أن تكون معرفته أو الهداية إليه وعبادته والولاء له - امتيازا لشعب أيا كان ..

" وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ " (البقرة ١١١، ١١٢) ...

" وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ " (المائدة ١٨) ..

وهنا يتوقف محمد عبد الله محمد ليورد أنه خلال الأربعة عشر قرنا التى مرت، لم ينجح أى شعب مسلم فى أن يتزعم - زعامة

دينية ـ سائر الشعوب المسلمة الأخري .. فلا أفضلية لشعب على آخر .. ولا أفضلية لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ..

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " (الحجرات ١٣) ..

وفى الحديث النبوى : " ليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر ـ فضل إلا بالتقوى " .

الرغبة فى الزعامة الدينية لا تتفق ورسالة الإسلام، ولا تصلح معها دعوة الحق .. وما صدق ويصدق على الشعوب، يصدق من باب أولى على ما هو أضيق وأصغر منها من الجماعات والطوائف والمذاهب والأحزاب والفئات .. وهذا أصل من أصول التقريب .

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

معنى عالمية دعوة الحق

من البديهى أن عالمية دعوة الحق، لا يمكن أن تعنى بالضرورة أن يتسيد المسلمون على العالم كله سياسيا أو اقتصاديا أو فكريا .. ذلك أن الاتجاه إلى الحق عز وجل خال تماماً من التسيد على الخلق، وهو حق الوصاية والسيطرة والتسلط على الأرواح والعقول فى جميع أشكالها وألوانها .. إن الدعوة تتجه وتتساعد ما وسعها ـ الأرواح والعقول الحرة غير المكبوتة أو المكبلة .. والعواطف الإنسانية لا الحيوانية .. لتتجه كل هذه الأرواح فى كل مساعيها إلى الحق تبارك وتعالى، وتسلم له قيادها النهائى بلا قيد أو شرط .. وكيف تصنع قيوداً أو شروطاً وهذا هو إخلاصها لفطرتها ومصيرها ؟

يؤكد الأستاذ الجليل محمد عبد الله محمد، أن الاتجاه إلى الله تحرك حىّ نشط لروح حية نشطة .. حياته متوقفة على نشاطه وقوته .. إذا وهن وضعف ـ انقطع وخمدت الروح !

يلفتنا محمد عبد الله محمد إلى أن من أجمل الأشياء وأجلّها فى عين المتأمل، سمو وتعالى العقيدة الدينية، وثباتها على مَرّ وهجمات الزمن، وعدم خضوعها لقصر أعمار الأفكار والأذواق .. على أن المفاهيم " المعينة " للعقيدة " المرتبطة " بأزمان أو أمكنة " معينة "، لا يمكن أن تقاوم إلى غير حد ـ تراكم التآكل والتيبس فيها،

* العالم ٢٠١١/٦/٦

أمواج التغير والتحول المستمرة فى العقول والقلوب، وتوالى الموت الميلاد على البيئات التى تتداول هذه المفاهيم " المعينة " .

إن بقاء العقيدة هو بقاء جوهرها غير القابل للهرم، لأن هذا الجوهر غير مرتبط بظروف زمان أو مكان .. ولذلك يبقى فعالا ادرًا باستمرار على إقناع وإرضاء وإشباع أجيال جديدة من الأرواح والعقول إلى ما شاء الله .

ولذلك فإن من أهم واجباتنا، فيما ينبه محمد عبد الله محمد، واجب تمكين العقيدة من أن تعيش حيّة جليلة .. وهذه الحياة الجليلة مكانها العقول والعواطف الشجاعة المخلصة، وتبقى حيّة مؤثرة ما بقى على الأرض أناس يحملون الشجاعة والإخلاص . وسبيل هذه المعايشة الضرورية الواجبة - هو الفهم المخلص والمزيد منه ومن الإصرار عليه . هذا الفهم هو لدور العقيدة ومهمتها فى حياة الناس، بالدقة التى يتطلبها عصرهم، وبتفاعلها الرشيد مع القيم والمعارف والأفكار الجادة المقبولة فى ذلك العصر .

ومن المهم الالتفات إلى أن الحياة فى مجملها عادات، واختلافها اختلاف عادات، ومن أجل ذلك فإن الدين لا يضع للناس صيغًا رياضية كالمعادلات الجبرية أو الكيماوية، وإنما يضع معايير وضوابط للسلوك المتوجه إلى الحق عز وجل . ويتوقف نجاحها أو فشلها على مبلغ نمو ضمائر الناس وإخلاصهم وحسن نيتهم ونمو إدراكهم وذوقهم وقدراتهم على التعامل المثمر مع ظروف بيئتهم وعملهم .

إننا نسىء إلى الإسلام، مع الإساءة لأنفسنا، حين نتصور أننا لا نكون مسلمين حقا إلا إذا طوينا القرون القهقرى، وعدنا بحياتنا وقلدنا تقليدا حرفيا لا يتمثل المعنى والمغزى - ما كان عليه الأسلاف فى حياتهم المادية والفكرية والعاطفية من قرون . ومن

يفهم الإسلام، يدرك أنه لا يغفل ولا ينسى أن السنة المطهرة روح وتأثير روح فى أرواح .. فالسنة ليست محض محاكاة مساكن وملابس ومآكل ومشارب وعادات اجتماعية كانت بنت زمانها ومكانها . إن السنة ليست تقليد أساليب ووسائل وأدوات للتواصل والاتصال والانتقال وتعاطى السلم والحرب .. فإن ذلك كله قد تغير وتغيرت معطياته بما لا جدوى معه ولا معنى ـ من محاكاته كما كان، أو تقليده تقليدا ماديا متكلفا لا معنى له ولا غاية حقيقية منه .

يرى محمد عبد الله محمد أننا نتجاوز قدرنا وسلطتنا ـ إذا حاولنا أن نخطط نحن معالم الحياة الإسلامية مثلما ينظم الواقفون ويخططون لأوقافهم وحبوسهم، أو مثلما يخطط ويتحكم المحتكرون فى أحكارهم!

لا يستطيع أحد، ولا يملك، أن يلزم الأجيال القادمة بتخطيطه وتنظيمه، ولا أن يسبقها إلى رؤيتها لما ترى أن تتفاعل فيه مع زمانها .. إن الأجيال القادمة ستبقى إن شاء الله تعالى مسلمة، إلهها واحد، وكتابها واحد، ونبيها واحد .. لا لأننا ألزمناها وكلسناها على ما نراه فى زماننا، وإنما لأن جوهر الإسلام يأخذها ويمم بها إلى حيث وجهتها واتجاهها بإخلاص إلى الله عز وجل .

❁ ❁ ❁

على هامش معالم التقريب *

لا وصاية لأحد فى دعوة الحق

إن فهمنا الآن للحياة الإسلامية، ومهما كانت صحة مصادره فى اعتقادنا، متأثر بلا ريب بعقليتنا وظروفنا ومعارفنا وأذواقنا، وبالقيم وطرق التفكير والعوائد الفكرية والاجتماعية السائدة بيننا فى زماننا ..

هذا الفهم مع مصادره الإسلامية، هو أيضًا ابن زماننا وأثره علينا وعلى عقولنا وتفكيرنا إلى آخر ما تتطبع به حياتنا مما يصاحبها مما سلف .. بيد أن الأجيال القادمة، بغير انقطاع ما امتدت موجات المستقبل، لن تعيش ـ أى هذه الأجيال ـ إلا فى زماننا الذى سيكون فى المستقبل قد ولّى وأصبح ماضيًا .. وهذه الأجيال المستقبلة لن تعيش حياتها مولية وجهها نحو الماضى الذى كان قبل وجودها، ولن تحيا ضد حاضرها وما تأمله فى مستقبلها .. وليس معنى هذا مخاصمة الماضى .. فأجيال البشر تتزود مما هو جوهرى للغابرين الماضين، وتأخذ زادها مباشرة من القرآن المجيد والسنة المطهرة .. تأخذه بنفسها هى لنفسها هى وبعقليتها ومعارفها وأفكارها وأذواقها وقيمها هى .. وهذه هى سنة الله خالق كل شىء سبحانه وتعالى يغير ولا يتغير .

يعود محمد عبد الله محمد ليذكّر بأن دعوة الحق دعوة عالمية من حيث هى دعوة روحية وإنسانية .. وهذه العالمية ليست عالمية دولة

* المال ٢٠١١/٦/٧

أو سلطة أو جهة أو جماعة أو حزب تبتغى فرض سلطانها أو سيطرتها على شعوب الأرض بحجة أن هذا السلطان هو سلطان الله عز وجل . فى السالف وقع غيرنا فى هذا المنزلق فلم يستطع الخروج منه سالما .. لأن هذا المنزلق كثيرًا ما يختلط فيه الميل إلى السيطرة أو الهيمنة ـ بتصور الإيمان بالله ومجد الله وحكمه .. فى هذا المنزلق ـ وهذا درس التاريخ ـ تشتبك الدعوة الدينية مع السلطة الزمنية، وتُؤْخذ الدعوة الدينية فى متاهات المنافسة على الحكم وإدارة الحكم وسياسة الحكم، ثم لا تلبث الدعوة الدينية أن تجد نفسها ورقة من أوراق اللعب على مائدة السياسة .. يقبلها الحاكم أو السياسى ويحرص عليها، أو يلقى بها ويمزقها .. تبعًا لحساب الأرباح والخسائر عنده !!

إن صاحب السلطان السياسى لا ينام إلاّ وهو مطمئن إلى أن كل شىء مهم فى دولته تابع لسلطانه .. حتى الدين والقائمين على الخدمة الدينية .. لذلك فنادرًا إن لم يكن محالا ـ أن يترك السلطان السياسى لغيره تعيين أو تقديم كبار رجال الدين فى دولته .. وكأنه يريد أن يكون اتجاه النفوس إلى الله مشربًا على الدوام بالاتجاه إلى السلطان ودولته يلتزم بهما ولا يبتعد عنهما !

إن دعوة الحق إذا وضعت فى حسبانها رضاء السلطان ومساعدته، فإنها تدفع حتما أضعاف ما تناله من رضاء !! إن ملاذ الدعوة الأساسى بعد الله عز وجل، هو الإنسان العادى .. الأدمى البسيط غير المهم .. المنتمى لعباد الله الذين لا يطلبون المعالى أو ينشدون الشهرة والجاه والاستعراض !!

هؤلاء الناس البسطاء المستورون هم فى الواقع " نَحْل " الدعوة الذين ينقلون لقاحها وينشرونها دون مقابل ودون انتظار لأى مقابل .. يحملونها مع الخوف عليها فى صمت وتواضع، يحمونها ويحدبون

عليها عبر الأجيال والمحن والأزمنة .. بهم تبقى دعوة الحق حيّة فى قلوب الكثرة ولا يمكن أن تموت لغياب قادة أو رؤساء أو لغيبوبتهم. إن صلاة هذا الجمهور : جمهور العاديين المستورين، هى التى تعطى مبنى المسجد صفته وحياته، وتجعل منه بيتا خالصًا لله عز وجل ..حتى وإن كان بانيه لم يقصد ببنائه إلا الصيت والسمعة!

إن الطريق إلى الله ليس مقصورًا على هذا أو ذاك من الآدميين .. ويخطئ الآدمى، وهو غير معصوم ـ يخطئ الاتجاه إلى الله حين يتصور أنه هو وحده القادر على رؤية طريق الله .. مثل هذا يتجه دون أن يشعر إلى نفسه، وينكفئ على نفسه، ويحاول ما وسعه أن يلفت الناس إلى نفسه . إنه عندئذ يحصر ولا يقبل الحصر، ويسعى لاحتكار ما لا يجوز عليه الاحتكار !

إن كل دكتاتورية تبدأ من بداية مثالية، هكذا ينبه محمد عبد الله محمد، وتأخذ هذه الدكتاتورية شكل الآدمى الذى يحاولها، ومثل هذا يتصور أنه الذى يعرف طريق الله وأنه وحده الذى يفهم أوامر الله ونواهيه، وأنه وحده القادر المؤهل لتفسيرها ولا يجوز ذلك لسواه!!

واللافتة المعتادة لمثل هذا المستبد ـ هى التزام التقشف الذى يعتبره مفتاح استمالة القلوب إليه .. لا مكان عنده للحياة السعيدة، ولا للمشاركة فيها، ولا يجوز عنده أن يرفع الآدمى رأسه وينطلق فى العالم الواسع بلا خوف أو بعيدًا عن وصاية هذا المستبد عليه !

يختم محمد عبد الله محمد كتابه الضافى، بأن الاتجاه إلى الله مزيد من الحرية للروح والعقل ، تثيره دعوة الحق تبارك وتعالى ، فتصحو في الآدمي إنسانيته وتهب وتنشط فيتذكر وقد ذكر ويهتدي ويحسن الاختيار وقد أرشد ونبه . أنه ليس اتجاه قطعان أو أسراب أو حشود

من الإمعات الغافلة تدفع إلى حيث يوجهها السائق، إنه ليس اتجاه نفوس تتعالى على الحياة وتحسب أن تعاليها هذا يعطيها أفضلية في عين الله على الأحياء الحقيقيين العاديين ، إن الاتجاه إلى الله هو الاتجاه إليه سبحانه وتعالى في الرضاء بالحياة وقبولها بحقوقها وواجباتها ، ومواقعاتها بجانبيها الخشن واللين ، والاعتزاز بها وبشرفها وكرامتها وبمسئولياتها وصعوباتها وأعبائها وامتيازاتها ، وجميع ما لله عز وجل فيها من آلاء وآيات لا آخر لها .

✿ ✿ ✿

فى المحامـــاة

محمد عبدالله
ودوره المؤثر فى المحاماة *

كان مبدأ " الاقتناع"، ولا يزال، هو أساس القضاء الجنائى، فى رحابه يحلق القاضى فوق السحاب ناشدا الحقيقة الفعلية الواقعية لأن المصائر والحريات والحيوات لا تحتمل هنة مهما صغرت .. ومن هنا دلفت المرافعة الشفوية لتكون هى روح القضاء الجنائى، فالمنطق الجنائى لا يقوم على منطق الحساب والتقييد، وإنما على سنة الغوص والتعمق والاستشراف والتحليل .. وكلها مجالات عميقة عريضة لسبر النفس الإنسانية التى تطل إطلالا حاضرا فى الدعاوى الجنائية عامة، وحكمة ذلك واضحة، فاشتراط الدليل الكتابى على واقعة السرقة أو النصب أو الاختلاس أو إهدار المال العام ـ تصور سقيم ..لأن الجانى لا يقدم " كتابة " صك إدانته، كما أن اشتراطه سقم أخطر فى جرائم القتل والبلطجة والعدوان والضرب المفضى إلى الموت أو إلى عاهة، وفى الجاسوسية أو الحرابة أو الخيانة وما إلى ذلك من صور عديدة ومتباينة للجرائم .. فليس يعقل أن يقترن ارتكاب الجرائم بتقديم الجانى دليلا كتابيا على فعلته، بل إن الفرض فى عالم الجريمة أن الجانى ـ فيما عدا جرائم التزوير فى محررات ـ يسعى لطمس الأدلة كتابية كانت أو مادية أو فنية، لأن ضبط هذه الأدلة فيها هلاكه الذى يريد أن يتحاشاه ليفر بجريرته أو بجريمته .. ولكن شهادة الشهود، والأدلة المادية والفنية

---

* عن كتابى : رسالة المحاماة ـ دار الشروق سبتمبر ٢٠٠٨

بعامة، وعلم الأدلة الجنائية من بصمات وتحاليل وأطياف، هي عدة القاضي الجنائي في تكوين عقيدته التي يأبى - ويأبى العدل ـ أن تقوده أو تسلسه لغير الحقيقة " الفعلية " " الواقعية " التي لا يرضى عنها بديلا .. وسماع الشهود واستعراض الأدلة يتم شفاهة بتحقيق المحكمة، وتتناولها تحليلات ومرافعات كل من النيابة والدفاع في ساحة القضاء .. هذا العلم الواسع يتنادى بالغوص والتحليق والتحليل .. هذه هي بضاعة الاتهام والدفاع، وهي هي عالم القاضي الذي ينشد الحقيقة ويستخرج في الوصول إليها كل ما لديه من أدوات الاقتناع من نباهة وفطانة وذكاء وتحليل وعلم واستقراء واستكناه وإبحار في عوالم شتى تلتئم فيها مطومة قدراته لهدايته إلى الصواب والحق الذي يريد ويريده المجتمع منه .

من أجل هذا وغيره كانت " المرافعات " هي الشغل الشاغل للمحامين والمحاماة، كيف تكون، وبأى أسلوب، وبأى لغة، وبأى صيغة، وبأى إيقاع .. هذه كلها خواطر تثيرها المرافعات وتستلزم الاختيار والانتقاء والاتباع .. لا يعدم فرسان المحاماة نصائح يلقيها شيوخ المهنة والسابقون من كبار أساتذتها .

نسمع فيما نسمع لنجم المحاماة الأستاذ الكبير أحمد رشدي يتحدث عن المرافعة في الكتاب الذهبي للمحاكم الأهلية الصادر ١٩٣٧ فيقول : ـ " المرافعة رسالة يؤديها المحامي عن صاحب الحق إلى من يملك إقرار الحق أو إنشاءه ؟ إذن لا مناص من أن يتزود المحامي ـ لتبليغ هذه الرسالة ـ صدق اليقين وقوة البرهان، وأن يرى كيف يمهد سبيلها إلى الأسماع ثم إلى القلوب بلطف الأداء ورفق العبارة وحسن الخطاب .. فالمرافعة ليست بذلك هي الفصاحة وحدها، ولا هي العلم بالقانون وحده، ولكنها قبل أن تكون غزارة علم وزخرف كلام، يجب أن تكون حول الدعوى سياسة ويقظة

واستبصارا، وحول الدليل حذقا فى الأداء ولباقة فى إيراد الأمر وإصداره " هكذا تكون المحاماة لمن أراد ! .

هذه المبادى العامة لا خلاف عليها، ولكن المحاماة نفسها ـ ومنها المرافعات ـ قد مرت عبر مدارس مختلفة، ابتداءً بمدرسة الخطابة اللغوية البيانية المعتمدة ـ فقط ـ على الجزالة والبديع والمحسنات اللفظية من جناس وطباق ... إلخ، وكان ذلك هو الطابع الغالب على المحامين فى بواكير المحاماة .. حين كان لا يشترط فى المحامى ـ بل والقاضى ـ ان يكون حاصلاً على إجازة الحقوق، ومع تقدم الفكر القانونى وتوافر الأعداد المناسبة لإمداد القضاء والمحاماة بحاصلين على دراسات قانونية، إنتقلت المرافعات ومعها المذكرات والأحكام نقلة نوعية احتل فيها القانون مكانه، ووجدت الحجة القارعة والبرهان الفنى مكانهما فى المرافعات وفيما تقره وتأخذ به الأحكام .. هذه المرحلة لم تكن مرحلة واحدة، وإنما تداخلت فيها حلقات مثلتها أجيال تبعا لابتعادها التدريجى عن المحسنات اللفظية البحتة واقترابها من القانون وعناصره وحججه وأسانيده مع أسس الاستدلال وقواعده وفنونه .

على أن هذا لم يكن حسب " المرافعات " وأدائها من التطور، فالوقت المتاح الآن للمترافع أضيق يقيناً من الوقت الذى كان متاحا له فى الزمن الفائت، ولغة الخطاب الآن ـ ومفردات اللغة ـ ليست كلغة الخطاب ومفرداته فى الزمن الغابر، وظروف الأداء التى تمارس فيها المرافعات اليوم ليست كالظروف التى كانت .. والمحامى الذى لا يدرك التطورات التى تزحف على " المرافعة " يفصل نفسه عن الأداء الواجب الذى هو غايته فى محراب العدالة .. فليست المرافعة محض خطابة .. هى فرع عليها : نعم، يجزئ فيها الإطلال على كتاب " الخطابة " لأرسطو طاليس، وعلى مؤلفات سير ومواطن

الفن والإتقان فيمن اشتهروا بالخطابة بدءاً من شيشرون ومرورا بنماذج عديدة فى الغرب والشرق .. ذلك أن المرافعة خطاب " خاصة " إلى " خاصة "، فيها من الخطابة ولكن بمعناها العصرى الذى يلائم روح وظروف العصر، وطبيعة المحاكمات وظروفها ولغة الخطاب فيها وما تستلزمه .

على أن محمد عبدالله محمد ـ صاحب دور ريادى فى تحقيق نقلة نوعية وكيفية فى الأداء فى المحاماة .. حين رأيت أستاذى وأبى بالروح والعقل، الدكتور محمد عبد الله محمد ـ مدافعا فى قضية رشوة أمام محكمة جنايات القاهرة برئاسة المرحوم المستشار صلاح عبد المجيد فى أبريل ١٩٧٧، كانت كل معلوماتى عنه من أحاديث متفرقة لأبى رحمه الله، يذكره بالخير والتقدير والإعجاب، ويصنفه ضمن عباقرة المحاماة، وأنه علامة متميزة فى جيلهم . ولكنى لم أكن رأيته حتى ذلك اليوم من ابريل ١٩٧٧ . سبقه فى المرافعة بالقضية وزير سابق للعدل، أصغر سنا وتخرجا، ولكنه لم يجد بأسا فى أن يسبق الأستاد الأكبر فى المرافعة .. مادام سيادته كان وزيرا، ولا وجد الأستاذ الكبير غضاضة فى ذلك .. كان الوزير السابق مترافعا ملحوظا، طلق اللسان، متدفق العبارة، ولكن لاحظت أن الخيط بينه وبين المنصة مقطوع، وأن الغفوة فى خفقة سريعة ربما اخذت أحد عضوى المحكمة، حتى إذا ما أنهى الوزير السابق مرافعته فى ساعة ونصف .. شدنى رجل قصير ممتلئ أصلع الرأس، وقف بخفة ظل يستأذن المحكمة فى أنه لا بد لمشيحته أن يقول شيئا بعد مرافعة زميله الفخيمة، ويستأذن فى سبع دقائق ليس إلا .. رأيت الوجوه على المنصة قد أقبلت وأشرقت، ولمحت احتفالا بالرجل دعانى أن أسأل من يكون، فقال جارى إنه الأستاذ محمد عبد الله محمد .. راقبته فى شغف بانبهارى السابق الذى زرعه أبى

رحمه الله فى صفحة وجدانى من أيام الدراسة، فلفتنى أنه حريص على ألا ينقطع الحبل والانتباه بينه وبين المنصة، لا يتقيد بألفاظ متقعرة، أو يحرص على فخامة متعمدة، إنما ينساب فى سهولة ويسر، ولكنها قد أخذت على المحكمة ـ هكذا لاحظت ـ كل انتباهها .. فرغ من مرافعته القصيرة، ولكنه ضرب فيها الاتهام ببراعة وبالسهل الممتنع ـ فى ثلاثة مقاتل لم أرها فى مرافعة الساعة ونصف للمترافع السابق، ثم انسحب من أمام المنصة وهو ينظر فى ساعته ويعتذر صاحكا بأنه سرق ثلاث دقائق زيادة عن السبعة التى وعد بالالتزام بها .. كانت الوجوه متبسمة محتفية، ثم بعد المداولة صدر الحكم بالبراءة وإنا أرقب هذا الدرس فى شغف وإعجاب .. يومها لم أجد فرصة للحديث إليه، ولا لتعريفه بنفسى.. ثم مضت شهور، فوجدتنى من موافقات المقادير إلى جواره والأستاذ أحمد الخواجة فى جناية عرض رشوة متهم فيها زميل منظورة فى صيف ١٩٧٧ أمام محكمة عسكرية عليا فى العباسية، وكانت القضية مشدودة، والجو فيها متوترا، لأن الرشوة المعروضة كانت على أحد أمناء السر لإحدى دوائر المحاكم العسكرية العليا .. على قدر قلقى على الزميل من التوترات المحيطة مع أملى فى تجنيبه مخاطر رأيت نذرها قادمة، على قدر ما تمتعت بصحبة الأستاذ الجليل محمد عبد الله محمد على مدار أسابيع امتدت إليها المحاكمة .. لاحظت فيما لاحظت أن الأستاذ أحمد الخواجة، شديد الأحترام والتوقير للأستاذ محمد عبد الله، يبذل له من الإجلال ما يبذله التلميذ لأستاذه .. أسرّ إلىّ أحمد الحواجة، وكانت هذه بداية صداقة عريضة عميقة جمعتنا، أن محمد عبد الله محمد من فلتات المحاماة، وأنه حدوته تكاد تكون بلا نظير .. راقبت الرجل بحب وانبهار على مدى الأسابيع الثلاثة، وتمتعت بصحبته بفترات الإستراحة ـ الطويلة

أحيانا ـ التى كانت تتخلل الجلسات ـ جالسته واستمعت إليه، وكانت الحياة مليئة فى ذلك الوقت بقضايا لافتة كان من الطبيعى أن تدور حولها أحاديثنا .. الذى لفتنى فى البداية وأدهشنى، أنى لاحظت أن الأستاذ الكبير ربما عَزّ عليه اللفظ فى الحديث فيتوقف لثوان يبدو فيها باحثا عن لفظ، فأقترح كلمة فلا يحفل، وثانية فلا أراه يقبلها .. ثم لاحظت أن ما تصورته " لألأة " فى البحث عن اللفظ، ليس عيّا فى اللسان، وليس نضوبا فى معين المفردات لدى هذا الأستاذ الكبير، الذى عرفته من بعد يجلس إلى قاموس المحكم والمخصص لابن سيده يزجى بقراءته وقته كأنما يقرأ رواية مسلية، وعرفت أن حصاده فى اللغة العربية ـ فضلا عن الفرنسية والإنجليزية وبعض الإيطالية ـ حصاد هائل، وأدركت بجلساتنا الممتدة إبان المحاكمة أن تمهل الرجل الذى ظننته يحتاج إلى نجدتى بما تصورت ـ ساذجا ـ أننى أمتلكه من محصول المفردات، إنما هو تمهل عالم مفكر، يبحث عن لفظ بعينه ـ لأنه كصانع الأرابيسك، سبق زمانه وفطر نفسه على ألا يختار إلا اللفظ المحكم المحدد العميق الدقيق المحدد الذى قصده .. تابعت هذا بشغف واجف، لأن ثقتى فى تدفقى تحولت إلى إشفاق من أن أكون سطحى التعبير، منصرفا للفصاحة اللفظية عن الفكرة العميقة، وظل هذا الإشفاق يتزايد، حتى انصرمت المحاكمة وأوصلته بسيارتى فى اليوم الأخير إلى بيته بشارع النور بقرب نادى الصيد .. كنت أقود السيارة وهو إلى جوارى، فما دريت إلا والرجل يقول لى بحنو إنه سمعنى مترافعا، وأننى محام واعد، وأنه لا يعنى بذلك أننى الآن لست محاميا كبيرا، ولكنه يقصد أنه يتوسم أن أحقق المزيد فى خطواتى فى المحاماة .. لازلت أذكر عباراته الحانية : " يا رجائى، لدى ما أعطيه لك، فإذا وجدت لديك وقتا فلا تتردد فى زيارتى " .. قلت أين ؟ قال : فى

المكتب إن شئت، وفى البيت إذا أردت .. مر أسبوع على هذا الحديث وأثر الرجل يزداد عراضة فى وجدانى، وإشفاقى يربو ويتمكن منى أن يكون تدفقى محض فصاحة لفظية لا تتعمق تحت السطح كما رأيت الأستاذ الكبير يتعمق .. ظل هذا الهاجس يربو ويزداد حتى تمكن منى، وبدأ يؤثر فى قدرتى على التدفق، لأن صورة محمد عبد الله محمد لا تفارقنى .. حاضرة فى ذهنى وصفحة وعيى فى كل عبارة أحاول صياغتها فى مرافعتى !!

أصابنى ـ كما رويت فى موضع آخر ـ أصابنى ما يشبه الصدمة من أسلوب محمد عبدالله محمد، مع أننى لم أكن يوما من المنتمين لمدرسة البديع، بل وتأثرت باكرا بكتابات الأستاذ الكبير يحيى حقى وحرصه الواضح على التدقيق فى اختيار ونحت الألفاظ، وبكتابات الأستاذ الدكتور محمد مندور عن جرس العين البديل عن جرس الأذن الذى أصاب الصياغة العربية، وعما أسماه بالشعر المهموس الذى تتغلغل معانيه وينساب أثره كأنه الهمس تتلقاه العيون وبلا ضجيج يقرع الآذان .. إلا أن محمد عبد الله محمد فجّر أمامى عوالم هائلة، لفتنى فيه علم هائل غزير لا يستعرضه وإنما يتضح فى كل ما يتناوله، وإلمام هائل باللغة العربية فى القواعد والأصول، وفى الصرف والنحو، وفى المفردات والصيغ والتراكيب، بيد أنه يوارى هذا كله عن قصد لأنه منصرف إلى الغاية وهى التوصيل، وهو يتحقق بجعل الكلمة والعبارة فى خدمة الفكرة لا العكس .. لفتتنى هذه القدرة الهائلة على تقديم الموضوع على الذات، وعلى مجافاة " اللاستعراض " الذى يستهوى أنصاف المتعلمين بينما صاحب هذا العلم الغزير يشفق عليك من استعراضه، ويسرب مراده إلى السامعين فى سلاسة وبساطة وتواضع لطيف لا إفتعال فيه .. انشغلت منبهرا بالنموذج العظيم فانحبس

لسانى إشفاقاً من الوقوع فى هوى : " الفصاحة " أو "الاستعراض"، وخوفا من أن تكون الفكرة قعيدة عن التحليق الواجب الذى رأيت فيه الأستاذ وكأنه طائر بفكره وحجته فوق السحاب !

* * *

متحرجًا مترددًا، قصدته فى مكتبه بعمارة يعقوبيان على غير موعد، بيد أن حفاوة الأب الأستاذ أزالت للفور حرجى وترددى، فانسبت أشكو إليه حالى وأننى منذ سمعته شككت فيما لدى وفقدت تدفقى، وهذا أخطر ما يتعرض له مرتجل الكلمة !!.. يا لعظمة الأستاذ، سحان الأب هدأ روعى، وفرغ نفسه لى، ولا زلت أذكر عبارته لا انساها قط وكأنه لا يزال ماثلا أمامى : " لا تخف .. إن معنى توقفك أن شجرتك طيبة وستورق " .. لمح الدهشة صامتة فى عينى، فتابع يقول إن معظم الناس يخرجون من الدنيا كما دخلوها، لا يتوقفون فى اندفاعهم المعتاد، ولا يتأملون ولا يراجعون، مثل هؤلاء يجافيهم النمو .. لأن النمو هو حصاد التوقف والمراجعة والتأمل .. وأن الوقفة التى أزعجتنى هى هى التى يجب أن تشحذنى، لأنها دالة على رغبة صادقة فى مراجعة النفس، و لاخوف بتاتا من مراجعة النفس، لأنها تهيئه لمزيد من الفهم والتعمق، وسبيل إلى النمو والتطور !

منذ ذلك اليوم لم افارق هذا الأب العظيم .. على مدى ربع قرن وحتى وداعه الدنيا سنة ٢٠٠٠ بعد أن جاوز التسعين بعامين، جاورته ولازمته، لأتلقى منه نبعاً فياضاً من الأبوة لعلها جاوزت أبوة الدم .. انقطعت عنى أبوة الدم بالرحيل المبكر لأبى رحمه الله وأنا فى الثالثة والعشرين قبل أن تتسع الفرصة للتلقى الفاهم الناضج الواعى وبعيدا عن شواغل رحلة الدراسة أو بمأمن من

تهلاكات لعب الصبا وأول الشباب، كانت أبوة محمد عبد الله أبوة صادقة خالصة، جاءت فى أوان النضج والعقل والإخصاب ولم تنقطع عطاؤها يوما على مدى ربع قرن، بل ولا يزال عطاؤها حاضرا فى حياتى بعد رحيله .. أذكر على الدوام أننى " صنعة يدى محمد عبد الله محمد " .. لم يكن الدرس الأول الذى تلقيته منه إلا نقطة من محيط زاخر ظللت أغترف منه طوال ربع قرن اتصفت بالأب الأستاذ .. لا يشغلنى إلا أن أستثيره بفكرة أو بسؤال أو بمعضلة، إلا وأتلقى منه رطبا جنّية لا تفيض بها إلا شجرة طيبة مورقة، وقلب عامر بالمحبة والإيثار وبأبوة حقيقية تجاوز الأعراق إلى فهم شامل للكون والحياة وإلى إدراك عميق بدور الآدمى فى الحياة .. عطاء محمد عبد الله محمد الزاخر الفياض فرع على عطائه للحياة التى أمضى عمره مخلصا لفهمه العميق أن الحياة ذاتها نعمة ربانية ينبغى للحى العاقل أن يحافظ مخلصا على معناها .

* * *

اخترت الحديث عن الأستاذ الجليل محمد عبدالله محمد، ليس فقط لكونه صاحب الأفضال التى لا تعد ولا تحصى، ولكن لأنه المثل الواضح للنقلة الكبيرة التى قطعتها المرافعات والمحاماة بعامة للخروج من الإنحصار اللفظى واللغوى إلى عالم الفكر والتأمل وبراعة الاستدلال والاستنباط من قاعدة معلوماتية ومعرفية واسعة عميقة .. كان الأستاذ الجليل هو معلم المعلمين فى عمق الاغتراف من زادها الذى وفره لنفسه عراضة وعمقا وكثافة على مدى عمره، كان رجل الفقه، والقانون، والأدب، والشعر، والفن، والفلك، وكما من المعارف فى بحورها العديدة المتنوعة .. كان رحمه الله كالملاح الغواص، يسبح ويغوص فى هذه العوالم ليستخرج اللؤلؤ والمرجان، ليعطى المثل الأعلى على جوهر المحاماة كرسالة إقناعية أداتها اللغة

نعم، ولكن مادتها العلم والفكر، وبوصلتها العقل .. يتجلى ذلك في مقالاته وغالبية مؤلفاته القانونية : " في جرائم النشر " و " بسائط علم العقاب "، مثلما يتجلى في كتابه الرائع " معالم التقريب بين المذاهب الإسلامية "، أو في ديوانيه " العارف " و " الطريق " اللذين يحتويان دررا من الشعر العمودي في الفكر والكون والحكمة والحياة !

لم يكن غريبا أن يكون محمد عبد الله محمد قبلة العلماء والكبار، كان من المترددين عليه طلباً لعلمه وفضله، الأستاذ الكبير الدكتور على راشد، والأستاذ الكبير الدكتور عز الدين عبد الله، والسياسي الكبير فؤاد سراج الدين، والأستاذ الدكتور حسن الابراشي، والأستاذ الدكتور عبد المنعم الشرقاوي، ولا كان غريبا أن يكون نسيج وحده بين المحامين وأهل الفكر والأدب بعامة ..

كان محمد عبد الله محمد التجسيد الحي للالتفات الواعي لجوهر المحاماة ومعطيات المرافعة وأن المخاطر على اللغة تأتي في معظم الأحوال من الإلقاء المسموع، أو ما يسمى بالخطابة، والمرافعة فرع منه فهي لغة حديث لا لغة كتابة .. ذلك لأن الإلقاء المسموع يغرى بجرس الأذن، مثلما يغرى بالتنغيم الذي يؤثر في الوجدان .. بيد أن مشكلة المرافعة أنها ليست خطابة إلى عاديين، وإنما هي خطاب عقل - وينبغي أن تكون - إلى عقلاء علماء عارفين .. حسن السبك والصياغة ومعمار العبارة وشحنتها وأثرها مطلوب، ولكنه في النهاية يتجه إلى عقول .. هذه المخاطبة للعقول لها قانون خاص، قاعدته العلم والمعرفة، وأسلوبه الإستخلاص والإستنباط والإستدلال وتوظيف العلم وفنونه المختلفة ليكون في خدمة وجلاء وتقوية الحجة وتجليه ودعم البرهان .. وليس معنى هذا أن مشكلة المترافع مع اللغة قد إنتهت، فهو لا يزال وسيبقى مطالباً بإحسان التعبير -

وأولى مقوماته فى المرافعة " بساطة " التعبير وبعده عن التقعر والتركيب .. القارئ يستطيع فى تأنية أن يتابع الجمل والعبارات ـ الاعتراضية، ولكن السامع ليس فى مقدوره ملاحقتها ..

ليس معنى خطاب العقل مجافاة خطاب العاطفة، فالمرافعة لا غناء لها عنها فى البيان المؤثر المشود لأسباب الرأفة، ثم لا غناء لها عنها فى تصوير " الظروف " ـ ومجالها وارد ومطروح، سواء فى أثر البواعث، أو فى انطباعات الناس عن الخطر المحدق الذى يبرر ـ أو لا يبرر ـ الدفاع الشرعى .. معطيات المرافعات معطيات متنوعة، وهى لذلك تستلزم قاعدة حقيقية عريضة تنطلق منها وتبنى عليها، لذلك لم يكن مصادفة أن تأتى المرافعات تعبيرا عن امتلاء أو خواء صاحبها، وأن تترجم عن علمه وثقافته ولغته، وعن عقله وفكره وفهمه وعمقه ونباهته وفطنته وبصيرته وإحساسه .. هذه كلها ملكات وقدرات يتفاوت فيها المحامون كما يتفاوت الناس، ولكن مشكلة المحامى أو همه الكبير أنه فى تحد دائم وانشغال واجب بتنمية هذه الملكات والقدرات وإلا فقد مشروعية دوره فى المحاماة التى هى فى جوهرها حمل لأمانات الحقوق والمناضلة للدفاع عنها .. هذه المناضلة ليست محض كلمة للتباهى، وإنما هى معنى عميق له مستلزمات أعمق يجب على المحامى المدرك للمحاماة أن يصرف همه وعمره كله لتحصيلها والاستزادة منها !

كان أمثال محمد عبد الله محمد، فى المحاماة وغير المحاماة ـ ولذلك حديث آخر، بمثابة القاطرة التى نقلت جبلا بأكمله من عصر إلى عصر، وهم لا يزالون رغم الفراق ـ شعلة الضياء التى تنير الطريق وسط هجير الحياة وعتمة الأيام !

الشعــــــر

الشاعر الأديب : *

محمد عبدالله محمد

الأستاذ العلامة الجليل محمد عبدالله محمد لم يكن محاميا فقط ن فلتات المحاماة فى القرن الماضى بطوله، ولا كان فقط عالما وسوعيا ضاربا بتعمق عريض فى كل باب من أبواب المعرفة، ولا ان فقط فقيها فى القانون متميزا ترك فيما ترك كتابا فى جرائم نشر لا يزال عمدة المراجع فى بابه رغم مضى أكثر من نصف قرن لى تأليفه، وإنما كان أديبا وشاعرا، ترك درة فكرية فى " معالم تقريب "، ونظم على مدى سبعين عاما شعرا عموديا متميزا صبر لى عدم نشره حتى وقع فى يدى فأحرته جبرا على نشره فى يوانين : " العارف " و " الطريق " .

فى ديوانه " العارف " من قصيدة : " المسرح الحر " اخترت ك هذه الأبيات :

كل العواطف أشباه مسالكها

فيها من الماء أو فيها من النارِ

فقد تسلُ إذا ما طفلة ضَحِكتْ

وقد تثورُ لدَى إيماءةِ الجَارِ

هذى وتلك ثِقابٌ أو مناسمة

وما فؤادك فى أىِّ بِمُخْتار

---

* العالم ٢٠٠٨/١١/١٣

قنادِس النهْرِ تَبْنِي السدَّ جاهدةً
هيهاتَ يثْبُتُ ما تَبنـى لإعصـارِ
دَمٌ يدورُ عجيباتٌ دوائِرُهُ لا
فرق فيهنَّ بين الفأرِ والأسَـدِ
قد دَقَّ منهنَّ قلبٌ نامَ صاحبُهُ
وربما هَبَّ من همٍّ ومـن حَسَـدِ
وربما حَمَلتْ نفسٌ مشاكِلَهَا
في جيدها ـ حبلاً مِـنَ المَسَـدِ
هذا الوَريدُ عَجيباتٌ رَسائِلُـهُ
يَمْشِينَ بالسِرِّ بينَ الروحِ والجَسَدِ

***

تيهُ الشوْكِ لم تَنْسَمْ لراغِبِهـا
الرَّاضى بالبذْرِ وهى البذْرُ والحَسَكُ
تلك العواطفُ لا رِيٌّ ولا شَبَعُ
رَضِعُ الحَصَى ! صومٌ ولا نُسُـكُ
وكيف تَفتَـحُ أرواحٌ نوافِذَهـا
حيثُ الترابُ مع الحَصْباءِ يعتَرِكُ
حيث السمواتُ قد ضَنَّتْ برحمتِها
وصارَت الأرضُ أرصاً كلَّها شَرَكُ

***

راقبتُ نَفْسِيَ ـ والدنيـا مشاهَـدَةٌ
عَبْرَ الدُّخَانِ الـذى ندعُوه أفكـارًا

وقد تفرق عمرى خارجى نُتَفًا
تَرْوى - الليالىَ والأيامَ - أخْبَارا
لِمــنْ ؟ لأمثَالِى وعندَهــمُ
من مِثْلِ هذا وقد ملُّوه تَكــرارا
فى داخلِ البحرِ يرحو فَهْمَهُ سَمَكٌ
البَحْرُ فى الفَهْمِ - إنكارًا وإقرَارا
***
مهما تَفكّرْتَ لم تُدْرِكْ سوى صِلَةٍ
ما بَين فِعْلٍ وفعْلٍ خَلْفَها فِــعْلُ
لقد جَلَوْتَ كثيرا هل تَرَى أحـدًا
إن الخِفاءَ كثيف حَــوْلَ ما تَجلُوُ
إنَّا بَنَيْنا من الأسمــاء عالَمَنَا
والكوْنُ لا يكتُبُ الأسماءَ أو يَتْلُو
ولُجةُ البحْرِ أعْجَامٌ حوادِثُهَــا
أنتَ الذى يَصفُ الأحْداث والعـقْل

من شعر محمد عبدالله محمد

المسرح الحــر ! *

من قصيدة " نظارتى " بديوان العارف للـشاعر الحكـيم محمـد عبدالله محمـد، انتقلـت إلى قـصيدة " المـسرح الحـر " .. يعنـى بهـا مسرح الحياة الذى أبدعه وينظمه خالق الكون .. هذا المسرح الملـىء ببلايين الاحتمالات التى تحيط بالإنسان فى صحوه ومنامـه، وفـى سعيه وقعوده، وفى أمله ويأسه، تصرفها مقـادير لا يمتلـك الإنـسان دفتها، يكاد يكون فيها مؤديا لدور مرسوم لا يملـك منـه فكاكـا .. يستوى فى ذلك الإنسان بتميزه واقتداره، مع الفـأر والأسـد .. كـل منهم تدور فى كيانه ذات الدماء العجيب دوائرهـا، تحمـل رسـائلها بين الروح والجسد !

من الظلام نَلمُّ النـورَ داخلنـا
ندعُـو اليقيـنَ الـذى يدْنُـو ويَبْتعِدُ
وربما بَعد وقْتٍ صـار ما معيا
حَقّـا يُورَّثُ للدنيـا ويُعْتَقَـدُ
إذا تعثَّـر ذو عقـلٍ بِريبتِــهِ يبيتُ
مضطـربَ الأحشـاءِ يَرْتَعِدُ
مِن الظَّلالِ نَخـافُ النورَ خارجَنا
نَخـافَ صَدْمَـةَ ما يَنْفِـى وما يَعِدُ

* * *

---

* المال ٢٠٠٨/١٢/٢

الناس على الدوام أسرى للعادة وما يعتقدون، أعداء ما يجهلون .. يخافون التوغل فى الأعماق مخافة التصادم مع الأفكار والمعتقدات! وتجنبا لاتهامات السطحيين الذى لا يفكرون ولا يتأملون !

أعْطَى التعصُّبُ نَسْجَ الفكرِ حبكتَهُ
قَوَّاه بالجِدِّ حيثُ الجَدُّ يُحْتَرَمُ
حيث التسامحُ فى الأركان ممتَنِعٌ
وَمَنْ تَوَغَّلَ فى الأعماقِ مُتَّهَمُ
إذا تحوَّلَ مِن قولٍ لواقعةٍ وصار
حرْباً وسِلْمًا دلك الكلمُ
ودار فى الدم يعْرُو كلَّ وافدةٍ
عربيةِ الدارِ تعزُوهُ وتقتَحِمُ

* * *

لا تَنْسَ أنّك ذو دَوْرٍ تُمثّلُهُ فى
قصةٍ أنتَ فيها واحدٌ أحَدُ !
ولن تُشارِكَ فيها الرأىَ مُخْرِجَهَا
هنا ـ برغمِكَ ـ تختارُ الذى تَجدُ
وكلّما اخترْتَ قَادَ الدَّوْرُ لاعِبَهُ
إذا اندمَجْتَ تبارَى الرُّوح والجَسَدُ
هل أنت شىءٌ خلافُ الدور خارجَهُ
أو أنت ظِلٌّ وهذا الظّلُّ يبتَعِدُ

* * *

ياأيها الفَطِنُ القاسى أتُوقِظُنِـــى
كلٌّ مـن النّـوْمِ والإيقاظِ تمثيـلُ
ماذا أنا ؟ لا أراهـا بل أُحِسُّ بها
وما خـلا ذاك تشبيـهٌ وتعليـلُ
ولستُ أملِكُ إسكاتاً لأسئلتـــى
فإنَّ أجوبَـة الفَانيـــنَ تأويـــلُ
وكيف يكشِفُ ما حولـى حَقيقَتَهُ
وكُلُّ ما فـىَّ أحْـلامٌ وتخيِيـــل

* * *

وذاك حيْرانُ لا يَرْضَـى بحيرتِـهِ
لـذا يمثِّلُ شخصًا ليس حيرانــا
يقولُ ما قَالَـهُ زيـدٌ ويفعلُــهُ على
طريقةِ عمروٍ كيفمـا كانــا
إنا نراجعُ فى التمثيلِ قدْرتَنـــا
على الأداءِ وفَهْـمِ النصِّ أحيـانـا
لكـى نقومَ بما نرجو ونُحْسِنَهُ
فقد نَزيدُ ـ بهذا ـ الحُلْمِ إيمانـــا !
المسرح الحـر أدوار وأكسيةٌ
وكل دورٍ لـه جـزءٌ من الزمن !

✿ ✿ ✿

مسرح

محمد عبدالله محمد ! *

مع المسرح الحر، أو مسرح الحياة، بما يحفل به من أعاجيب وتزيينات ومغالطات تبحث عن الغطاء الذى يستر ما لا يريد الإنسان أن يواجهه بصراحة وصدق، ويتفنن بالحيل والتبريرات للإشاحة أو الإعراض عنها، يمضى الأستاذ الخليل المحامى الشاعر الأديب محمد عبد الله محمد فيقول فيما قال فى قصيدته : " للمسرح الحرّ " بديوان العارف :

إنّا ظِلالٌ يحوّلُنا إلىَ كَذِبٍ
إلى خداعٍ صغارُ الهمِّ واللّعِبِ
لسنا أكاذيبَ فى الإعياءِ نَحْمِلُها
أو فى المَسِيرِ على جِسرٍ من التَّعَبِ
وقد يُبارِى إلى الإعجازِ ـ معجِزنَا
من الكفاحِ وعالى القصدِ والرعَبِ
يَزيدُ فى قدرِنَا أنا نُمَثِّلُه مع
المخاوفِ والأوجاعِ والعطَبِ

***

ظِلُّ الخطيئة ! ـ هذا الدور صاحبُهُ
منذ البدايةِ خَطَّاءٌ ومسئولُ

---

* المال ٢٠٠٨/١٢/٣

لـذاكَ أصبـح ذا جـدٍّ ومنزلـة
بِرأيها وبـرأى الغيـرِ مشغولُ
وراءَ كِبْـرِىَ ـ ذنبٌ كَانَ ـ أَلمَحُهُ
وَخَلْفَ دنبـىَ ذاكَ السيفُ مسلولُ
تلك الكرامـةُ ـ تمثيلٌ أمَثّلُـــه
المسْرح الحُرُّ فيه الكِبْـرُ مقْبولُ

***

دَعْ الكراسـى والأضْواءَ موضعَهَـا
ضَعْ الملابسَ أنّى شئْتَ من سكَنِ
فليس يُنْشِىءُ هذا مسرَحًا أبــدًا
مهمَا تخيَّلْتَ مِن هزل ومِن مِحَنِ
هاتِ الممثـل والتمثيلُ عندئـذٍ
يجدُ المكانُ معانيـهِ مع الزَمــنِ
وكل شـىءٍ يُرَى فى الحال قِيمتُـه
ودَوْرهُ فـى خيالِ المخـرجِ الفَطِنِ

***

يا من يعلّلُ حَظّيْهِ ليقنِعَنِـــى
علّلْـتُ قَبْلَكَ والتعليـل تمثيــل
هذا الحـوارُ المسْرَحىُّ رُقَـيبها
حياتُــك تكثيـرٌ وتقليـــلُ
الا وإنَّك حَـىٌّ صِيغَ من كَلِـم
وكم تَصرَّفَ فيـه القـالُ والقيـلُ

أنتَ المقـولُ الذى لم يَدْرِ قائِلُه
عَجْزًا وكلُّكَ ترتيـلٌ وتهليـلُ

***

هدِّئْ حماسَـكَ أشْقَى الدورُ لاعِبَهُ
لقـد سَخطتَ وهذا السخْطُ مكبـوتُ
وذاك " أنت " قريبٌ منْكَ لامِسُهُ
تَوَدُّهُ وهـو فـى عَيْنَيْكَ ممقُوتُ
"وأنت" هذا غريبٌ رافضٌ شَكِـسٌ
مـن العِنـادِ الذى تهواهُ منحُـوتُ
يثورُ للحقِّ لا يـدرِى معالِمَـهُ
وَيفتَرِى وهو بالإخلاصِ منعُـوتٌ !

***

من التـراب الذى يُذرِيه مَسرَحُـهُ
تَنَـبِّي الممثّلَ والإعجابَ والعجبَا
وكلّ وصـفٍ لذى وصـفٍ يميّزُهُ
وكُلّ معنًـى لِمَا يأتِى وما ذَهبا
بماهُ والقِيَـمَ اللائـى نَعيشُ لهـا
فالعِـزُّ والذُّلُّ تمثيلٌ لِمَـنْ غلَبَـا
ودورةُ الأرضِ لا تَحْوِى لذاكَ صَدًى
لا يأخذُ الكونُ شيئًا غيرَ ما وهَبَا

✿ ✿ ✿

أمي وكعك العيد ! *

الاحتفال بعيد الأم، يصادف الواقع، ويلاقي الدين الذي أعلى منزلتها في القرآن والسنة، ويتفق والعاطفة التي تملأ حنايا الأطفال والكبار، والرجال والنساء، الشباب والشيوخ .. لا زلت أذكر موقفا لا يفارقني قط رغم مر السنين .. كنت أجلس إلى أبي الروحي وأستاذي صاحب الأفضال التي لا تعد ولا تحصى، الدكتور محمد عبد الله محمد .. المحامي، المفكر، الشاعر، الأديب .. أتلقى منه على الدوام رطبا جنيا، يحرك الماء الآسن، ويشعل الفكر .. مضى بنا الحديث حتى طلب إليّ أن نقرأ بعضا من أشعاره التي أمضيت سنين عددا في جمع ما تفرق منها، حتى نشرتها بفضل صديقنا الكاتب الإعلامي الإنسان المرحوم الأستاذ فؤاد شاكر .. أخرجنا له ديوان "العارف"، وتممناه بديوان " الطريق " .. أمسكت بالديوان الثاني، فوقعت عيناي بالمصادفة على قصيدة بعنوان " كعك العيد " .

كنت مستغرقا في التلاوة، منصرفاً لضبط الكلمات، متمثلا أبيات شيخي الجليل ..

كانت أمي قبل يوم العيد : تجهز الكعك وكنا نشترك

إلى ثلاثٍ من صبايا العيد : أنا وطفلان وكنا نعترك

مضيت في تلاوة القصيدة قاطعا ست رباعيات، حتى وصلت إلى رباعية فيها يقول :

---

* المال ٢٤/٣/٢٠٠٨

لم تكن تطلب منا شكرها : حسبها الفرحةُ منا والسُّرةْ
وقريب يتحرى سرها : وهى لا تعرف شيئا لم ترهْ
وذلك النور الذى فى عينها : نور من أنتج شيئا كاملا

رفعت عينى عن الصفحات عفوا، قبل أن أستأنف القراءة، فإذا بالشيخ الكبير الذى ناهز التسعين وقد سالت دموعه دافئة حنونة مدرارة، ألجمنى جلال الموقف فلم أنبس ببنت شفة .. وماذا فى مقدورى أن أكفكف به عواطف انثالت بمحبة قابعة فى القلب لم تطمرها السنون، فإذا بالشيخ الذى فارقته أمه طفلا فى الثامنة .. منذ أكثر من ثمانين عاما، يتحول إلى طفل يضنيه ألم فراقها والحنين إليها !

تذكرت هذا المشهد الجليل، وأنا أذكر أمى فى عيدها، وأترحم عليها، وأستعيد مشاهد حنانها الوارف، وعطاءها الممدود، وحضنها الدافئ، وكتفها الذى طالما أعطتنى إياه لتساندنى وتقوينى أنا الرجل الكبير الذى عرك الدنيا وعركته، فلم يستغن قط عن دفء حنانها ووارف عواطفها وعطائها.. لم أستطع أن أغنى مع المغنين " يارب يخليكى يا أمى "، وإنما انثالت الرحمات مع الدعاء لها بالمغفرة والرضوان لقاء ما أعطت وما أجزلت !

لست أعرف لماذا كل الأغانى والاحتفالات منسوجة للأمهات الأحياء.. أطال الله أعمارهن .. ولكن كم من يتيم كبير أو غض تحتويه الحسرات وهو يتابع المشهد الغامر بالعواطف الجياشة، بينما أمه غائبة لا تتلقى ما تتلقاه الأمهات من لمسات الاحتفاء والوفاء !.. ظنى أن الاحتفال يفقد كثيرا من معناه إذا لم يلتفت إلى صيغة مناسبة للاحتفاء بالأمهات الراحلات، وكفكفة أشجان اليتامى وأحزان الذين حرمهم الفراق من تفاريح الاحتفال !

من شعر محمد عبدالله محمد

الشــجاع ! *

لا تدرى حين تطالع قصيدة : " الشجاع" بديوانه "العارف " لشاعرنا المحامى الفقيه العالم الأديب محمد عبد الله محمد ـ لا تدرى ماذا يريد هذا الشاعر المفكر أن يقول إلا إذا تمعنت مفرداته وتراكيبه وتعمقت مبانيه ومعانيه .. يستهلها بقوله :

غَدائِرُ الحُورِ لا خُضْرٌ ولا خُصَلُ
لولا عيونٌ تَرَى أو ناطقٌ يَصفُ
لقد أَشَاعَ جمالَ الروض واصِفُهُ
من ضاحك الزهرأو من وابلٍ يكِفُ
وأيْقَظَ القبحَ من نَوْم وحَرَّكَهُ ذا
خائفٌ فزع أو غاضبٌ أسفُ
كَسَا الوجودَ وجودا مَنْ تَصَوَّرَهُ
بالظلمِ فيهِ ومنهُ العدْلُ يتصفُ

* * *

ملأ القداسةَ بالأوصافِ صاحِبُهَا
ولم يجاوزْ بها الأسماع والْحَدَقا

---

* المال ٩/٢/٢٠٠٩

لم يَدْخُلِ الربُّ جُوَّاه فغيَّرَه
فهما وذوقا على ما فيه أو خُلُقا
الريحُ تَنْقُلُ كثبانا وتتركُهَا
ولا تبدِّلُ فى صحرائها أُفُقَا
وربما طَمرَتْ نَبْعاً تصادِفُه
وربما قَتَلتْ طيراً إذا انطلقَا

* * *

فى موضع آخر بقصيدة " الشحاع " ـ يقول محمد عبد الله محمد :

عالى بعقلِىَ عرفانى بقيمته
فليس يُرْجِصهُ يأسٌ ولا أَمَلُ
لايشربُ ابسىَ من نَهْرى ويرفُضُه
ويستَقِى عيرهُ مِنّى وينتهِلُ
تَصُدُّ عقليَّتِى بَيْتِى وتُبْعِدُهُ
عنىِّ واحْزَنُ احياناً وأمتثلُ
اقولُ ما قَالَه قَبْلى أخو شَجَس
" وَدِّعْ هريرةَ إنَّ الركب مرتحلُ "

* * *

كم خَمَّنَ الحائرُ المسكينُ أجْوِبَةً
أجابَ فيها على ألغاز ماضيا

وقسَّمَ الزمنَ الماضى إلى حِقَــبِ
ما باشَرَتْ بَشراً أو دَوَّنَتْ دينـا
لكنَّها ملَّكتنـا ما مَضَــى فغــدا
إرْثاً لنا وتلاقـت فيـه أيدينـا
وصار منا ومن أجزاءِ حاضرنَـا
نسيرُ فى ظِلّـهِ يَعْشُو ويَهدِينــا

* * *

ليس الغموضُ عَدُوًّا للحياة ولا
يعوق عاطفةً فينا ولا عَمَـــلاً
وليس فهمُك شرْطًا لانفتَـاح فم
ولا زيادة صيف جاءَ أو رَحَـــلا
ولو فَهِمْتَ لماذا ؟ ما أتيْتَ هنـا
وما تصاحَـكَ مقْتُـولٌ ولا امْتَثَلا
من الغُموضِ دخلنـاها فلا عَجَـبٌ
إذا خَرَجْنا ولم نفْهـم لها عِلَـلا

فى نسبية أحكامنا ورؤانا وتبعها أفكارنا، يستشهد الشاعر المفكر بالشمس التى هى هى لاتتغير، ولكنها تتغير فى أنظارنا تبعا لأوضاعها فى مسارها وأوضاع رؤيتنا لها، فى ذلك يقول شاعرنا :

لكم تَغَيَّر معنى الشمس مُذْ نُظِرَتْ
لأن ناظِرَهـا يَنْـأى ويقتَـرِبُ

وكم تعددت الأشكال واختلفت
مِنْ حَيْثُ تُشْرِقُ اومن حيث تَغْرُبُ
لوحدة الشمس أغراضٌ تفرِّقها على
مصالحَ تُسْتَصْفَى وتُنْتَخَبُ
زَيْدٌ يرى فِكْرَةً - فيما يشاهِدُه
كم أَخْفَتْ الشمسَ فى حسبانه سُحُبُ

***

من شعر محمد عبدالله محمد

ديوان العـارف *

من قصيدة الدوم

والحديث الثالث

العارف اسم ديوان للشاعر المحامى الأديب الفقيه محمد عبد الله محمد، ديوانه " العارف " الذى منه أغترف، وصفته : "العارف" الذى نهلت منه حيًا وراحلاً .. ما قصدته إلا وجدت ما يضيف إلىّ وما طالعت مؤلفاً من مؤلفاته، أو بعضاً من أشعاره - إلا ووجدتنى أغوص وراءه فى الأعماق، وأحلق معه فى السموات ..

طفت فى "أحاديث" قصيدته "الدوم" من ديوانه "العارف" فرأيته فى الحديث الثالث يتتبع الإنسان فى جريه وراء الدنيا الغرورة، ثم فى تأمله فى حكمة خلقه والمفارقة المتجلية بين حكمة وتدبير الرب، واضطراب وحمق العبد. فأين قصور الإنسان أمام العلم اللدنى، وكيف تكون مناجاته إلى خالقه :

قد دبَّرَ الربُّ أجزائى بحِكمَتِه
وَسُقْتُ بالحُمقِ أجزائى وإجماعِى
لكلِّ شىء بهذا الكونِ خُطوتُه
ولا انتظامَ لأنغامِى وإيقاعِى

---

* المال ١٤/٥/٢٠٠٩

لا سَقْفَ فوقَ خيالى فى تَطَلُّعِه
ولا حدودَ لإشرافِى وأطماعِى
فكيفَ يَمْنَحُ مِثْلِى قلبَهُ سَلَفاً
لم يكتملْ أبدًا بالحُبِّ إقناعِى

* * *

لاتَدَّعى العلمَ إنَّنَا بشر
لنا انتباهٌ وإدراكٌ وإلهام
ولا نَهاب من الألفاظِ سطوتَها
فتلك فى أغلبِ الأحيانِ أصنامُ
سَكْرَى تخاطِبُ نَعْساناً فَنَحْسَبُهَا
حقيقةً وهى أحلامٌ وألعامُ
تبارك الرَّبُّ هل تحتاج رؤيتُهُ إلى
فصيحٍ وهل يُخْفِيه إعْجَامُ ؟!

* * *

ربِّى تُقاتُكَ والعاصونَ مشكلةٌ
جسمٌ وعقلٌ وأشباحٌ وأرواحُ
نومٌ وصحوٌ وإسفافٌ وتَعْليةٌ
نارٌ ونورٌ وأتراحٌ وأفراحُ
هُمُ صغارٌ وأوْغادٌ ذوو حِيَلٍ
وهم كبارٌ لهُمْ شأوٌ وأوْضَاحُ
وهُمْ جميعاً لَدَى الرحمنِ فى
كَنَفٍ ولطفُ ذِى اللُّطفِ غَدَّاءٌ وَروّاحُ

* * *

صَمَتتْ بَلاَبلُ هذا الرّوضِ من حِقَبٍ
فلاَ تُغَنِّى ضِيَا فَجْرٍ ولا شَفَقِ
ولا تبارحُ أيكاً جفَّ معظمُه
ولا تطوفُ بنبعٍ فيه منبثِق
فَهَلْ يعودُ لهذا الروضِ نُضْرتُهُ
وَفضّةُ الماءِ رقراقٍ ومُنْدَفِقِ
وَشَدْوُ كُلِّ طيورِ الجوِّ يملؤه
بِحُبِّ مُنْطلِقٍ منها لِمُنْطَلِقِ ؟

* * *

لقد تَعِبْنا من الإنصاتِ فى مَلَلٍ
لِذلك الجيْشِ من شرّاحِ ماضِينَا
ولم نصادِفْ كلاماً قطُّ - أقنعَنَا
به مواجهة دُنْيَانَا وتَجْديِنَا
نِمْنَا ولم نَكُ أيْقاظاً وشَجَّعَنا
على المنامِ غناءٌ نائمٌ فينَا
به نُرَدِّدُ إيقاعاً يُخَدِّرُنَا
ويملأ النومُ بالأحلامِ وَادِينَا

* * *

اكْبَحْ جِمَاحَكَ معنى الشىءِ خارجُهُ
وليْسَ جُوَّاهُ جَلّ الشىءُ أوْ هَانَا
أنت الذى تُفرزُ المَعْنَى وتُلصِقُهُ
بالشىءِ حسَّنَ هذا الشىءَ أوْ شَانَا
هَذِى العيونُ لَدَى الغُزلان خاليةٌ
مما تَصوَّرُ فيها الشِعْرُ أحيانَا

وليسَ يَسْهَرُ نجمٌ فـى الدُّجَـى أبَدًا
إلا إذا كنْـتَ يا مسكينُ سَهْرَانَـا

* * *

ماذا تُريدُ ؟ لقد غَاضَتْ منابعُنَــا
وقَلَّ فـى رَوْضِـنَا الأندادُ والمطرُ
وذلك الشـوكُ فينــا هـل يغيِّرُهُ
تدفقُ المـاءِ إنْ يَأذنْ بـه القَـدَرُ ؟
أمْ نحنُ كالدوم لا يَسْخُو بفاكـهـةٍ
ولو تَنَاهـدَ فيـه السَّيْـلُ والنَّهَـرُ
ورغْمَ هـذا فـإنَّ اللهَ يملؤنَــا إذا
تهامَسَ صَمْتُ البيـدِ والقَمَـــرُ

✿ ✿ ✿

من شعر محمد عبدالله محمد

الدوم والحديث الأول *

ما زلت أطوف معك فى رحاب أشعار المفكر الأديب المحامى الشاعر محمد عبد الله محمد، إحدى فلتات القرن الماضى . نقلت إليك من قبل بعضاً من الحديث الثالث من قصيدة "الدوم" فى ديوانه : "العارف" .. ولكنى أعود بك اليوم إلى الحديث الأول فى هذه القصيدة التى تغرينا بالتحليق معه :

ماذا تُريدُ لقد غاضَتْ منابعُنا
وقَلَّ فى أرضِنَا الأنداءُ والمطر
وذلك الشَّوْكُ فينا هل يُغَيِّرُه
تدفقُ الماءِ إنْ يأذنْ به القدرُ
أم نحن كالدُّومِ لا يَسْخُو بفاكهةٍ
ولو تَعاهَدَ فيه السيلُ والنَهَرُ

* * *

يا مَنْ كتبْتَ بطاقاتٍ لِيحملَهَا
من أوَّل الدهرِ شاراتٌ وذراتُ
تخاطِبُ الكونَ لا الأفهامَ أحْرُفُها
فتملأُ الكونَ بالأحداثِ عِلاَّتُ

* المال ٢٠٠٩/٥/٢١

إذا أردْنَا فما معنى إرادتِنَا
ومَنْ يخالفُ ما تحوى البطاقاتُ
هذى الحماقةُ فينا وحدنا أبدا
فهل تُقَرِّبُنا منك الحماقاتُ ؟

* * *

يعدو إليه فؤادى لائذاً وَجِلاً
ما أكبَرَ الكونَ بَلْ ما أصغَرَ الأمَلاَ
يضيع فى رَحْبِهِ صوتى ويَعْبُرُ
بى بلا اكتراثٍ ويطوى سيْرهُ الأجَلاَ
فأرٌ بِجُحْرٍ رأى قصْراً فأزعَجَهُ
ضآلةُ الفأرِ إنْ وَافَى أو ارتَحَلاَ
يا من جعلتم لهُ عقلاً لِيَهْدِيَهُ
تَنَاَدَ المهدىُّ والهادى وما وَصَلاَ

* * *

أخفى النهَارُ جلالَ الكون واعتُقِلَتْ
فى صَوِرِهِ ـ العينُ إغماضاً وإبْصَاراً
وَعرَّهَا لعِبُ الألوانِ فانصرفتْ
بالقلبِ تُلْهيهِ إقبالاً وإدباراً
تبارَكَ الليلُ فى نَفْسٍ تراقِبُهُ
رَعَتْ نُجُوماً بداخِلِهَا وأقماراً
وشاهَدَتْ مطلعَ الأحلام وانْتَشَلتْ
مِنَ لُجَّةِ الليلِ أسراراً وأخباراً

* * *

هَلاَّ احترمْنَا وقارَ الصمتِ أو خَجِلَتْ
مِنْ هَيبةِ الليـلِ أصـواتٌ وأضواءُ
فطالما نسيَـتْ أرواحَهَـا نَسَـمٌ
واعْرَضَتْ عن نداءِ الأصـلِ أجْزاءُ
توَقَّفَت قلـقَ العصفـورِ خِفتُـهُ
وكم يَطِيـرُ رذاذاً فى الهَوَا الماءُ
ودلك الزَّهْرُ أيْدِى الريح تَقطِفُـهُ
لا يعرفُ الزهْرَ أشْمَالٌ وتكباءُ

* * *

خَلاَ فؤادُكَ إلاَّ مِنْ شواغِلِـهِ
خَلاَ مـن الوُدِّ والإنسـانِ واللهِ
الكِبْـرُ والخـوفُ يحتاطـان وَحْدَتَهُ
تقاسَمَا الباقى من إيمانِهِ الواهِـى
قد ساءَ رأيُكَ فى الدنيـا ومَسْلكِهَا
مذ كان فِكْرُكَ فيها الآمرَ الناهِى
إنْ تَشْكُ من صَدَاً الدنيـا فمعظَمُـهُ
صَدَى شواغِلِ قلبٍ مُغْلَقٍ ساهِى

* * *

مَلأ الحَصى قلبَكَ القَاسِى وأغلقـه
يا من يفضل أفكارا على النـاسِ
تُجِيـزُ حِرْقَ القُرى نَشْراً لمعتقـدٍ
وفـى كرامةِ جنْـسٍ قَتْـلَ أجناسِ

من لا يبالى إذا آراؤهُ نجحتْ
أىِّ بُؤْسٍ أتاهَا النُّجْحُ أوْ بَاسِ
تلك الجسارَةُ فيها الخوفُ مَصْدرُهَا
بهَا تَقايَضَ إفلاسٌ بإفْلاسِ

* * *

يا مَنْ هو الحىُّ والأحياءُ نَفْحَتُهُ
من راحةِ الأمِّ لا مِنْ مخلَبِ الضارِى
قُدسُ الحياةِ أحالتْهُ تفاهتُنَا
إلى محازِرِ آراءٍ وأفكَارِ
كم يُسْفَكُ الدمُ فى تفسيرِ مُجْتهِدٍ
وفى مطالبِ وَهْمٍ سائدٍ سارِى
كم دِيسَ أثمنُ ما فى الخلق قاطبةً
وهَانَ أفضَلُ ما قَدْ صاغَهُ البارِى

من شعر محمد عبدالله محمد

الدوم والحديث الثانى *

فى الحديث الثانى لقصيدة الدوم من ديوان " العارف " للشاعر المحامى العالم الأديب محمد عبد الله محمد، يتابع الشاعر الحكيم أحوال الإنسان فى تيهه وبحثه عن الحقيقة التى ينشدها، وحيرته فى استطلاع مراده وفهم ما خفى عليه من أسرار الكون، بين الأرض التى عليها يعيش، والسماء التى إليها يتطلع، متأملاً دور العادة التى جعل الإنسان يسرف فى زخارفها حاصرا نفسه فيها دون أن يدرك أن مسكن الرب سبحانه وتعالى فى القلوب .. فهل فى وسع الآدمى الباحث عن الحقيقة أن يعرف ربه ؟ .. لا سبيل إلى ذلك إلا بأن يصاحب الإنسان ربه .. هذه المصاحبة ليست فى وصف وَصَّاف، ولا فى جبات مسبحة، ولا فى تصايح الأولياء والأقطاب . إنه هنا قريب إلى عبده يتجلى له فى إعجازه المتبدى فى عظيم خلقه .. يقول محمد عبد الله محمد :

دا همُّهُ الأرضُ أعطى الأرض مُهجَتَهُ
تنسى السماءَ وتنسى الشُّهبَ عيناهُ
وليس فى أيْكِهِ غصنٌ لِبُلْبُلَـةٍ
ولا نداءٌ من الأجواء ناداهُ
ولا صلاةٌ مِن الأعماقِ قد وصلَتْ
ولا صفاءٌ من اليُنْبوعِ صَافَاه

* المال ١٨/٦/٢٠٠٩

وإنما فى تُـرابِ الأرضِ قَبْضتُـه
لا تترك الأرض يُمْناهُ ويُسْراهُ

* * *

هذا البِنَاءُ حَسِبْنَا الربَّ يَسْكُنُـهُ
لمَّا مَلأْنَـاهُ سجّـاداً وأخْشَـابَا
وأرْسَـلَ المسكُ فى أطباقِهِ سُحُبـاً
وحَلْجَلَ الصوتُ بالتطريـب وانْسَابَا
قد تَسْبَحُ العينُ فى أجواء مِئْذَنةٍ
لا تلْمَحُ الربَّ افعالاً وأسبابَـا
إذْ لا نفكِّـرُ أنَّ الـربَّ مسكنُـهُ
فى القَلْبِ - يتْرُكهُ - إنْ خانَ أو حَابَى

* * *

لنْ تعرفَ الربَّ إلاّ أنْ تُصاحِبَـهُ
ولن تذوقَ الهَوى من وصْفِ وصَّافِ
ياواهمَ الشّوقِ ليسَ الشوقُ مِسْبَحَةً
ولا تَصَايُـحَ أصحـابٍ وآلاّفِ
ولا تذكّـرَ جيرانٍ بِذِى سَلَـمٍ
ولاَ توقّـعَ إيلافٍ وإخْـلافِ
ولو عَلِمْتَ بأنَّ الـربَّ داخِلنـا
كُفِيتَ رؤيـة أوصـافْ وأطيـافِ

* * *

أَشَقُّ شيءٍ على الأفهامِ مَوْقِفُهَا
من البَسَاطةِ فيما يَصْطَفِي البارِي
تُحِبُّ ألاَّ تَرَى إلاَّ عجائِبَه لا
تبصِرُ النّهَر فى تيّارِهِ الجارى
كأنما الربُّ لا يُمْضِى إرادَتَهُ
إلاَّ خِلال أعاجيبٍ وأسْرارِ
هذا ولِىٌّ وذا قُطْبٌ وذا وَتَدٌ
وذاك يأْمُرُ فى الفردوسِ والنّارِ

* * *

هذى الوُرَيْقَاتُ حَوْلَ التُّوتِ موقفُهَا
من دودةِ القَزِّ مَرْعَاهَا ومَأْوَاهَا
لم تَشْكُ من فَقرِ الأيامِ خُضْرَتُهَا
ولا تَعَطّل غزلُ القَزِّ أو شَاهَا
فما تَكَالُبُ ذى لُبٍّ على مائة
من العَنَاء تَمنَّاها وحَلاَّهَا؟
وكيف يطمعُ أنْ تبقى حماقتُه
فلا تموتُ ولا تَفْنَى رَزَايَاها؟

* * *

قد صَارَ عُشًّا وذاقَ القلبُ راحتَهُ
لم يَبْقَ قَشًّا وأوْراقاً وريشاتِ
حامَتْ عَن العُشِّ حتى الموتِ قُبَّرة
لمّا احتوى عُشّها أغْلىَ اللُبَانَاتِ

تبنى النفوسُ عُشَيشَاتٍ مُذهَّبةً
تُعانِقُ الأمنَ فى دفءِ القُشَيْشَاتِ
لم تَفهَمِ الربُّ يا مسكينُ تَرى
سِوَى تَشابُكِ ريشاتٍ وقَشَّاتِ

* * *

إنّا رَبَطْنَا مراسِينَا بِخَالقِنَا
ونحنُ نَعْلَمُ أنَّ البحْرَ دوّارُ
وأننا فوقَ هَذِى الأرضِ موْضعُنا
فى قِشْرَةِ القشْرِ قد تَبْلى وتَنْهَارُ
ونَقْبَلُ الموتَ كى نَبْقَى برفقتِه
مع الحياةِ ويفنى الثلجُ والنارُ
وليس فى يَدِنَا مِنْ ذَا سِوَى أمَلٍ
فى الربِّ سيَّارٌ وقرَّارُ

من شعر محمد عبدالله محمد

من قصيدة المرجان*

المرجان عنوان قصيدة طويلة من ستة أحاديث، للمحامى الفقيه الأديب الشاعر، محمد عبد الله محمد .. فى ديوانه العارف .. استغرقت من صفحات الديوان ٢٨ ورقة .. وهى ككل أشعاره تفيض حكمة وتصرب فى الأعماق وتتأمل فى أحوال الإنسان .

تبدأ القصيدة الحديث الأول فيما يبدو أنه لفت لمن تاه به غروره، وملأ الدنيا صخبا وضجيجا، وعزه التيه بنفسه حتى ظن أنه يمتلك الدنيا بما يحدثه من تأثير فى النفوس والمهج .. فهل دام له هذا التوهج، أم غربت شمسه وصار عصفه صخبا بلا طحن ولا تأثير ..

يمضى شاعرنا الحكيم محمد عبد الله محمد - يمضى فى القصيدة متابعا ما تقلب فيه من أحوال، دون أن يمنعه ما ألم به من اتصاله بحبل الله واللجوء إلى رحابه - فهل بقى على لياذه بواحة الرب، أم ناداه عناده ليخوض اللجج ويطرق كل سبيل دون أن يبلغ الشاطئ الذى يريد ..

لَمْ يَعُدْ عَصْفُكَ إلاّ صَخَباً

بعد أنْ كنت تَهُزُّ المُهَجَا ورَذَاذاً مـن فَمٍ ذى عِوَجِ

حديثٍ يَنْتَهِى فى المُهَجِ

* الهلال ٢٥/٦/٠٩، ٢٧/١، ٤/٣، ٢٥/٣/٢٠١٠

حَامِلُ العُمْرِ عَلىَ كاهِلِـهِ
يُؤْثِرُ الوَحْدةَ خوْفَ الحَــرَجِ
لَزِمَ الشَّطَّ عَلى خِبْرتِــه لَمْ
يَعُدْ أهلاً لِخَوْض اللُّجَـــجِ

* * *

ذلك الفَجْـرُ جديدٌ دائِمــاً
جدَّةَ المُلـود عنـدَ المَولِــدِ
وَيَدُ الخَلاّقِ مِنْ مَكْمَنِهَــا
تُوقِـظُ المَوْعود قبل المَوْعِـدِ
عَقلُكَ الهَشُّ أشَاعَ السَّأمَا
ولَغَـا ما شَاءَ حَوْلَ المَقْصِـدِ
يَرْقُبُ الإبْداعَ فى مَغْرِبِـه
وَيَخُـورُ الوَهْـمِ مِلءُ المُوقِدِ

* * *

طَالَ يَا رِيحُ مُرُورُ السُّحُبِ
أَمْطَرَتْ أرضاً وجازَتْ غيرَهَـا
والتى جَارَتْ شَكَتْ أبْيَضَهَا
والتى جَادَتْ بَكَتْ أخْضَرهَـا
غَلْطَةُ الريحِ وكـم تَفعَلُها
خَيَّرَ الريحَ الذى سَيَّرَهَــا
أَيُّها المحْتـارُ فى حِكمتِـهِ
عَلَبَ الحَيْرَةَ من صَابَرَهَــا
ذاكَ فِعْلُ الربِّ لا فِعلِى أنَا
قَدْ تَنبهتَ لِحُلْمِ الحالِــمِ

لم تعد نفسى حوالَىَ وَفِى
داخِلى تملا شُقَوقَ العَالَــمِ
أشْهَدُ الدنيا ولن أمْلِكَهَــا
عَرَفَ القِصَّـةَ فَهْـمُ الفاهِمِ
وأنا بِالوُدِّ لَوْ أمنَحُــهُ أخْدِمُ
القصَّةَ ـ طَوْعَ الناظِـمِ

* * *

ذلك المشلولُ صَلَّى المَغربَا
قَبْلَ إطباقِ الظـلامِ الحالِكِ
وحَّدَ الحمدَ إلى اللهِ بــلا آهةِ
العُتْبَـى وبأسِ الهالِكِ
ما استَطَاعَ العجزُ أن يَمْنَعَهُ
مِن أداءِ الحقِّ نَحْـوَ المَالِكِ
ذلكَ المشلولُ فى وَحْدتِـه
عَانَقَ الرحمنَ قبـلَ الناسِكِ

* * *

يا شُجَاعَ الوُدِّ لا يخذُلُـهُ كم
يَذِل العقْلُ فى الوُدِّ الذليـلْ
أنتَ أعطيْتَ الذى تَمْلِكُـهْ
أيُّها المُعْطِى كثيراً مِنْ قَلِيـلْ
رُبَمـا لامَكَ شيْخٌ لَسِنٌ
يَنْتَقِى الرَّدَّ ويختَـارُ الدليـلْ
لمْ تَذُقْ طَعْمَ الرِّضا مهجتُهُ
فهو يعتاضُ بديلاً ببديــلْ

* * *

انْتَقَى دَوْراً لَهُ يَلْعَبُــه
بِعِنَادٍ فَدُعِـى ذا خُلُــقٍ !
يَقْطَعُ العُمْـرَ عليه درَقٌ
كالسلحفاةِ مشَتْ فِى دَرَقِ
لَمْ يطِرْ شوقاً مع المُنطَلِقِ
أو يُطَرِّف فى طيوُفِ الغَسَقِ
يَحْسَبُ الحكمةَ رِسْمَ الطُرُقِ
ويَظُنُّ الرَّبَّ إحْدَى الطُـرُقِ

* * *

ما الذى يَجْرِى بهذا المَسْرحِ
ذلك القَتْل وذاكَ الفَــزَعُ
السَّمَا تَجْمُـدُ عَيْناهَــا فَلاَ
يَرْتقِـى فيها أسًى أو جَزَعُ
وكأنَّ الحُزْنَ لا يُحزِنُهَــا
وكأنَّ الأرْضَ لا تَصْطَــرِعُ
وكأنّ الخلقَ فِى مَسرحِها
للمُعَانَـاةِ عليها جُمِعُــوا

* * *

لا تُبالغْ فى اصطِنـاعِ القَسْوَةِ
لنْ تزيدَ البَحَر مِلْحاً وعواصِفْ
تَحْطِمُ الأمواجُ فى غِلْظَتِها
قَامَةِ الجَبَّارِ مسلوبِ العواطفْ
حَاجَةُ الخَلْقِ لمن يَرْحمُهَـا
لِيَدٍ مُدَّتْ لمحـزون وخائـفْ

وَصَنُّـورٍ ليس يَبْرِي صَبْرَهُ قُدْرَةُ
العقلِ على خَلْقِ المخَاوِفْ !!

* * *

لم يَعُدْ يَنْبَحُ جُرْحٌ نابحٌ
أسْكَتَ الكَبْتُ صِياحَ الألَـمِ

أيها المرتاحُ فى خَلْوتِهِ
مَمَّ تَسْتَغْفِـرُ يـــا ذا النَّدَمِ ؟

فاتَك العَطْفُ ولَنْ تُمْنَحَهُ
بقيامٍ فـى الدُّجَى أو كَلِمِ

ذلكَ العطفُ الذى تُهْمِلُهُ
هُوَ قلبُ الدينِ عِندَ الفَهِمِ

* * *

فى عمود ١/٢٧ ـ نقلت لك الحديث الأول من قصيدة المرجان للأستاذ الجليل، المحامى الفقيه، الشاعر الأديب، محمد عبدالله محمد ـ من ديوانه العارف . وهو هنا يستكمل فى هذا الحديث الثانى ـ ما كان قد بدأه فى الحديث الأول، عما يتقلب على الإنسان من أحوال فى رحلة الحياة، وماذا يفعل إذا غربت شمسه، هل يبقى على لياذه بواحة الرب، أم يتابع عاده الذى ناداه ليخوض اللحج ويصارع الأمواج دون أن يبلغ الشاطئ الذى يريد .

فى الحديث الثانى يبدأ محمد عبدالله محمد بأنه ليس بيده أن يمنع القضاء والقدر، مثلما ليس بإمكانه أن يوقف دوران الأرض . هذه هى الشمس تشرق بالصباح، وتولى إلى الليل، دون أن تغير العيون المتطلعة إليها زرقة أو ظلمة .. فلماذا يا ربنا خيم الليل على ما بداخلنا، وهاج القلق، ولماذا غرق من غرق وعطت " الأنا "

وانحصرت فى ذاتها حتى لم تعد ترى الله، وشاب عبادتها التعلق بالألفاظ، واهتمت بالمديح دون أن تدرك المعانى، وغلبت مظاهر السطح على الأغوار وما فيها، حتى فقدت الذات بوصلتها ؟! ..

يقول محمد عبدالله محمد :

دَوَرانُ الأرضِ يا نفسُ قَضَا
ليسَ فى وُسْعِىَ أن أمنَعَهُ
كَيْفَ لا يَتْعَبُ لاَ يَنْقَطِعُ
وهو لا يَعْلَمُ ما يَصنَعُهُ
كَيْفَ تَبْنِيهِ خُيُوطُ الأَمَلِ
وبَنَاتُ الفكر هل تُرْجِعُهُ
إنَّنَا نَنْسَاهُ كَىْ نَقْبلَهُ
ونَظُنُّ العُمْرَ لا يَتْبَعهُ

* * *

لم يَزَل بالشمسِ صبْحٌ يَطْلعُ
ويُدَلِّيها إلى الليلِ مغيبْ
وَتواليهَا عُيونٌ صوِّبَتْ
للسما تَرْمِى بعيداً بقريبْ
لم تُغَيّرْ زُرْقةً أو ظُلْمَةً وإلَى
الغَمْضِ سريعاً ستُجيبْ
لَعِب الضوء بهـا لعْبتَهُ
ومضَى عَنْها غريبٌ لغَريبْ !!

* * *

نَامتْ الأحياءُ إلاّ ساهِـرَا
ربمـا يُقْبَلُ عُـذْرُ النَّائِـمِ
أصْلُـهُ النومُ وفى يقظتــهِ
سِنةٌ تَحمل غَيْـبَ الحَالِمِ
يُكْمِلُ اليقظَـةَ إذْ يَتْرِكُهَـا
تَرْكَ مغلوبٍ طريحٍ ساهِمِ
غَـادَرَ اللُّعْبةَ قَهْـراً فرأى
مَوْكِبَ الحَمْقَى بِعيْنِ الفاهمِ

* * *

يا أخى: النعسانُ فى اللهِ أنا
سَمِّنِى ما شِئتَ أوْ شَاءَ الكَسَلْ
حَسْبُنا أنْ يَحْضُرَ اللهُ هُنَـا
ليقومَ اللهُ عنَّـا بالعَمَلْ
نَحْنُ فى المالِ الذى نـعبُدُهُ
نَقْفِزُ السهلَ إلـيه والجبـلْ
نُؤثِر المالَ عَـلَى أنفسنَا ذلك
الشىءُ الــذى ليْس يُمَلْ

* * *

لـيس سَهْلاً أنْ أقـِرَّ علنًا
أننى فى الكُلِّ جـزءٌ سـاطِقٌ
أو كَمَرْجَان علــى رُفقتهِ
تَحــتَ سَطْحِ البحر حىٌّ لاصِـقٌ
إننى نفسى وإنّى عندهـا
واحـدٌ فـردٌ فريـدٌ خالقٌ !

يَرْفُـضُ الكُلَّ إذا أَغْضَبْتَهُ
وهْو طَوْعُ الحال راضٍ حانِقُ!!

* * *

ربّنَا ضِقْنَا علـى أنفسِنا
مثلما ضاقَ علينا الأفُـقُ
ما ترى يارب ؟ فـى داخلِنا
خَيَّـمَ الليلُ وهاجَ القَلَـقُ
كيف لا ينمـو علينا ورقٌ
حينَ قـد غطَّى الوجود الوَرَقُ
ثُـمَّ وصفٌ للذى تَشْـهَدُهُ
إنَّـه طفوٌ لقومٍ غـرِقوا !!

* * *

كم من الأيامِ مرَّتْ داخِـلى
ليس فيها اللّهُ بل فيها أنـا
ذلك القشرُ الذى تَجمعـه
يَمْلأ الجـوَّ تـراباً حولنَا
أنا لا أعْـبُدُ بـل أمتدِحُ
مثلَما أمْدَحُ شيئاً يُقْتَنَى !
أو شَهِـيراً خِلتُنـى أعْرِفُهُ
فاتِنَ البَسْمَةِ يبدُو مثلَنَـا !
كُلُّ ما فِىَّ على السطح يُرَى
دون أَغْوَارِ الأسى والكَذِبِ
حيثُ عَاشَ الخوفُ فى مأمَنِهِ
ونَمَا الشوكُ خِلال الحَطَبِ

هــذه الأنجــمَ لا تعرفنى
فأنـا مــلكٌ لتلك اللُّعبِ
ليس لـى شىء غلاَ أحفظهُ
وبــهِ أرتاحُ عـند التَعَبِ

* * *

خَـلِّ جنبْيــكَ لَمَنْ يَعتَرِكُ
واحفَظْ العهَـد بِفِكْرٍ حلَّقَا
فَـازَ أحيــاناً بما يُعْجِبُهُ
ويُـواسِيه وحيناً أَخفَقَـا
لــم يُصـدّقْ كلَّ ما قابلَهُ
رُبَّمَا آذاهُ شَىءٌ صدَّقـا
خُـدِّر الفِكرُ بِما صـدَّقَهُ
إبــه نَــوْمٌ بعـين رَنَّقا

فى عمود ١/٢٧، ثم فى عمود ٣/٤ ـ نقلت لـك الحـدَيث الأول، ثم الحديث الثانى، من قصيدة المرحان .. إحدى روائع ديوان العارف لأستاذى الحليل، العالم المحامى الفقيه، الشاعر الأديب، محمد عبد الله محمد ... الذى التزم فى كل أشعاره بالشعر العمودى، وبالإبحار فى عوالم الحكمة لا يتركها قط إلى غيرها مما اعتـاد الـشعراء أن يكتبـوا فيه فى المديح أو الوصف أو النسيب أو الهجـاء .. و واقـع الحـال أن محمد عبدالله محمد حكيم حتى النخـاع .. لا يتكلـف ولا يـصطنع الحكمة، وإنما هى نسيجه الشخصى الـذى أمـضى فيـه وبـه حياتـه كلها، يلقى فى كـل ميـدان بِرُطَـبٍ حـتي تـدعو العقـول للتأمـل والتفكير . رأيناه فى الحديث الأول من قصيدة المرجان يتحدث عن تقلب الإنسان فى رحلة الحياة، وماذا عساه يفعل إذا غربـت شمـسه، ورأيـاه فى الحـديث الثـانى مـصورا عجـز الإنـسان عـن مقاومـة أو

تعديل القضاء والقدر، مثلما ليس بإمكانه أن يوقف دوران الأرض، أو إشراقة الشمس، وكيف خيم ليل ما بداخل الإنسان، فهاج قلقه، وغرقت " الأنا " فيه وانحصرت فى ذاتها حتى لم تعد ترى الله .. وها هو فى الحديث الثالث من قصيدة المرجان يستأنف رحلته مع إنسان نجا مما لم ينج منه من هو أفضل منه، فى عالم تحيط بنا فيه المنايا، ولا نفارق رغم ذلك قسوتنا، لا نكلف أنفسنا إلا حفظ نصوص الدين، دون أن يكون الدين جسراً للتواصل والشعور بالآخرين، فى الوقت الذى نملأ فيه قلوبنا بالسحط حتى حُرمنا من العطف الذى أبعده الكِبْر، دون أن نبالى أو نعنى بشكرَ الله تعالى على ما يغفره لنا من أخطائنا، أو نلتفت إلى أن آية الحب لمن نعشقه، هى أن يرضى ونرضى معه .. يقول محمد عبدالله محمد : ـ

قد نَجَا والحمدُ لله على
حين لم تنجُ نفوسٌ أفضلُ
كلَّنا تَمْتَم خوفاً يسألْ
إنَّ للغير المنايا تُرْسَلُ !!
هذه القَسوة كم نُعْلِنها
عُذْرُنا أنَّا عليها نُحْمَلُ
إنَّها فِعْلُ الذى عَلَّمنَا
أنَّ منْ عاشَ عليها يُقَتلُ !!

***

عندك الدينُ بما تحفظُهُ لا
بما تَشْعُرُ نحوَ الآحرينْ
ولذا تَسْمَعُ ما تكرهُهُ
وترى عينُك دنيا الآخرينْ

وملا قلبَك ما أسْخَطَهُ

فبدا ربُّكَ ربَّ الساخطينْ

أيها المحروم قد أبْعَدَهُ قِلَّةُ

العَطفِ وكِبْرُ العابدين !!

***

سُخْطُنا المكبوت كَىْ تَغْسِلَهُ

سَالِمِ الله لما فَضَّلَهُ !؟

ذلك الشىءُ الذى نرفُضُهُ

لمْ يجِدْ عندَكَ ما يَغْفِرُهُ

إنَّنا نَشْكُرُ الله كما

يَغفِرُ الله الذى نفعلُهُ

آيةُ الحُبِّ لِمَن تَعشَقُهُ

أنَّهُ يَرْضَى ونَرضى معهُ !؟

***

بَشْرةُ الإنسان لا تَحْصُرُهُ

ذلك العقلُ حدودُ الآدمىِ

ليس كالفيل نما مِنْخَرُهُ او

كما المِخلَبُ عندَ الضَّيْغَمِ

إنه نحن وما نُمسِكُهُ لَفَّ

كالقَبْضةِ حَوَل العالمِ

غَاصَ فى البحْرِ ولا يُغْرِقُهُ

وَعَدا كالحُلمِ فوقَ الأنْجُمِ !

***

أكْرِمِ القُرْب فلَمْ تُرهِقهُ

لَهفةُ المشتاقِ إذ تَنطَلِقُ

فُتَّ محبوبَك لو تأكلهُ
وحَرَقْتَ الحُبَّ لو يحترقُ
صاحِ لن نُمْسِكَ ما نَعشَقهُ
حاجِزُ القُرْبِ ولا يحترقُ
حسبنا القربُ ولا نَعْبُرُه
بَعَدّهَ لا شيءَ أو نَفْتَرِق

***

صانعُ الخبزِ الذى تأكُلهُ
باعِ للمسكينِ خُبْزاً آخرا
جَوَّع الجوعانَ إذ يخدَعُهُ
وأجاعَ الروحَ لمَّا فَكَّرا
خُبْزُنا الربُّ فلا يفترقُ
طوَّل المُحْتَاجةَ أو قصَّرا ؟
أيُّهَا المِلَةُ هلَ تَنْقسِمُ شِقُّها
يعلو وشِقَ يُزْدَرَى ؟؟

***

قد لمحت الله والنفس معا
أيها الحيران فى وَحْدَتِهِ !!
هَبْك قرَّبتَ لَهُ قِصَّتَها
فلكم أغْرَبْتَ فى قِصَّتِهِ !!
لم تَزَلْ طفلا رَمَى لُقمَتَهُ
وهو يستَغرِقُ فى لُعْبَتِهِ
ربَّما عقلُك فى حَبْوتِهِ
يَسْحَبُ الطفلَ إلى رَشْدتِهِ

***

ذلك الشيطانُ كم تَرْجُمُهُ
إنَّهُ منديلُ هَذِى السُّفْرَة
تَمسَحُ الأوساخَ فى خِرقَتِهِ
عندما يَحْمِلُ وِزْرَ الفِطرةِ
مِلْحُ هذا البحر لو تَلعَنُهُ
قَطْرةٌ منه فبعض القطرةِ
هو ظِلٌّ غامِضٌ نصحَبُهُ لا
غنى عنه لمعْنَى الصورة !

***

مُطْلِقٌ قَيَّد علْماً نفَسهُ
بحسابٍ وقضاءٍ وقدرْ
يَصْنَعُ الفوضَى ولا يَغْفِرهُا
ويسوقُ العدلَ والظُّلْمُ ظَهرْ
هكذا قالوا وقلنا معهُمْ ذَاكَ
خَلْطُ النَّملِ فى سر القَمَرْ
تقنع النملةُ فيه نِفْسها لا
على البدرِ إذا النملُ هَجَرْ

***

كيف ازْدَرَيْتَ الصِّفْرلا تَعْرِفُهُ ؟
زَادت الأصفارُ دُنيا العدد !
ذلك السلبُ الذى تَمْقُتُهُ حَلٌّ
يا صاحِ شَديدَ العُقَدِ
حَابِكُ الصوفِ على إصْبَعِهِ
لَفَّ بالصبرِ فراغِ الأبَدِ
كلُّ شَىءٍ عنده ذو أمَدٍ ليس
فى وُسْعِكَ حَذْفُ الأمدِ!!

فى الحديث الخامس لقصيدة " المرجان "من ديوان "العارف" للشاعر المحامى الأديب الفقيه الضليع محمد عبد الله محمد، يطوف شاعرنا الحكيم بأحوال الإنسان الذى لا يحس بقيمة الثمين وسط الزحام، بل ويفتح بابه لِلبخس المألوف، ويمضى به العمر دون أن يدرك مافاته ووقع فيه إلا بالحزن والتأنيب عند الصحوة !

وكم يحس صاحب الفكر بالإحباط، وتعتصر قلبه الأحزان على ما يلاقيه،فى دنيا حل فيها الخوف وفروعه وجذوره محل الصدق والشجاعة ! .. وحين يرى كيف يمكن أن تتحول السلبيات بالصبر إلى نعم، ويتوارى الجلد والمجاهدة الصادقة فى سبيل الحق والكمال والجمال ـ يقول الشاعر الحكيم محمد عبد الله محمد :

قد لا نُحِسُّ بالثمين مَعنَا
إذْ قدْ يعيبُ فى غِمار الزحمةِ
وقد يمرُّ كالغريب وَجِلا
أو كالضريرِ بين خُبثِ الصبيةَ
وقد يَدُقُّ البابَ لا يدْخُلُهُ
ويدخُلُ المألوفُ فَوْرَ الدقَّةِ
وكم يفوت العُمْرُ لا ندركهُ
بالحزنِ والتأنيبِ عِندَ الصحوةِ
* * *

هذى غضُون الذهنِ لا تتركهُ
إذْ بناتُ الذهْنِ فيها تَلْعَبُ
يجرِى على آثارِها يستَبِقُ
صاحبُ الأفكارِ أنَّى تَذْهَبُ

تَعتَصِر القلبَ وقد تَنهَشُهُ
كم لها فيه نُيوبٌ تُنْشَبُ
قد عَقِلْتَ الخوفَ كى تَرقبَهُ
عقلك المسئولُ وهْو المذنِبُ !!

* * *

إن ما حقَّقَ هذا الآدمىَ فيه
للخوفِ فروعٌ وجذورْ !
حَسَّنَ الدنيا بما حَسَّنَها وهْى
فى العقل على الخْوف تدُورْ
زادها الخوفُ فنوناً عندما
كَثُرَتْ فيه جُيُوبٌ وبُدورْ
تملأ الأرضَ بما يملؤنا بكلام
وحُطامْ وقشور وقبورْ

* * *

قَادَكَ الخَوْفُ إلى الصَّبر عَلَى
عَضَّةِ الذئبِ وسُمِّ الحيَّةِ
ومَضَى الوقتُ فصَارتْ نِعماً
وعلى العاقل شُكرُ النِّعمةِ
ولقد تَفْخَرُ إذ تَذْكُرُهَا
ولقدْ تَخْشَى حَسودَ النَّظْرةِ
وَمِن الخوفِ على الخَوفِ نَماَ
عندَك الحِرصُ وحُسْنُ النيّةِ !!

* * *

إنّ هَذينِ على طَرْفِهمَـا
صارَعَا الموتَ وخاضا اللّجَاجَا
هَل صَفا القلبانِ لا بل حَفِظَا
سالِفَ الخوْفِ وكَفَّا الوهَجَا
شِدَّةُ العزمِ كَسَتْنَا جَلَداً
ربما تُبْذَلُ فيهِ المُهَجَاَ
وإذا تَبْحَثُ فى داخِلنَا
بذرةُ الخَوفِ لمن قد حَلَجَا!!

* * *

خَافَ بعضُ الناس من أنفسهم
خاف أن تَحْسُد عينٌ أُخْتَها
الرُّقىَ تُتْلَى وقدْ تنفعنَا
شاعَ فىَّ الأمنُ لَمَّا قلتُها
نَحْفَظُ الخوفَ بما نُطْعِمُه
مثلمَا تَحْفظُ أُمٌّ بنتَهَا
خالَ صوتُ الخوفِ فى ناصِحنا
دون أن تَسْمعَ نَفْسٌ صوتَها

* * *

انفضْ الجيْبَ فلَن تَمْلأهُ
بسوى الشوكِ وقِشْرِ الأمَلِ
تَغْلِب الخوفَ إذا تَعْرِفُه
إنه فكرُك فى المُحتَمَلِ
أرحْ الرأسَ مِنَ الحَمْلِ فَمَا
يَلِدُ الراحةَ ذِهْنُ العَجِلِ

وَكِلْ القـلبَ إلـى فِطرتِـهِ
إنهُ يُحسِنُ سَيْرَ المَهَـــلِ !
لم يزلْ جُوَّاك خَوْفُ القَرْيَـةِ
ما نما عِنـدكَ حِسُّ العَالَـــمِ
وجَّـهَ القومَ بنَـانُ الغابِـرِ
ومَشـىَ فيهم ضَريـحُ النائِـمِ
وحكايـات عليهم يَبِسَـــتْ
مثلَمـا جَـفَّ لسانُ الصائِـمِ
طَـارَ لُبُّ القَوْمِ فـى قِشْرَتِهم
إنْ رأوْا ظِـلَّ قُـدوم القـادِمِ

❁ ❁ ❁

من شعر محمد عبدالله محمد

شجيرة الـورد ! *

هل يستطيع طالب الورد أن يعثر على شجيرته بين الخصومات والعداوات، وهل استطاعت الأديان أن تجمع الإنسانية على وداد المحبة، ومباعدة العداوات ؟! اختار الأستاذ الشاعر المحامي الأديب محمد عبد الله محمد : " شجيرة الورد " عنواناً لقصيدة يخوص فيها إلى أعمق الأعماق، ويرصد عوامل نمو الأحقاد وتمادل العداوات بين الجماعات، وهل يمكن لمجتهد أن يفهم الدين إذا استحف بتداخل هذه الأحقاد والعداوات التي يتصور باعثوها أنها يمكن أن تتوارى وراء علو صوت العبادات .. هذه الأحقاد التي تتحذر وتتصل حتى بعد الموت وتتحكم في الأرواح والمصائر إلى الأبد .. إن "شجيرة الورد" لا تبقى في الغابات إلا مع الأشواك .. مصيرها للأسف ليس في يدها، بل في قبضة الغابة الشمطاء التي ترمر إلى شرور الحياة، وماذا يفيد عبير أو أريج هذه " الشجيرة " إذا لم يشاركها فيه الأقارب من عشب ومن شجر ؟!

يقول الشاعر الحكيم محمد عبد الله محمد :

هذا إلى النارِ للإحراقِ يرصُدُهُ
فإِنَّهُ الخَصْمُ عادانا نُعاديهِ
شريعةُ الحرْبِ حمراءُ معالمُها
لا يُخطئُ الخَصْمُ ما فيها وما فِيهِ

* المثل ٢٢/٧، ٢٧/٧/٢٠٠٩

بها الجماعاتُ أعداءٌ علىَ حَذَرٍ
مِن بعضِها البعضُ تُدنِيهِ وتُخفِيه
وظيفةُ الدِّينِ تأييدٌ وتَعبئةٌ
يَحمِي الجماعةَ إذ يحيا وتحمِيهِ
***
وليسَ يُحسِنُ فهمَ الدينِ مجتَهِدٌ
إذ استخفَّ بأحقادِ الجماعاتِ
فإنَّها ثَمَّ خلفَ الأمرِ ماثِـلةٌ
وفي ثنايا النَّواهِي والإشاراتِ
وحيثُما زمجرَ الإعصارُ وانطلقتْ
منه العداواتُ في صدِّ العداواتِ
فحلجل الويلُ والتنكيلُ و اندَلعَتْ
لظى الصراعِ علاَ صوتُ العباداتِ !!
***
حِقدُ الجماعاتِ بعد الموتِ متَّصِلٌ
خَلفَ المصائرِ والأرواحِ في الأبدِ
فرعونُ لا تبرحُ التوراةُ تَلعَنُهُ وكم
يُصلى بهذا اللعْنِ من بَلدِ
كم تُشرِكُ الربَّ في أحقادِها أمَمٌ
وتَستعينُ عليها منه بالمَدَدِ
شريعةُ الحربِ تحيا في ضرورتِها
كل الجماعات لم تَعْدِلْ ولم تَعِدِ
***
شجيرةُ الوردِ في الغاباتِ هلْ بَقيتْ
إلا مع الشوكِ ـ شوكِ النافرِ الحذِرِ

مصيرُها ـ رغم هذا ـ ليس في يدِها
في قبْضَةِ الغابَةِ الشمطاءِ والقَدَرِ
ماذا يُفيدُ عبيرٌ لا يشارِكُــها فيهِ
الأقاربُ من عُشْبٍ ومن شَجَرِ
وإخْوَةُ الغابِ في صَيْدٍ وفي قنص
بَعْضٌ لبعْضٍ على وَعْدٍ مع الخَطَرِ

***

أخي، الجماعةُ في حَرْبٍ وإن لَعِبَتْ
فقلبُها بين مغلوبٍ ومنتصِرِ
يَبِيتُ يحلُمُ رؤيا الحَرْبِ شاعرُهــا
فقد يُرَصِّع يَومَ النصرِ بالدُّرَرِ
وقد يُغنّي مع الأطفالِ قِصَّتَــهَا
وقد يقودُ هُتافَ الشَّيبِ لِلسَّيَرِ
فلا غرابةَ والأسبابُ داعية
إذا تَعَــلَّقَ دِينُ القَــوْمِ بالظَّفَرِ

***

لم يولَدِ السلمُ فالأرحامُ عاجزةٌ
عنْ حملِهِ وبذورُ الحرب تَمْلأها
وكلما نَشَبَتْ في الفكرِ فِكرَتُهُ
عدا من الخوف عادِيه فأجلاها
فَظَلَّ شوقَ عقيماتٍ يداعبُها
ماهَزَّ نَشْوَةَ أحْضَانٍ وملاَّهَا
اخي، الجماعةُ لا تَنْسَى معاركَها
فيها تُحِسُّ بمعناها ومبناها

***

وقفنا فى شجيرة الورد، مع الشاعر الأديب الحكيم، محمد عبدالله محمد، المحامى، عند تعجبه من عقم الأرحام عن أن تلد السلام، وكيف ينساق الأفراد وراء سطوة الجماعات التى لا تنسى معاركها. قد تكون الجماعة عملاقا ككل، ولكنها محض عضلات وقبضات بلا وجدان ولا قلب .. يسير الفرد فى أعقابها كنقطة بلا حيلة، شأن النملات السائرة على الجدران، حائرا بين السلم الذى لا يعده أحد، وبين الحرب التى تأخذ بخناق الغرائز فيصير الناس أضدادا وأعداءً .. انظر ماذا فعلت جماعة بنى اسرائيل بعيسى المسيح . جاء يبكى الناس قاطبة لا يحركه آباء وأجداد، فاتهموه بشق أمته : بنى اسرائيل، سيق كالشاة (بغض النظر عن شخصية المصلوب) منقادا لجلاد ! فهل يجود الجماعة من فى الحب حاورها إلى محبة أغيار أو من ترلهم لديها منازل الأعداء ؟! إن فى ملكوت الرب متسعا للكل، وشجيرة الورد لن تمنعها الأشواك من الجفاف، فلا حيلة لها فى غابة لا يستهويها سوى الحرب، بينما لم يخلق العطر للأحقاد، بل لإثراء المحبة والأحباب .. خميلة الورد فيها الورد مبتسم، يدعو الجميع إلى الحسنى ويبديها .. هذا الورد الذى تمسك بالعطر والصبر، لا بالغلبة بالمكر والخداع .. يذهب معاناة المتعب، ويزيد فرحة الفرحان .. السلام فهم لا يدركه إلا من نضج وطرد الخوف ـ بإيمان ـ عن أيامه القابلة ولياليه !

يقول الشاعر الحكيم محمد عبدالله محمد :

قالوا الجماعةُ عِملاقٌ فقلت لهم
نعم ! عمالقةُ الدنيا الجماعاتُ
ما للعماليق وجدانٌ ـ لها عَضَلٌ
سُوقٌ وظَهْرٌ وأكتافٌ وقبضاتُ

بها زَوابعُ فى أعماقِها سَكَنَتْ
وقســـوةٌ وغـــراباتٌ وغِـــرَّاتُ
إنّا نسيرُ على أقدامِها نُقطاً
كما تسيرُ على الحيطانِ نَمْلاتُ

***

عبدُ السلامِ قضى والحربُ حِرْفَتُ
هُولا تناقُضَ فالأسماءُ عِمْيَاءُ
لم يعشَقِ السلْمَ إنسانٌ فيعبُدُهُ
وليس للسلْمِ إطلاقـــا أرِقَّـــاءُ
هل مَنْ يقول سلامُ الله صَدَّقَها
ومَنْ يَرُدُّ - فكيف الناسُ أعداءُ ؟
يقولُها الكُلُّ لا صدقا ولا كذبا
فيها اقتداءٌ وتسكينٌ وإرجاءُ !

***

شجيرةُ الوردِ لا الأشواكُ تمنَعُهَا
من الجفافِ ولا الأوراقُ تُجديها
وليس للورد عند الغابِ جارحَةٌ
تُعِينُ فى الحربِ تَحْمِيه وتَحميها
لم يُخْلَقِ العِطْرُ للأحقادِ يورثُها
بَلْ للمحبةِ والأحبابِ يُثْرِيهَا
خَميلَةُ الورد فيها الوردُ مبتَسِمٌ
يدعو الجميعَ إلى الحُسْنَى ويُبديهَا

عيسىَ المسيحُ بَكىَ للناسَ قاطِبةً
لم يبكِ من أجل آباءٍ وأجدادِ
فقيلَ عنه شَقِىٌّ شَقَّ أُمَّتَه
وسيقَ كالشاةِ منقادًا لِجَلَّادِ
خَانَ الجماعةَ مَنْ فى الحُبِّ
جاوزَهَا إِلى مَحَبَّةِ أغيارٍ وأضْدادِ
وظَنَّ فى ملكوتِ الربِّ متَّسَعًا
للكُلِّ بالفَهْم - لم يُحْصَرْ بميلادِ

***

مازال مشكلةُ العملاقِ يُشكِلُها
تباين الفهم بيَن الناس والقِيَمِ
لسنا خلاياهُ مهما قاَل واصفنُا
عن الوراثِةِ والأَعْراقِ والقِدَمِ
نحن الأناسِىُّ أفرادٌ ويَجْمعُنَا
فَهْمٌ إلى الحقِّ أو وَهْمٌ إلى صَنَمِ
المارِدُ الضخْمُ أَفكارٌ وعاطفةٌ
يَهيجُ من وَقْعِ أحداثٍ ومن كَلِمِ !!

***

هو العواطفُ ربأَّما تَجَمُّعُناَ هو
اعتيادٌ على الإيمانِ بالعَدَدِ
هو التوافقُ فى الإيقاعِ يأنَسُهُ
طبْعُ القطيعِ ويحْمِيهِ من البَدَدِ

يزيدهُ الوصفُ أبعادًا وأقنعةً
يمُدُّهُ الوهمُ لم يشبَعْ من المدَدِ
رقى القرودُ على أكتافِهِ مَرَحًا
وتَمسَحُ السَّاقَ ـ عِشقا ـ كَفَّ معتَقِدِ

***

تَمَسَّكَ الوردُ إيمانا بعالَمِهِ بالعِطْر
والصبرِ لا بالمكرِ والغَلَبِ
وربما زادَ للفرحانِ فَرْحَتَهُ أو
كانَ عوناً لتعبانٍ ـ على تعَبِ
يقول مِعنًى لأفرادٍ عَلىَ حِدَةٍ
لا دخلَ فيهِ لصوْتِ الجاهِ والذَّهَبِ
السِّلْمُ فهْمٌ وفهم السِّلم يَعْرِفُهُ
من لا يَخافُ لياليهِ من العَطَبِ

❁ ❁ ❁

من شعر محمد عبدالله محمد

الخـــاتم *

مع الحـديث الثـانى مـن قـصيدة الخـاتم بـديوان العـارف، لأبـى الروحـى وأسـتاذى الأديـب الـشاعر الحكـيم محمـد عبد الله محمـد المحامى، طفت أسبح مع هذا العبقرى الفذ الذى طفق يتساءل .. هـل غادره الطفل الـذى بداخلـه ؟! .. فقـد سـاء خطـو العمـر، وأمـسى محروماً من لعبٍ يهون رحلته، أو ضـحك يمـازج دموعـه .. فكيـف تطاير حماس بدايات الحياة، وانفرد به العقل الوقور يملى مـا يريـده ويـنشده ؟!

يقول المفكر الشاعر الحكيم محمد عبد الله محمد :

أَغَادرَنِى الطِّفْلُ الذى كَانَ دَاخِلِى لقد
سَاءَ خطوُ العُمْرِ فى دَاخِلِى صُنْعَا
أُمْسِى بلاَ لَعِبٍ يُهَوِّنُ رِحْلَتِـى
وَلا ضَحِـكٍ يَتْلُـو مُبَاشَـرةً دَمْعـاَ
حَمَاسى بِدَايَاتُ الحَيَاةِ تَطَايَرَت
خَوَافِيهِ بَلْ نَزَعَتْ قَوَادِمَهُ نَزْعَـاَ
لِيَنْفَرد العَقْلُ الوَقـورُ بِفِرْقَتِى
يُلَحِّــنُ ما يُمْلِى وَنُنْشِـدُهُ جَمْعاَ

* * *

---

* المال ٢٠٠٩/٩/١٧

وَصَعْبٌ عَلىَ عقْلِى تَصوُّرِ رِقَّةٍ
لِذَى غَيْرِ ذى قَلْبٍ يَرِقُّ وَيأْلَمُ
وَنَسْهرُ لا يألوُ التِفَاتَ مَوَدَّةٍ
إلِيْنا - ولاَ لَحْمٌ هُنَاكَ ولاَ دَمُ
حَنَانَك إنسانِيَّةُ الإنْسِ كلُّهـا
إلهِيَّةٌ فيـهـا الغريـزَةُ تَفْهَـمُ
هَلْ الوَرْدُ إلاَّ الرَّوْضُ عَبَّرَ عِطْرهُ
عَنْ الرَّوْضِ إذْ يَشْكـُو وإذ يَتَبَسَّمُ ؟

***

وَثَبْتُ علىَ الأمواجِ والريحِ والثَّرَى
وما زِلتُ مَنْ وَثْبٍ يَفِرُّ إلَى وَثْبِ
شَرَارَةُ غَيْبٍ ذى دَهَاءٍ يقودُهـا
يُحيط بِها فى القَفْزِ واللبْثِ والكَسْبِ
لِيُطْفِئَها طُولُ الطَّرِيقِ وَرَمِلِهـا
وَشِدَّةُ بَرْدِ اللَّيْلِ فى المُنْحَنَى الصَّعْبِ
نَفَدْتَ إدا مَاتَ الشَّرَارُ وأقفرَتْ
مَنَ القفزِ أحْلاَمٌ وصِرْتَ بَلاَ قَلْبِ

***

أُغَنِّى بألْفَاظٍ مَواتٍ تَحَجَّرَتْ
فَأعْوِى كما تَعْوِى الرِّياحُ علَى القَفْرِ
وما ضَحِكَتْ فيها الحروفُ ولا بَكَتْ
ولا ارتَعَدَتْ خوْفاً ولا انْفَلَتَتْ تَجْرِى
يُجَفِّفُ إحْسَاسَ القلوبِ جَفَافُهـا
وَتمْنَعُ توصيلَ العَواطِفِ كالصَّخْرِ

بِهاَ قَلَقُ الخَرْسَاءِ ازْعَجَ امْنَهاَ علي
كَثْرةِ المحْزُونِ خَوْفٌ مِن الفَقْر

* * *

هُنا فى وُرُودِ الرَوْضِ ديوانُ شَاعِرٍ
عُيونُـك آذانٌ لَـهُ وَسَمَـاعُ
فهل تَزدَرِى الشّعْرَ المَجيدَ لِأنّـه
كَثيرٌ وقدْ يُشرىَ هُنـاَ ويُبَـاعُ
أتُتْقِنُ هذا مِثْلَهُ دونَ لُطْفِـهِ
إذنْ أنتَ يـَدُ لله أنْـتَ صَنَاعُ
وإلاَّ فما وَجْهُ الإشاحَةِ عِنْدَما
تَمُرُّ بهذا الشّعرِ وَهْـو يُـذَاعُ

❁ ❁ ❁

من شعر محمد عبدالله محمد

الخـــاتم والحديث الثالث *

طفنا معا رفق ومضات شاعرنا الحكيم محمد عبـدالله محمـد، فـى الحديث الثانى من قصيدته الخاتم بديوانه العارف . ومحمـد عبـدالله محمد مفكر عميـق شـديد الإبحـار فـى الأعمـاق .. لم تعقـه أوزان الشعر وبحوره وقوافيه وموسيقاه، عن أن يستخرج الدر مـن أعمـاق الأعماق .. وهاهو يبدأ الحديث الثالث من قصيدته الخاتم بالعودةِ إلى البحر، الذى منا من يكتفى بالعوم والطفو فيه، ويأبى البعض إلا أن يغوص ليفهم باحثا ومنقبا عن الحقيقة التى ينشدها أو يشد الإيماء إليها وتجليتها ..

يقول أبى الروحى وأستاذى الشاعر الحكيم صاحب الأفضال محمد عبد الله محمد .

أعودُ إلى البَحْرِ الذى فيه كلُّنَا
يَعُوْم فَيَطفُو أو يَغُوصُ فَيَفْهـمُ
حَيَاتُكَ فيهِ تَستَقِلُّ بِعَطْرهَـا
وذا جَسَدٌ يَذْوِى عَلَيْكَ وَيَهْـرَمُ
إِذا نَقَلَتْ كَفُّ الوِرَاثَةِ بَعْضَـهُ إلى
سِحْنَةِ الأحْفَاد يَخْفَى وَيَبْهَمُ

---

* المال ١/١٠/٢٠٠٦

فأىُّ مَجيدٍ فى خِلافَةِ مَاجِـدٍ
يَمُتّ إلَيْه والطرِيقُ لَهُ الدَمُ

* * *

وأحْفادُ عَقْلِى فى عُقول دَخلْتُـها
بِفِكرِى وغَاصَ الفِكْرُ فيها فأثْمَرا
وأمْشِى بَها عَبْرَ الدُهور كما مَشَى
ضِياَ النَّجْم قَد يَخْفَى ضِيَاهُ لِيَظْهرَا
لأنَّ سَماءَ العَقْلِ يَحْفَظُ ضَـوْءَها
كَواكِبُها مِنْ أنْ يُحِيطَ بِها الثَّرى
حَيَاتُكَ فيها لاَ يكُفُّ نَشَاطُهـاَ
وَعيْنُكَ فيها كَمْ تَحُوبُ وكَمْ تَرَى

* * *

أخِى التَقَطَتْ أيْدى الحيَاةِ عُقولَـنَا
بذُوراً فَنَمَّتْها لِتَسْكُنَ عَابـهاَ
وَتَرْقَى عَلَيْهَا او لَيَنْسجَ نَوْلُهَـا
خَمَائِل للدُنْيـا وَيفْتَحَ بابهَــا
فَتَنْفذُ فى الثَّلْج الحياةُ وفى اللظَى
وتَملأُ أشواقُ الحياةِ رِحَابَهَــا
وَتُصبح كُلُّ الخَلْق فِكرًا لأنَّهـا
تَقَمصَّهَا عقْلٌ ذَكِىٌّ وَجابهَــا

***

تَرىَ العيْنُ ظِلَّ الوَرْدِ بعضَ وُجودِهِ
وَتَعْجَبُ مَن وَرْدٍ وليس له ظِـلُّ
وما كُلُّ ما فى العيْنِ مُقلَتُهَـا التى
تَرَى فهناكَ الوُدُّ وَالغَمزُ والكُحْـلُ
وذاكَ امْتدَادٌ فى الوُجُـود به بَنَـى
معانِيهِ وَالمَبْنىُّ اغلَبُـه شَكْـلُ
ومِنْهُ بِشعٌّ الحىُّ أعْجَبَ ضوئـهِ
وَتَحْلُو بِه وَجْهُ الحياةِ إذا يَحْلُـو

***

أرَاكَ خَيالاً ذا اشتيـاق ومهجـةٍ
تُحِبُّ وَتَبْنِـى مِن مَحَبَّتِها جِسْراَ
لديْهَـا لِمَنْ يَحطُو عليهِ عَجَائِبٌ
وللرافِضِ المَرْفُوضِ ما أشْبَهَ الجُحْرَا
ولا بد من هذا لذَاك لأنَّهَـــا
وُجُوهٌ لنفس الشـىءِ يَلْتمس للعُذْراَ
عَلَيْهَا أَقَامَ الجُحْرَ مَنْ كَـرِهَ الفَضَا
وَيَعْشَقُ سُكنَى الجَوِّ مَن صَنَعَ الوَكْرَا

* * *

تهَزُّكَ للأعماقِ ليْلَى بِقُوتِـــهاَ
وقد هَزَّ أعْمَاقَ الجيا عِ رَغِيـفُ
وليسَ يَرَى ليْلىَ مـن البَطْنِ جائعٌ
ولـكنْ يَرَى الأطْبَاقَ وهِىَ تَطُوفُ

حنانَك ما عَفَّ الجِياعُ وما هَفَتْ
قلوبُهُمُ للحُبِّ وهو عَفِيفُ
ولكنْ هَفَتْ للأخْذِ يَزْحَفُ مَوْجُه
وَيَغْزُو وَيَقْسُو يَشْتَهِي ويُحِيفُ

* * *

يقول محمد عبدالله محمد فى ختام الحديث الثالث :

تَعِيشُ كَلاَماً كُلّما عِشْتَ حِقْبَةً
بِهَا القِيمُ الكُبْرَى تَقَلَّصَ ظِلُّهَا
كأنَّكَ شَخصٌ دُسَّ ضِمْنَ روايةٍ
ومُخرِجُهَا يَخْتَانُها ويَمَلُّهاَ
يُمَثِّلُ مَاذَا أو لِمَاذَا فَدَوْرُهُ تَقُوم
بِهِ الأحْيَاء فى الكَوْنِ كُلُّهَا
تَقَارَبَتْ القِيمانُ حَتَّى تَشابهَتْ
تُلاقِي حَصاَهاَ أو يُلاقِيكَ رَمْلُهَا

✿ ✿ ✿

من شعر محمد عبدالله محمد

الخـــاتم والحديث الرابع *

طفنا مع شاعرنا الحكيم محمد عبدالله محمد، مع مقتطفات من قصيدته " الخاتم " بديوانه " العارف " .. بدا لى وأنا أعيد قراءة القصيدة مرة فأخرى، أن الشاعر الفيلسوف يستخدم لغة الرمز فى مخاطبة الدنيا وما تموج به من أسرار، وتتأرجح فيه بين الإقبال والإدبار .. فى كل حديث من الأحاديث الأربعة للقصيدة يتناول الدنيا من زوايا مختلفة، وحيرة عقله أمامها منذ غادره الطفل الذى كان بداخله فجعل يتمعّن ويغرق فى التأمل فى رحلة العمر التى ترد عليها الأيام .. وتتناوبها وتتناوب نفسه وعقله صنوف الأحوال .. ما بين طفولة غادرت، وحماس فى بدايات الحياة تطاير، وعقل عجز عن استبعاد مالا قلب له يرق ويألم، وغيبٍ ذى دهاء تصعب الإحاطة به، وحنجرة تحجر غناؤها فصار شدوها يعرى كما تعوى الرياح، وقلبٍ جفت ينابيعه وعواطفه، وثمار لم يعد لها طالب يقطفها، ونفس تخادع نفسها فتوارى قلة نصيبها من الدنيا بنقص غيرها .. فى دنّيا لا يغرها ولا يدنيها المديح، ولا تنفع فى صيدها شباك، غرورة لا طعم للعيش بدونها .. لا يجد لحيرته مرفأ ولا شاطئا، فيعود إلى البحر ولججه كما رأينا فى الحديث الثالث، يعوص ليفهم .. فلا فهم فى الطفو على سطحه، يضرب بعقله باحثا عن إجابات لأسئلةٍ شتى .. حتى يقف فى نهاية الحديث

* المال ١٩/١٠/٢٠٠٩

الثالث وقد ازدادت حيرته فيكتشف أنه يعيش كلاما فى كل حقبة، بينما القيم يتقلص ظلها، وهو كالظل على مسرح الحياة مدسوس ضمن روايةٍ، ليدخل من بعد ذلك إلى الحديث الرابع والأخير فى القصيدة .. فيصور نفسه كأصبع كفٍّ دار حولها وغطاها خاتم . فكيف يستطيع أن يرى شيئا بخارج المحيط الكثيف، وكيف بعينه تصور له أنه المضيف فى هذه الدنيا، بينما هو ضيف تملؤه الأطماع وتزيف عليه الرؤية، حتى يرضى الذى مِنْ ظلمْنا إياه بات ظالما يصول بدعوى العدل ممتشقا سيفه .. وكيف جعل يملأ روضته التى أجدبت وجفت بأقزام العواطف التى لا تصنع دوحة، ولا ثمرة لها إلا الشكل الذى يغر قلبه ويعزيه ساخرا من شكواه أن حديقته خالية من الخصب، وقريحته قد أجدبت .. بينما هذا الجدب قديم لا يطيب له عقل ! فهل يقوى على الاستجابة لقلبه، ويسلم بعماده وجرأته بينما هو مرتع للجبناء والفضلاء .. يطمع فيه الخاملون، حتى ليصادفه قبح دعاوى الجهلاء .! ليس أمامه إذن إلا أن يتجه إلى نور الله ليصون فى ضيائه نقاءه .. يشهد له أن تعمقه فى ملكوته هو آية ولائه، كما يشهد له أنه يعوض نقصه بكماله سبحانه وتعالى . يقول شاعرنا الحكيم محمد عبدالله محمد ..

وإصْبَعُ كَفٍّ حَوْلَهَا دَارَ خَاتَمٌ
وكيف تَرَى شيْئاً بخارجها كَيْفَا؟
وعَيْنِى كعيْنِ الخَاتِمِ الحرِّ داخِلى
تَراكَ مُضِيفًا صاحِب الدارِ لا ضَيْفَا
وإنّى لأنسى ذَاكَ ساعة عَوْدَتِى
إلى الناس والأطماع تَمْلؤنى زَيْفاً
لِيَرْضَى الذى مِنْ ظُلْمِنَا باتَ ظالما
يصولُ بدَعْوى العَدْلِ مُمْتَشِقاً سَيْفاً

مَلأتُ بأقزامِ العَواطِفِ رَوْضَتِى
فليس بها دَوْح يَطولُ ولا نَخْـلُ
عَلَى أنَّ فيها الشَّكْلَ مازَالَ باقِياً
عَزاءً لقلبِى لَمْ يَضِعْ مِنْ يدى الشَّكْلُ
فكيف إذَنْ أشكُو خُلُوَّ حَدِيقتى
مِنْ الخِصْبِ والقَزَمُ الذى دَاخِلى تَغْلُ؟
تَأمَّلتُ واسْتَنفَدتُ كلَّ قَرِيحتى
وَجَدْبِى قَدِيمٌ لا يَطبُّ لَـهُ عَقْـلُ

* * *

أتَقْوَى عَلَى أن تَستَجِيبَ حَقِيقَةً
لقلْبِكَ لا كالنَّـاسِ للغُلَـواءَ
فأنْت عَنيدٌ لا إخالُكَ سَالِمـا
وأنت جَرِىءٌ مرْتَـعُ الجُبَنَـاءِ
يَثُورُ عَليْك الحَامِلونُ سِيَاسَةً وَبِا
وَنَلْ مَا تَلْقَى مَـنَ الفُضَـلاءِ
وأَقْبَحُ مَنْ كُلِّ القَبائح صَادِقٌ
تَحدَّى دَعَاوَى العَقْـلِ والعُقَـلاءِ!!

* * *

أصونُ نَقَائِى فِى ضِيَائِك عامِدٌ
الكيلا تَرى عَيْنـى مِكـانَ نَقائِى
وأحْسَبَ عُمقِى فى عَلائِك شاهِداً
علِى أنَّنِى مـا ضَلَّ عَنْكَ وَلاَئِى
وألْصِقُ نَقْصِى فى كَمالِكَ شاهداً
وقد صَحَّ فىَ جَهـدْى إلِيْكَ بَلائِى
أذاكَ صَحِيحٌ ما وصَفتُ أمْ الذى
وصَفتُ خَيالِى قُلتُهُ ورِيائـى ؟!

من شعر محمد عبدالله محمد

الزهر الصناعى ! *

هذا العنوان، عنوان لقصيدة للمحامى الفقيه، الشاعر الحكيم الفيلسوف محمد عبد الله محمد ..واحدة من قصائد ديوانه "العارف" الذى امتلأ بشعر الحكمة، لا تكاد تطل على أى قصيدة من قصائده حتى تدرك أنه غواص يضرب فى الأعماق ويرنو إلى بعيد . يحرك السواكن، ويلفتك إلى بحور عميقة، يبحر فى لججها وأمواجها، تلاطمه ويلاطمها، آملا أن يصل إلى الشطآن .. تحت العنوان الموحى بمقصوده: "الزهر الصناعى" ـ يقول الشاعر الحكيم محمد عبد الله محمد :

ربما تُخْـرَقُ الحدود فتقـوّى
وبسُدُّ العِصيانُ أزرَ الوَلاء
ويجىء الوفاءُ فى خطْوةِ البُعدِ
وتنمو مسرةٌ مِـن بكـاءِ
وتموتُ الأوراقُ كـى يولَدُ الفرْعُ
وتَفْنـى الآباءُ للأبنـاءِ
ربما يزعجُ السكونُ أمانِـىَّ
أثقلَتْ نومَهـا على الضوضاءِ

* * *

---

* ٢٠٠٩/١١/٣

يأخذُ الضاحكُ الخفيفُ على الحبِّ ضِعفَ ما يشتهى مِن الإطراءِ
ويَقُصُّ الوقُور أجنحة الأُنس ويشكُو الملالَ فى العليـاءِ
عندما يفتحُ الشَقَاءُ دراعيه فَيَمْلأَ الحيَاة بالأعـداء
وشقاءُ الكِبار يلتَحِفُ الكِبْرَ غريبُ الإيمـاءِ والإيحاءِ

* * *

مجازات النَّعِيمِ ولا نَعيمُ! وأَبْدالُ السرورِ ولا سُرُورُ
يَظَلُّ فُؤَادكَ المُشتاقُ يظمى وساقِيَةُ الوجودَ بهِ تدور
وتأخذُ منهُ ما يحلو لديهـا طيورُ الفكرِ تسكُنُ أو تثورُ
ولكم صالَحْتَ نفسَك باصْطِلاح وكم عزَّى كرامتَكَ النفـورُ

* * *

أفكر ما أفكِّرُ ثُـمَّ آوى مليءَ الكَفِّ بالعجزِ القديمِ
إلى رأىٍ عَلَيْه الكُلُّ نامـوا ويرْويـه الفهيمُ عن الفهيمِ
سَلِيمٌ ها هُنَا أصْلا وفَصْلا وليس هُنَاكَ بالرأىِ السليمِ
وإجْمَاعُ البريَّةِ فى اعتقـادٍ مَحَاقُ العقلِ والفِكرِ القويمِ

نُخاطِبُ نفسَنا فى كلِّ شىءٍ
وَنُعْجَبُ مِن براعتِنا بنونَا
ونَجْهلُنا الوجودُ ولا يَرانَا
وما زادَ الوجودُ بأنْ نكونَا
فهذا الشيخُ عاشَ على التَّصابِى
يُحَدِّقُ منذ أن فَقَدَ العيونَا
ولا يدرى لُغَاهُ ولا لُغَانَا
وَحَيَّرَ فى بَراعَتِهِ الظّنونَا

* * *

مَعِى جَسَدٌ أراه ولا يَرانِى
أَحُرُّ عليه ألوانَ الشقاءِ
وأَزعُمُ أنَّه يُودِى بروحِى
ويدفعُنِى لأوْدِية البَلاءِ
وخَصْمِى لا يُردُّ على ادعائى
ولا يَقْوَى على ردِّ الرياءِ
تَحَمَّلنِى تَحَمُّلَ مُستميتٍ
ليلفِظَنِى إذا حُمَّ انقضائِى

* * *

يعلمُنى الوجودُ خِداع نَفسى
و إلا ما صَبرْتُ على الوجودِ
تَوقّعتُ الأمانَ فَمِتُّ خوفَا
وعاقَبَنِى الهُبوطُ على الصعودِ
معانى الفكرِ تُفعِمُها أمانٍ
ومَلْءُ إرادتى زَبَدُ الوعودِ
وزَوَّدَنى التذكّرُ بامتدادٍ
فحولْتُ الخِداعَ إلى صُمودِ

من شعر محمد عبدالله

الشّص *

وقفت متأملا حائرا فى هذا العنوان : "الشّص" .. الذى اتخذه أستاذى وأبى الروحى صاحب الأفضال التى لا تعد ولا تُحصى، الأستاذ الكبير المحامى الشاعر الأديب محمد عبد الله محمد .. واتخذه عنوانا لإحدى قصائده فى ديوان "العارف" .. وزادت حيرتى حين طفقت أقرأ أبياتها، محاولا أن أستخلص سبب اختيار الأستاذ محمد عبدالله محمد " للشّص " عنوانا لقصيدته التى يبدؤها بلغة العيون وإطراء المحاسن، فجعلت أتساءل أى عيون يقصد، وإلى أى حلاوة يرمى، وإلى أى مجد يرمز، فهو على الدوام عميق الأغوار يلزمك التأمل الطويل حتى تستخلص رؤيته من الأعماق لتطفو فى النهاية إلى ما يريد محمد عبدالله محمد أن يبديه لك يقول :

عَيْنُكِ الحُلْوَةُ مَجْدٌ فاحْمِلِى
ذَلِكَ المَجْدَ بِقَلْبِ الشَاكِرِ
تِيهِى مَا شِئْتِ هَنِيئاً إنما
جَنّبِى العَيْنَ حِسَابَ التَاجِرِ
لا تَخَافِى السِّنَّ فالسِّنُّ رُقَى
تَمْلأُ العَيْنَ بِسِحْرِ السَّاحِرِ
رِقَّةُ العَيْنِ عَجِيبٌ أمرُهَا
حُلْوُهَا الأوَّلُ عَذْبُ الآخِرِ

---

* المال ١٢/٥ ، ٢٠١٠/٥/١٣

ذلك المَجْدُ مِن الرَّبِّ ألاَ
تشكرين الرَّبَّ شُكْرَ الزَهْرَةِ
هَيَّأ الجَوَّ لِكَىْ تَحْظَىْ بِه
وانْتَقى البَذْرَةَ تلْوَ البَذْرَة
لِيَبُوحَ الحُسْنُ فى دَهْشَتِهِ
بالذى تُخْفى دُهُورُ القُدْرَةِ
حَىَّ هَمْسَ الحُسنِ فى نَشْوتِهِ
مِنْ بَرِيق الطَّرْفِ حُلْوِ النَّظْرَةِ

***

مُعْظَمُ القَسْوةِ فَهْمٌ يا أخِـى
يَتَغَاضَى عَنْ مَكَانِ الألَمِ
والذِى يَأكُل لَحْمًا مِثْلَنَـا
يُقْنِعُ العَقْلَ بِذَبْحِ النَّعَـمِ
قد قَسَا فى الذئبِ قَلْبُ الآدَمِى
وقسَا عِنْدَ اشْتِدَادِ النّـدَمِ
شَوَّهَ المحْبُوبَ فى الحُبِّ
وقد غَازَلَ الغَيْبَ بِنَحْـرٍ وَدَمِ

***

عِشْتَ بالتَكْرَارِ مِنْهُ نشأتُكْ
وعَلىَ التَكْرَارِ تَبْنـى دَوْلَتَكْ
أيّها الراقِصُ يَقْفُو راقِصـاً
ذلك الصافِقُ يُنْهـى رَقْصتَكْ
نَظَّمَ الوَحْدَةَ إذْ رَدَّدَهـا
ومَضَى المَاضِى لِتَقْرَا قِصَّتَكْ
وأشَاع الخَوْفَ مِن قِلَّتِهَا لنْ
يُطيلَ القَصَّ فاغْنَمْ فُرْصتَكْ

عَقلِيَ البَدَوِيُّ كم جَالَ سُدًى
في فيافِي الشوقِ لا يَبْغِى القِرَى
ذلك الشارِدُ يَقفِزُ شَارِدًا
يَطلُبُ العَتْمَةَ حُبًّا فى السُّرَى
لم يَزَلْ يتْرُكُ صُبْحًا لدُجًى
صاعِدَ النَّجْمِ بَطِيء القَهْقَرَى
لا تَرَاهُ فى مَبَانِيهَا القُرَى
كَرِهَ السَّقْفَ وعَافَ الحُجَرَا

***

لا تَقِفْ مِنِّى بَعِيدًا كإلَه
تَمْنَحُ الإرْشَادَ والنُصْحَ الثمِينْ
كُلُّ نُصْحٍ يا طَبِيبِى وَصفةٌ
قَلَّمَا يَنْجَعُ فى دَاءٍ دَفِين
قِفْ مَعِى فِعْلاً على أرضِ
الشَّقَا واَفْهَمْ الإنسانَ فَهْمَ البائسينْ
ولْتَكنْ أوْسَعَ مِنِّى خُلُقًا
ورحانًا فى عِتَابِ الآخرِين

***

قد تَحسَّسْتُ طرِيقى صَوْبَه
رُبَّما حَارَ طرِيقِى وَعَرجْ
وهْو قَدْ لَفَّتْ شَرِيطى كَفُّهُ
يَحْذرالأعْمَى على الدَّوْر دَرَجْ
لامَتْ العِمْيَان أعمَى مِثْلَها
وَسَّعَ الخَطْوَ قَليلاً فَحَرجْ
قُلْ لِمَنْ غَابَ طَرِيقى نَحْوَهُ
ما عَلى الأعْمَى حَنانَيْكَ حَرَج

لا تُفَسِّرْ لى لماذا جِئْتَ بى ليسَ
يُجْدِينى فإنّى هَا هُنَـا
احفظُ الوَهْمَ من الوَهْمِ ولاَ
أقبَلُ الواقِعَ مَنْ غَيْرِ مُنَـى
هلْ يؤدّى لِى حِسَابٌ عِنْدَما
يَنْتَهِى بالموْتِ داكَ المُنحَنَـى
ما الذى أهْرِفُ - إنّى مُسْرِفٌ
قَد تَخَيّلْتُ حِـوارًا بَيْنَنَـا

* * *

يواصل الأستاذ المحامى الشاعر الأديب، محمد عبدالله محمد، فى قصيدته " الشّص " من ديوانه العـارف، فيقـول استئنافا لما وقفنا عنده بالأمس :

العَمىَ الجزئىُّ شىءٌ لازِمٌ
لِوُجُودِ الكونِ ذى النَّظْمِ العَجِيبْ
هذه النَّبْتَةُ مَدَّتْ خَيْطَها
تَطْلبُ الماءَ فتُخطِى وَتُصِيبْ
يَنْجَحُ النَّسْرُ إذَا انقَضَّ هُنَا
وهُنَاكَ النَّسْرُ يُكْدِى ويَخيبْ
ما بَدَا خَطَأً سَيَغْدُو قَدَرا
فَمَعِيدُ المَوْجِ يَلْهُو بِقَرِيبْ
نَامَ والشّصُّ تَدَلّى جَنْبَهُ
صَادَ حُوتاً لم يَصِدْهُ يَقِظُ
هذه الأسبَابُ سَارَتْ دَرْبَها
لا تَعِى وَعْظَ الذى قد يَعِظُ

غَاظَـتَنَا مِنْهَـا تغابيـها إذا
أقلقَتْ قوْماً عَلىَ ما حَفِظُوا
لا تَرى العَدْلَ الذى قد زَعمُوا
لا ولا الحَقَّ الذى قد لفظُوا

***

لا تُجَرِّبْ فى المجانِين فما
يَكْرهُ المجنُونُ إلا عَاقِلَكْ
لا تنازِعْه عَلىَ أمْرٍ ولا
تَجْعَلِ المجنُونَ يَخْطُو داخِلَكْ
فلكم تَعدُو بغيضًا عندَهْ
حينما يَغْدوُ رضاهُ شاغِلَكْ
سوف لا تَرْضَى بتَاتاً وَخزَهْ
عندما يَرقَىَ سَرِيعاً كاَهِلَكْ

***

ما الذى يعنيك من هذا وذاك
عاشَ هــذا نَفْسَه أو ذالِكاَ
رأيه فـيك ولا رأىَ هُـنَاك
بتَّ يا صَاحِ هنـا أو هَـالِكـا
عيـنُهُ تَرقُـبُ لَهفَى نَجمَهُ
فكَّرتْ فى حالها لا حَالِكـا
أنْتَ لا تَمْـلِكُ بالحُبِّ أخَاك
صاحِ تَجْعَله يـومًا مالِـكَا
افتقَدْتَ الحُبَّ والحُبُّ هُنَا
حَوْلَكَ الماءُ وللمـاءِ عَطَشْتَ
لَم تَسِرْ يومًا إليه خَطْوَةً أنتَ
فى الفِكْرةِ والوَحْدَةِ عِشْتَ

كلما أسْمِعْتَ ذِكْرى ظَمَأٍ حَرَّكَتْ شَوْقًا دَفِيناً فَجَهَشْتْ
وإلهُ النورِ مِثْرًا لمْ يَرُقْ فى
قديم الدهر عَيْنَى زَرادِشْتْ

***

لَست أحْرَى من بلايين مَضَوا
بَقَاء تَشْتَهِيهِ ورِقَيامْ
إنما أولَى بذاتٍ عِشْتَها لم
يُفرِّقْها افتِرَاقٌ والتئِامْ
لم تَكُنْ يوماً لدَيْهَا عَدَمًا
بل دَوَامًا دائِماً إثْرَ دَوامْ
لا تَرى بَعْدَكَ شيئًا أبَدًا لا
يَرَى المِصْبَاحُ إطْباقَ الظَّلامْ

***

مَنْ يَرى لا بُدّ انْ يحيا وَلا
يَشْهَدُ المَوْتَ رمَادُ ورمَالْ
مَوْجَةُ الحِسِّ لَدى آخِرِهَا
آخِرُ الشَّوْلَةِ فِى نَفْسِ المَقَالْ
يَبْحَثُ الحَىُّ على عَادتِهِ
مَوْلِدَ الأرْضِ وأعْمارَ الجِبَالْ
وهْو لاَ ينفَكُّ يَشْكُو قَلَقا
أنّ هَذا الكَوْنَ يَمضِى لِزَوالْ
لا تُحَدِّقْ فى العَلاَقاتِ فقد
يَفْصِلِ التحديقُ أسْلاَكَ الحَياةْ
فى ابنِهِ حَدَّقَ زَيْدٌ باحِثًا
فقَدَ الطفْلُ مع البَحْثِ أبَاهْ

وكذا فى الرَّبِّ قد تَخسَرُهُ
عند ما تسألُ هَـــلْ ثَمَّ إلهْ ؟
ماتَ شَيْخِى لم أفتِّشْ قَلْبَهُ
عَاشَ فى قَلْبِى دُعَــاه ورِضَاهْ

❁ ❁ ❁

على هامش *

محمد عبدالله محمد !

على هامش قصيدة : الشّص، للأستاذ المحامى الشاعر الأديب محمد عبد الله محمد، عشت اليومين السابقين وأنا أتأمل فى أبياتها التى نقلتها إليك .. ترى أى معشوقة هى حلوة العينين التى يخاطبها محمد عبد الله محمد فى مطلع القصيدة ؟ ويصف حلاوتها بأنها مَحْدٌ عليها أن تلتفتِ إليه بقلب شاكر . يبدو أن الشاعر يخاطب نفسه داعيًا إيّاها ألاّ يصرفها التيه عن التفطن إلى ما حباها الخالق به، ولا أن يغلب عليها حساب التاجر فى تعامله مع الدنيا، ولا أن تخشى تقدم السن وانصرام العمر !

هو إذن يخاطب نفسه، ولكنه يخاطبها كاللائم العاتب. يعاتبها أن تقعد عن التمثل بالزهرة التى تشكر ربها على نعمائه، وعلى البذرة التى أنبتتها، والجو الذى نشأت وعاشت ونمت وترعرعت فيه. فهذا هو حال النفس .. لم يكن لها فى إيجادها يد، ولا اختيار لها فى المحيط الذى مِنْ حولها، ومع ذلك تنصرف عن التفطن لنعمة الخالق الذى جاء بها إلى هذه الدنيا ووفر ما وفره لها ولكافة الخلائق فيها !

عاش الإنسان بالتكرار منذ نشأته، وعلى هذا التكرار بنى دوله وحضاراته.. حال الفرد فى الدنيا كحال الراقص فى عملية الرقص .. راقص يقفو خطوات وتصفيقات راقص، ويحذو حذوه يتابع معه

---

* المال ٢٠١٠/٥/١٧

الإيقاع على "الوّحدة" .. فهل تفطن الإنسان لتمثل معنى دوره فى الحياة قبل نهاية "القصّ" وإسدال الستار؟!

كم جال عقله سدًى فى فيافى وبحور الأشواق لا يبغى سوى شاطئ اليقين، ولكن ما بال الشارد يقفو شاردا مثله ؟ ولمادا يقع فى الظلام من ينشد النور، ولماذا يعطى ظهره للضياء ؟!

يعاتب الشاعر محمد عبد الله محمد كل من يتعامل معه بكبرياء، ويقف منه بعيدا كأنه إله، مغترا بما يطلقه من إرشادات ونصائح يعتقد أنها ثمينة، مع أن كل ما يزجيه لا يعدو أن يكون " وَصفة ".. قلما تنجح فى علاج الداء الدفين المتجذر فى الأعماق . ينادى محمد عبد الله محمد على مرشده بأن يقف معه على أرض الشقاء التى يقف عليها، وأن يعاين ما يكابده البائسون، آملا أن يكون معه أكثر سخاءً وأوسع خلقا ورحابا .

ها هو الشاعر يتحسس طريقه صوب الحقيقة التى ينشدها، وربما عرج وانحرف فى طريقه، وربما بالغ فى الحذر كشأن الأعمى الذى يتحسس بكفه الدرج، ومع ذلك فإن العماء مستفحل فيمن حوله، وها هم العميان يلومون أعمى مثلهم على اضطراب خطاه، ولا ينجو من عيبهم وعيب سواهم عليه، مع أنه ليس على الأعمى حرج !

إنه لا يسأل ربه تفسيراً لماذا جىء به إلى هذه الحياة، فإن الحقيقة الكبرى أنه ها هنا بالفعل . يحفظ الوهم ولا يقبل الواقع ! أليس هذيانا وتخريفاً أن يتوقع المخلوق عند انتهاء منحنى حياته - كشف حساب من خالقه ؟!

يبدو أن العماء الجزئى نصيب مقدور أمام نظام هذا الكون العجيب . تأمل هذه النَبْتَة التى مدت جذورها لتطلب الماء .

فتخطئ وتصيب ! وهذا النَّسْر الذى ينقض على هدفه ويغنم غنيمته، بينما غيره من النسور تكد وتكابد ومع ذلك يخيب سعيها! إن ما يبدو لنا الآن حظا سيغدو فى المستقبل قدرا بعيد الموج يلهو بقريب !

ما بال الشّص النائم صاحبه، يصطاد حوتاً لم يصده اليقظ، أو كما قال الأمير الأندلسى عبد الرحمن الناصر الأموى :

كم مقيم فازت يداه بغنم   لم تنله بالركض كف مغير .

كلما تأمل الإنسان فيما حوله، هاله ألا يرى العدل المزعوم، فلا ينبغى للعاقل أن يجرب أو ينازع المجانين، فسوف تبدو بعيضا عندهم إذا كان رضاهم شاغلك !

ما للإنسان يفتقد الحب، والحب هنا، وما باله عاطش والماء من حوله ؟! أو كما قال الشاعر القديم :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظمأ   والماء فوق ظهورها محمول

الإنسان مشغول بفكره ووحدته عن الخطو إلى الحقيقة الكبرى القريبة منه. إنه ليس أحرى من بلايين سبقوه ومضوا دون أن يتفطنوا إلى سر الوجود وغاية الحياة، ولكن عليه أن يتمعن ويتأمل ليرى، فغدا سوف تمضى حياته كما مضت حياة الغابرين، وهو لن يرى بعد رحيله شيئا، فليس فى وسع المصباح أن يرى إطباق الظلام. من يريد أن يرى لابد أن يحيا ويبحث ويتأمل. إن الحىّ يبحث على عادته ـ مولد الأرض وأعمار الجبال، وهو مع ذلك لا ينفك يشكو قلقه من أن الكون يمضى لزوال !!

كما من محدق فى العلاقات فصله التحديق عن أسلاك الحياة وعن فهم مغزاها، وحكمتها وغايتها، وكم من طفل فقد فى البحث والتحديق أباه ! كحال الذى يفقد طريقه إلى الله وهو يتساءل فى تيهه : هل من ثم إله ؟ وفى البيت الأخير ينهى محمد عبد الله إبحاره ببيت مفعم بالرمز :

مات شَيْخِى لم أُفَتِّشْ قَلْبَهُ

عاشَ فى قَلبى دُعَاه ورِضَاهْ

هذا الشاعر المفكر تراه مشغولا فى كل ما نظمه من أشعار ـ بقضايا الإنسان والكون والحياة .. ومن المؤسف أن مزية محمد عبدالله محمد، وأعنى بها عمق فكره وأغوار ما يغوص فيه، هى التى فوتت على الكثيرين التحليق معه لفهم ما يومئ أو يشير إليه . لقد عشت قرابة ثلاثين عاما أتلقى رُطبا حيا من هذا المفكر العالم الشاعر الأديب .

لم أصادف وقد قاربت حياتى ثلاثة أرباع قرن ـ عقلا كعقل محمد عبدالله محمد، ولا فكرا كفكره، ولا صفاء كصفاء نفسه .. هذا الصفاء الذى حفظ ملامح وجهه حتى عامه الثانى والتسعين من أن تحفر فى أساريره أخاديد العمر، ففارق الحياة راضيا فاهما بسيطا بساطة المفكرين والعلماء الكبار الذين عاشوا حياتهم فى عطاء فياض مستمر لا ينتظر جزاء ولا تنويها ولا شكورا .

رحم الله أبى الروحى محمد عبدالله محمد .

✿ ✿ ✿

نظارة

محمد عبدالله محمد (*)

فى مستهل قصيدة " نظارتى " من ديوان " العارف "، للأستاذ المحامى الجليل محمد عبدالله محمد .. يقول الشاعر الحكيم :

نظارتى بعد هذى السن باردة
فيها الوضوحُ بلا دفءِ المواعيد
كأنها خَلفها غيرى تُصاحبه
بين الأباطيل أو بين التجاعيد
صِدْقُ العناقيد والأغصان كَذَّبَهُ
صمتُ الرمالِ وإطراق الجلاميدِ
إنّا وحيدون هذا كُلُّ ما وَصَلَتْ
إليه عينى على أرضِ المواجيدِ

* * *

يخرج الشاعر الحكيم من هذه الرباعية، إلى أخرى يسخر فيها من تيه الآدمى بذاته وأمجاده، ومن كبره الذى لا يفارق عزفه وإنشاده تحت راية العقل، ليخلص إلى أن المخلوق ما هو إلا ومض إخفاء وإيجاد الخالق عز وجل ..

(*) المال ٢٠/١١/٢٠٠٨

ماذا تَرَى الأرض إنْ ترصُدْها من

زُحَلٍ وهلْ تراني وأبعادِي وأمْجَادِي

نَخفَى وَنصْمتُ غَرْقَى في ضَآلتِنَا

فيم احتجاجي وإنكاري وإبعادِي

رايةُ العقلِ أطويها وأنشُرُهَا

وذلك الكبْرُ في عَزفِي وإنْشَادِي

عيونُ بُعْدِكَ تُخْفِينَا وتُوجِدُنَا

لأسا وَمْضُ إخْفَاءٍ وإيجَادِ

* * *

يمضي محمد عبدالله محمد في رباعيات هذه القصيدة التأملية، فيتعجب من حمى غريزة التملك الضريرة التي يدفعها الطمع إلى القتال من أجل ما سوف تفقده يقينًا، وكيف أن النفس عدوة القيود حتى وإن كانت من حرير، ليسخر من انجراف الآدمي إلى الاقتناء والثراء، والاعتراض على نصيبه من الخلق !.. فهل يتأمل الإنسان في النمل والأفيال أو الأعشاب والشجر .. هل هي تسأل خالقها ماذا أعطاها وماذا حجبه عنها ؟! لو فهم الإنسان لأدرك كنه الحياة، وفهم أن عزفها لن يوقفه سخط منه أو كدر !

يتنقل هذا الشاعر الحكيم من رباعية إلى أخرى متأملاً في الحياة والإنسان، ليقف في نهايتها حائرا بين السؤال والجواب . مدركا أنه لم يؤت من العلم إلا قليلا، عائدا إلى نظارته التي بدأ بها رحلته أو قصيدته، وماذا محت أنامل السن من ذاكرته وتخلل سطورها فراغات وأخطاء ..

مهاجِرُ القلبِ هل حَدٌّ لغُرْبَتِــه
لا حَدَّ للبُعْـد إذ لا حَدَّ للأمــلِ
من أرضِهِ طار نحو الشمسِ تُدْفئهُ
ولا يواجــه غيرَ البردِ والبللِ
أذاك فى خَلقِهِ شىءٌ يُساقُ لـه
كما تُساق طيــورُ البحــرِ لِلنُقَلِ
نَشْوَى بما ليس تَدْريــه مُنَوَّمـة
فى طيْرِها بنــداءِ الشوقِ والأجَلِ

* * *

أنامِلُ الســنِّ تمحو خطَّ ذاكرتى
وفى السطور فراغاتٌ وأخطاءُ
يعشو المساءُ كأن الليل سارقـه
وقد تواطـأ أطيــافٌ وأضواءُ
خبـا نهارٌ وولّـى هل يُعَوِّضه أنسُ
السُّرَى وســماءٌ فيه قَمْراءُ
وأن تَسُوقَ حديثًـا قد يصادفهُ
أذْنٌ وبسمةُ إعجاب - وإطــراءُ

المئوية

منوية محمد عبدالله محمد *

فى أكتوبر ٢٠٠٨، حلت مئوية ميلاد الأب الروحى صاحب الأفضال التى لا تعد ولا تحصى، الأستاذ المحامى الفقيه الضليع، والمفكر الأديب، والشاعر الحكيم : محمد عبد الله محمد . صاحب الباع الكبير فى القضاء والمحاماة، وأول دفعة حقوق القاهرة سنة ١٩٣٠ فى دفعة من المتميزين كان ثانيه عليها المرحوم الأستاذ الشهير الدكتور/ زهير جرانة . بدأ حياته فى القضاء، فكان متميزا وسط المتميزين، وشغل موقع المحامى العام لنيابة النقض الجنائى، شف عن نبوغ فريد منذ بداياته، وله تعليقات بالعربية والفرنسية على بعض أحكام محكمة النقض المنشورة فى المجموعة الشهيرة التى جمع أحكامها المرحوم محمود عمر باشكاتب محكمة النقض فى الزمن الأول، وصدرت فى سبعة مجلدات للأحكام الجنائية، ومثلها للأحكام المدنية، بعنوان . مجموعة القواعد القانونية لأحكام محكمة النقض .. هذه المجموعة التى ضمت أسباب الأحكام التى كتبها عمالقة القضاء ومحكمة النقض أمثال عبد العزيز باشا فهمى، وحامد باشا فهمى، ومحمد بك لبيب عطية، وأحمد بك أمين، ومصطفى باشا محمد، وعبد الفتاح السيد بك، وجندى بك عبد الملك وأترابهم .. والتعليق على أحكام لهؤلاء العمالقة عمل كبير لا

* المال ٢٠٠٩/١٢/٩

يتصدى له إلاَّ عملاق فى وزن الفقيه الفذ الأستاذ محمد عبد الله محمد

قدم هذا العملاق للمكتبة القانونية كتابا لا يزال بلا نظير حتى اليوم .. هو " فى جرائم النشر " (حرية الفكر ـ الأصول العامة ـ جرائم التحريض)، ومع أن هذا الكتاب قد نشر فى عام ١٩٥١، فإن أحداً على مدى ما يزيد على نصف قرن ـ لم يستطع أن يصارع أو يقترب من المستوى الرفيع الذى قدمه محمد عبد الله محمد فى هذا الكتاب . كتب أيضا : "بسائط علم العقاب" وأملاه على طلبة الدراسات العليا فى مذكراته التى أعيتنى الحيل فى محاولة الوصول إليها لنشرها على عشاق القانون الذين لا يزال كبارهم يحلّون هذا العلامة الكبير .

لم يكن محمد عبد الله محمد فقيهاً ضليعاً أو محامياً عظيماً وكفى، وإنما كان مفكرا موسوعياً من طراز فريد، وأديباً من مدرسة تنتمى إلى ضبط الكلمات والمعانى، وشاعرا حكيما ظل يكتب الشعر لنفسه، ولا ينشره، نحو سبعين عاما .. أتاح لى مخطوطاتها التى أذهلتنى كما أذهلت مجموعة الأصدقاء فى ندوتنا الأدبية التى كانت تعقد فى بيت الصديق الحبيب الأديب الكبير فاروق خورشيد، وانتقلت إلى منزلى بعد رحيله .. ولم يتركنى أعضاء الندوة بعد أن سمعوا جانبا من شعره العمودى المتميز المفعم بالحكمة، إلا على عهدٍ بأن أتابع نسخ هذه الأشعار ثم طباعتها، وقد فعلت بعد مجاهدة مع الأستاذ محمد عبد الله حتى قبل نشرها فى ديوان " العارف " ثم ديوان "الطريق" ..

ما كان للرجل أن يصر سبعين عاماً وزيادة على نظم هذا الشعر الرائع الرصين، والاحتفاظ به دون عرض، مالم يكن عائشاً فى الواقع والحقيقة خارج عالم الذات، منصرفا عما يغرق ويتصارع

فيه الناس من أحل الظهور وطلب الصيت والمكانة واستقبال الإطراء والإعجاب .. نفهم هذه القدرة حين نتأمل فلسفة هذا العملاق الفذ الشاخصة فى تضاعيف ما كتبه من أشعار، وفى باقى ما صاغه من مؤلفات وبحوث ومقالات .

من درره الفريدة، مقالات كتبها لمجلة رسالة الإسلام فى " معالم التقريب " بين المذاهب الإسلامية .. جمعتها له فى كتاب نشرته دار الهلال (مارس ١٩٨٩) .. والتقريب اتجاه حاد داخل الإسلام، مجرد تماما من اللون الطائفى أو الإقليمى للتخلص من العداوة المعلنة أو الخفية، بين أهل المذاهب، وتذكيرهم بأن إله الجميع واحد، وكتابهم واحد، ونبيهم واحد، وقبلتهم واحدة، وهذا هو رأس مال المسلم .

كان من حظى أن اقتربت من هذا العملاق، صاحبته ولم أفارقه لربع قرن لم أنقطع عن الجلوس إليه والتأمل معه والتلقى منه وعنه .. كان دوحة لا تمرغ رطبها الجنية، صاحب موقف من الحياة .. لم تفلت منه قط حكمتها وغايتها واغتنام أيامها لمزيد من التأمل ومن الفهم .. أبحر الرجل فى عوالم شتى فصار عالما فى القانون، والأدب، والفكر، والفلسفة، والفلك، والتاريخ، والأديان .. تحس وأنت معه أنك مع موسوعة معارف حية، ليس حسبها ما اكتنزته من معلومات هائلة فى بحور شتى بلا شطآن، وإنما تدرك فى كل عطفة أن شيئا لم يمر على هذا المحامى العلامة المفكر الفيلسوف دون أن يعمل فيه نظره ومبضعه ويشرّحه ويغوص فى صحبته إلى الجذور والأعماق حتى تنكشف له أستار من المحال أن تنكشف لسواه ..

الصـــــــور

الأستاذان محمد عبدالله ومصطفي مرعى منزل أ. مصطفي مرعى - أبريل ١٩٨٦

الأستاذان محمد عبدالله ومصطفي مرعى منزل أ. مصطفي مرعى - أبريل ١٩٨٦

الاستاذان محمد عبدالله محمد ومصطفى مرعي ،
منزل الاستاذ مصطفى مرعي ابريل ١٩٨٦

الاستاذان محمد عبدالله محمد ومصطفى مرعي .
منزل الاستاذ مصطفى مرعي ابريل ١٩٨٦

الأستاذان محمد عبدالله ومصطفي مرعى منزل أ. مصطفي مرعى   أبريل ١٩٨٦

الأستاذان مصطفي مرعى وحرمه
وفي ضيافتهما الأستاذ الكبير محمد عبد الله محمد أبريل ١٩٨٦

الأستاذان مصطفى مرعي وحرمه
وفي ضيافتهما الأستاذ الكبير محمد عبد الله محمد أبريل ١٩٨٦

الأستاذان مصطفى مرعي وحرمه
وفي ضيافتهما الأستاذ الكبير محمد عبد الله محمد أبريل ١٩٨٦

الأستاذان مصطفى مرعي وحرمه
وفي ضيافتهما الأستاذ الكبير محمد عبد الله محمد أبريل ١٩٨٦

الأستاذان مصطفى مرعي وحرمه
وفي ضيافتهما الأستاذ الكبير محمد عبد الله محمد أبريل ١٩٨٦

الاستاذ الكبير مصطفى مرعى و الاستاذ رجائى عطية ،
منزل الاستاذ مصطفى مرعى يناير ١٩٨٦

الاستاذ محمد عبدالله محمد و السيدة حرم الاستاذ مصطفى مرعى .
منزل الاستاذ مصطفى مرعى ابريل ١٩٨٦

الأستاذان محمد عبدالله ومصطفي مرعى
منزل أ. مصطفي مرعى - أبريل ١٩٨٦

الأستاذان محمد عبدالله ومصطفي مرعى ومعهما أ. رجائي عطية
منزل أ. مصطفي مرعى - أبريل ١٩٨٦

الأستاذان محمد عبدالله ومصطفي مرعي ومعهما أ. رجائي عطية
منزل أ. مصطفي مرعي - أبريل ١٩٨٦

الأستاذان محمد عبدالله ومصطفي مرعي ومعهما أ. رجائي عطية
منزل أ. مصطفي مرعي - أبريل ١٩٨٦

الأستاذان محمد عبدالله ومصطفي مرعى ومعهما أ. رجائي عطية
منزل أ. مصطفي مرعى - أبريل ١٩٨٦

الأستاذان محمد عبدالله ومصطفي مرعى ومعهما أ. رجائي عطية
منزل أ. مصطفي مرعى - أبريل ١٩٨٦

الأستاذ محمد عبد الله محمد بمكتبه عام ١٩٨٨

الاستاذان محمد عبدالله محمد ومصطفى مرعي ،
منزل الاستاذ مصطفى مرعي يناير ١٩٨٦

الأستاذ محمد عبد الله محمد ورجائى عطية -
بمكتب الأستاذ محمد عبد الله محمد ١٩٨٨

الأستاذ محمد عبد الله محمد ورجائى عطية -
بمكتب الأستاذ محمد عبد الله محمد ١٩٨٨

الأستاذ محمد عبد الله محمد بمكتب رجائي عطية
في أواخر الثمانينات

الأستاذ محمد عبد الله محمد بمكتب رجائي عطية
في أواخر الثمانينات

الأستاذ محمد عبد الله محمد ومعه رجائى عطية فى لقاء مع الدكتور رفعت المحجوب بمكتبه بمجلس الشعب عام ١٩٨٨

الاستاذ مصطفى مرعى بمنزله يناير ١٩٨٦

الأستاذ محمد عبد الله محمد ورجائي عطية
بمكتب الأخير في أواخر الثمانينات.

الأستاذ محمد عبد الله محمد بمكتب رجائي عطية
في أواخر الثمانينات

الأستاذ محمد عبد الله محمد بمكتبه عام ١٩٨٨

الأستاذ محمد عبد الله محمد بمكتبه عام ١٩٨٨

الأستاذ محمد عبد الله محمد يحمل فرح الحفيدة الكبرى
لرجائى عطية في أبريل ١٩٩٢

الأستاذ محمد عبد الله محمد يوقع على عقد قران الأبنة الكبرى
لرجائي عطية في أول التسعينات

كتب وإصدارات المؤلف

(١) **أوراق** - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٧ .
(٢) **من هدى النبوة وفى مدرسة الرسول** - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٧ .
(٣) **من هدى القرآن وذلك الكتاب لاريب فيه** - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٨.
(٤) **بشاير** - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠
(٥) **باسمك اللهم** - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠ .
(٦) **بسم الله** - المركر المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠ .
(٧) **نواب القروض** - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١.
(٨) **يارب** - المركر المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١.
(٩) **قضية النقابيين** - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١.
(١٠) **أبو ذر الغفارى** - رور اليوسف، هيئة الكتاب - ٢٠٠٢، ٢٠٠٥.
(١١) **قضية الجمارك الكبرى** - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط٢٠٠٢.
(١٢) **مواقف ومشاهد إسلامية** - دار الهلال - ط ٢٠٠٢.
(١٣) **ماذا أقول لكم** - دار الشروق - ط أولى ٢٠٠٣.
(١٤) **عالمية الإسلام** - مركز الأهرام للترجمة والنشر - ط ١، ط ٢ - ٢٠٠٣
(١٥) **إبحار فى هموم الوطن والحياة** - دار الشروق - ط ٢٠٠٤ .
(١٦) **الإنسان العاقل وزاده الخيال** - دار الشروق - ط ٢٠٠٤ .
(١٧) **السيرة النبوية فى رحاب التنزيل** - المجلد الأول - روز اليوسف - ط ٢٠٠٣ .
(١٨) **السيرة النبوية فى رحاب التنزيل** - المجلد الثانى - روز اليوسف - ط ٢٠٠٣ .
(١٩) **السيرة النبوية فى رحاب التنزيل** - المجلد الثالث - روز اليوسف - ط ٢٠٠٤ .

(٢٠) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل ـ المجلد الرابع ـ روز اليوسف
٢٠٠٥ .
(٢١) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل ـ المجلد الخامس ـ المكتب المص
الحديث ـ ط ٢٠٠٦.
(٢٢) الإنسان والكون والحياة ـ كتاب الهلال ـ أكتوبر ٢٠٠٥
(٢٣) تأملات غائرة ـ دار الشروق ـ ط ٢٠٠٦ .
(٢٤) الأديان والزمن والناس ـ كتاب الهلال ـ سبتمبر ٢٠٠٦
(٢٥) شجون وطنية ـ المكتب المصرى الحديث ـ ٢٠٠٦ .
(٢٦) الهجرة إلى الوطن ـ كتاب الهلال ـ نوفمبر ٢٠٠٧ .
(٢٧) رسالة المحاماة ـ دار الشروق ـ سبتمبر ٢٠٠٨ .
(٢٨) فى الوحدة والجماعة الوطنية ـ المكتب المصرى الحديث ـ سبت
٢٠٠٨
(٢٩) فى رياض الفكر ـ كتاب الهلال ٢٠٠٨ .
(٣٠) بين شجون الوطن وعطر الأحباب ـ المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٨.
(٣١) من تراب الطريق ـ الكتاب الأول ـ المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٨.
(٣٢) من حصاد المحاماة ـ المجلد الأول ـ المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٩
(٣٣) من حصاد المحاماة ـ المجلد الثانى ـ المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٩
(٣٤) من حصاد المحاماة ـ المجلد الثالث ـ المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٩
(٣٥) من حصاد المحاماة ـ المجلد الرابع ـ المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٩
(٣٦) من حصاد المحاماة ـ المجلد الخامس ـ المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٩
(٣٧) من حصاد المحاماة ـ المجلد السادس ـ المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٩
(٣٨) من حصاد المحاماة ـ المجلد السابع ـ المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩
(٣٩) من حصاد المحاماة ـ المجلد الثامن ـ المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩
(٤٠) من حصاد المحاماة ـ المجلد التاسع ـ المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٩
(٤١) من حصاد المحاماة ـ المجلد العاشر ـ المكتب المصرى الحديث. ٢٠٠٩
(٤٢) من حصاد المحاماة ـ المجلد الحادى عشر ـ المكتب المصرى الحديث . ٢٠١٠

(٤٣) من حصاد المحاماة ـ المجلد الثانى عشر ـ المكتب المصرى الحديث ٢٠١٠
(٤٤) من حصاد المحاماة ـ المجلد الثالث عشر ـ المكتب المصرى الحديث . ٢٠١١
(٤٥) من حصاد المحاماة ـ المجلد الرابع عشر ـ المكتب المصرى الحديث . تحت الطبع
(٤٦) دولة الأيام ! ـ كتاب الهلال أول يونيو ٢٠٠٩
(٤٧) قد تكون الديانة تجسيدا للعقل . ترجمة وعرض عن كتاب حياة العقل للفيلسوف جورج سانتايانا ـ كتاب الهلال ـ نوفمبر ٢٠٠٩
(٤٨) الأمن والأمان : قراءة فى الأمن المجتمعى فى الإسلام ـ المكتب المصرى الحديث ـ ٢٠٠٩
(٤٩) من تراب الطريق ـ الكتاب الثانى ـ المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٩
(٥٠) من تراب الطريق ـ الكتاب الثالث ـ المكتب المصرى الحديث ٢٠١٠
(٥١) من تراب الطريق ـ الكتاب الرابع ـ المكتب المصرى الحديث ٢٠١٠
(٥٢) فى دروب الفكر والحياة . مطبوعات الهلال ـ نوفمبر ٢٠١٠
(٥٣) من همس المناجاة وحديث الخاطر . المكتب المصرى الحديث ـ نوفمبر ٢٠١٠
(٥٤) الواقع أو الحقيقة ـ ترجمة عن كتاب طبيعة العالم المادى ـ للسير آرثر إديجتون ومقالات أخرى للمترجم ـ كتاب الهلال ـ ديسمبر ٢٠١٠.
(٥٥) من وحى الحج ـ دراسات اسلامية ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ يناير ٢٠١١
(٥٦) فى صحبة محمد عبد الله محمد المكتب المصرى الحديث
(٥٧) كتابات غربية . الهلال . تحت الطبع .
(٥٨) عبقرية إنكار الذات ـ أبو عبيدة بن الجراح ـ تحت الطبع .

الفهـــرس

تقديم	٣
(١) **المرفأ والانسان**	٥
(١) المرفـــأ	٧
(٢) التوحد فى الكل	١٠
(٣) عبقرية توارى الذات	١٦
(٤) غـــربة القـريب	٢٥
(٥) صفحات الذكريات	٣١
(٦) بلقنة المنقطة، ومعالم التقريب !!!	٤١
(٧) الأمل : قاطرة الإنسان والإنسانية !	٥٠
(٢) **على هامش معالم التقريب**	٥٩
(٨) على هامش معالم التقريب ـ رباط الإسلام	٦١
(٩) على هامش معالم التقريب ـ متى نفقد الـصدق	٦٤
(١٠) على هامش معالم التقريب ـ المسلمون وتيـار	٦٧
(١١) الخطاب بالمواقف والأفعال والتصرفات	٧٠
(١٢) الدين والحرية	٧٤
(١٣) المال و معالم التقريب	٧٨
(١٤) الدين والمال	٨٤
(١٥) العلم والذكر، لا الكهانة	٨٨

(١٦) الكراهية والمحبة نقيضان لا يجتمعان	٩٢
(١٧) عقل الآدمى	٩٥
(١٨) نظافة داخل الإنسان	١٠٢
(١٩) لب الإسلام هو اليقظة لله وفى الله	١٠٦
(٢٠) الجهاد الحقيقى فى الإسلام	١١٠
(٢١) الحيل، والحكمة	١١٤
(٢٢) الوحدة والمساواة	١١٨
(٢٣) المساواة وعمار الحياة	١٣١
(٢٤) الطريق إلى المساواة	١٣٥
(٢٥) العدالة والمساواة	١٣٩
(٢٦) الجد والجدية	١٤٣
(٢٧) المسعى إلى الحق	١٤٧
(٢٨) التكبيرة الصادقة	١٥١
(٢٩) الحضارة الحالية	١٥٥
(٣٠) مخاطر عبادة القوة	١٥٨
(٣١) الطاقة الروحية	١٦٢
(٣٢) قوة الطاقة الروحية	١٦٦
(٣٣) نمو الطاقة الروحية والعقل	١٧٠
(٣٤) الطاقة الروحية فى القرآن	١٧٤
(٣٥) مقاومة هبوط الطاقة الروحية	١٧٨
(٣٦) نور الله فى الآدميين	١٨٢
(٣٧) من آثار الطاقة الروحية	١٨٦
(٣٨) ما تشه الطاقة الروحية	١٩٠

(٣٩) ملة ابراهيم	١٩٤
(٤٠) عدم المبالاة	٢٠٥
(٤١) الفطرة الإنسانية، والاتجاه إلى الله	٢٠٨
(٤٢) سر الفطرة الأعظم، فى الاتجاه إلى الله	٢١٢
(٤٣) العبودية لله	٢١٦
(٤٤) نداء الفطرة ومعالم المسئولية	٢٢٠
(٤٥) وحدة الإنسانية	٢٢٤
(٤٦) عالمية الدين	٢٢٨
(٤٦) لا زعامة دينية	٢٣٢
(٤٨) معنى عالمية دعوة الحق	٢٣٦
(٤٩) لا وصاية لأحد فى دعوة الحق	٢٣٩
(٣) **فى المحاماة**	٢٤٣
(٥٠) محمد عبدالله ودوره المؤثر فى المحاماة	٢٤٥
(٤) **الشعر**	٢٥٧
(٥١) الشاعر الأديب محمد عبدالله محمد	٢٥٩
(٥٢) المسرح الحر!	٢٦٢
(٥٣) مسرح محمد عبدالله محمد !	٢٦٥
(٥٤) أمى وكعك العيد !	٢٦٨
(٥٥) الشجاع	٢٧٠
(٥٦) ديوان العارف :	٢٧٤
(٥٧) الدوم والحديث الأول	٢٧٨

(٥٨) الدوم والحديث الثانى	٢٨٢
(٥٩) من قصيدة المرحان	٢٨٦
(٦٠) شجيرة الورد	٣٠٣
(٦١) الخاتم	٣١٠
(٦٢) الخاتم والحديث الثالث	٣١٣
(٦٣) الخاتم والحديث الرابع	٣١٧
(٦٤) الزهر الصناعى	٣٢٠
(٦٥) الشص	٣٢٣
(٦٦) على هامش محمد عبدالله	٣٣٠
(٦٧) نظارة محمد عبدالله	٣٣٤
(٥) **المنوية**	٣٣٧
(٦٨) مثوبة محمد عبدالله محمد	٣٣٩
(٦) **الصور**	٣٤٣
إصدارات رجائى عطية	٣٦١

رقم الايـــــداع

٢٠١١/١٠٧٩٢

الترقيم الدولي I S B.N. 977-209-209-3